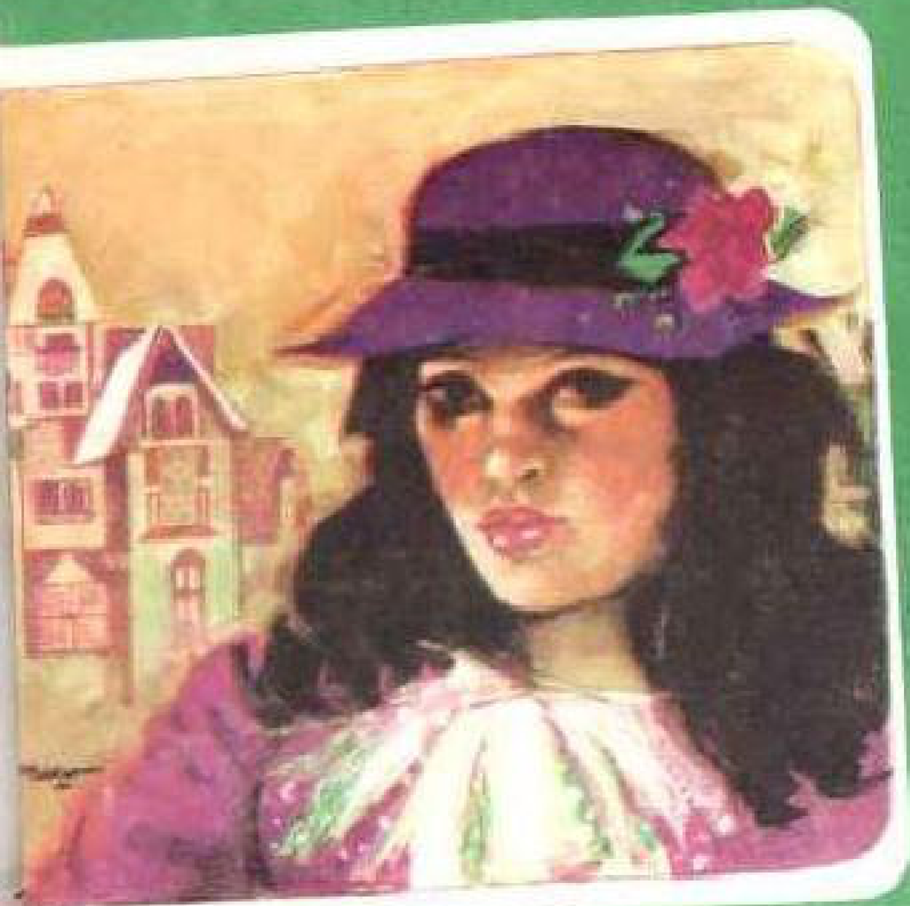
روايات الهلال

الآنسة

Rewayat — ALHILAL
No. 443 NOVEMBER

ايفو أندريتش





روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

روايات الهلال

REWAYAT AL HILAL

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٤٣ - نوفمبر ١٩٨٥ - ربيع أول ١٤٠٦

NO — 443 — NOVEMBER 1985

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: موسى عبيد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) في جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادي وفي بلاد اتحادي البريد العربي والافريقي والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوي وفي سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوي.

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج. م. ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفي الخارج بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الأسعار الموضحة أعلاه عند الطلب.

سعر العدد في البلاد العربية للأعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ١٧ قرشا للقارئ في مصر

سوريا ١١٠٠ ق. س. لبنان ١١٤٠ ق. ل. الأردن ٦٠٠ فلس. الكويت ٩٠٠ فلس. العراق ١٢٠٠ فلس. السعودية ٧ ريالات. تونس ١٥٠٠ مليم. الخليج ١٢١٠ فلس. السويد ١٣٠ [illegible] عدن ١٤٤ سنتا. لندن ١٥٠ سنتا. اليمن ٢١٠ دراخمة. كندا ٥٠٠ سنت. [illegible] استراليا ٦٠٠ سنت. السودان ٢٥٠ ق. سوداني. المغرب ١٥٠٠ فرنك. [illegible] دولار ٢٠٠٠ فرنك. اليمن الشمالية ١٥٠ بني. ايطاليا ٢٥٠٠ ليرة

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

الآنسة

بقلم

إيفو أندريتش

ترجمة

دكتور جمال الدين سيد محمد

دار الهلال

« مادمت تحمل فليغفر الله لك ! ولكن إذا كان قلبك ميتا ومغلقا بالشمع فاتها اللعنة »

« يانكو فيسليتوفيتش »

« إن المال الذى لايستخدم لخير الشعب ملعون وسيظل كذلك »

« سيما ميلاتيا »

مقدمة

بقلم د. جمال الدين سيد محمد

قد لايعلم البعض منا أن المقصود بالأدب اليوغسلافى أنه الأدب السائد بين الشعوب اليوغسلافية فى مناطق البوسنة والهرسك والجبل الأسود وكرواتيا ومقدونية وسلوفينيا وصربية وكذلك كوسوفو وفويفودينا . وبالرغم من كثرة استخدام هذا التعبير خارج وداخل يوغسلافيا الا أن الخلاف حول هذا التعبير قد اشتد أكثر من ذى قبل .

وما لاشك فيه أنه يوجد ارتباط وتقارب بين فروع الأدب اليوغسلافى مثلما يوجد أيضا ارتباط معين بين الشعوب اليوغسلافية سواء من حيث تاريخها المشترك أو من حيث لغاتها . غير أن الظروف الثقافية والاجتماعية عبر القرون الماضية فرقت بين هذه الشعوب اليوغسلافية بحيث أن بعض هذه الشعوب عاش حياته المنفصلة المستقلة المتباينة وتطور على نحو متميز ومغاير لباقى جيرانه هذا بالاضافة الى أن مختلف الدول التى سيطرت على الأراضى اليوغسلافية تركت تأثيرات متباينة غيرت من هيكل وتكوين الشعوب اليوغسلافية ، وكان من الطبيعى أن ينعكس كل هذا على أدب الشعوب اليوغسلافية . كما أنه لايمكن إغفال أن الشعوب اليوغسلافية قد تباينت سبلها عبر القرون وتفاوت تطورها الاجتماعى والثقافى . وكان هذا انعكاسا طبيعيا للأحوال والظروف المختلفة التى عاصرتها . ولكن بالرغم من كل هذا فلا يستطيع أحد أن ينكر الكثير من الخطوط المشتركة بينها . إنه - أى الأدب اليوغسلافى - أشبه بشجرة واحدة نمت وترعرعت وتفرعت منها غصون عدة وفروع متعددة فى آداب الشعوب اليوغسلافية أو ما يطلق عليه التعبير الشامل "الأدب اليوغسلافى" .

ويتميز الأدب اليوغسلافى فى بداية القرن العشرين باهتمامه بالتحركات والمذاهب الأدبية فى الآداب والمراكز الثقافية الأوربية ، فاتجه الى الأدب الأوربى ينهل منه ويتمثل به وبحركاته المختلفة ومذاهبه المتباينة من رومانسية حديثة ومثالية جديدة ورمزية ولامعقول وحركة تجديد . وعن طريق قيام الأدباء اليوغسلاف بزيارات ورحلات وبعثات الى هذه المراكز الأدبية تمكنوا من الاسراع فى تجاوز التخلف المريع الذى تميزت به الفترات السابقة . وبرز الأدباء اليوغسلاف الذين تعلموا فى أوربا وتعرفوا على الاتجاهات والمذاهب الأدبية الحديثة والذين وضعوا حدا بمهابة للمفاهيم والمعايير الرومانسية - المتخلفة فى رأى النقاد آنذاك - التى كان لايزال يكثر استخدامها على الساحة الأوربية بوجه عام .

وفي هذه الفترة الاولى من القرن العشرين تم وضع اللبنات الاولى لمذهب التجديد باعتباره موقفا وليس باعتباره اتجاها ادبيا خاصا ومحددا بشكل دقيق في الادب اليوغسلافي . وكان المقصود بتدعيم هذا الاتجاه الادبي هو تجاوز الهوة السحيقة فيما بين تخلف الادب اليوغسلافي ونهضة الاداب الاوروبية باتجاهاتها الادبية المتطورة . كما ان هذا الاتجاه الادبي دعم المميزات القومية الخاصة بفروع الادب اليوغسلافي .

ومن السمات الرئيسية السائدة في الادب اليوغسلافي حينذاك الاختفاء التام تقريبا ، للمدارس وللمذاهب الادبية القديمة . فالرومانسية بالرغم من ضعفها والتنكر لها وانزوائها طوال كل الفترة التي ساد فيها المذهب الواقعي - تلاشت اذ ذاك تلاشيا كاملا رغم وجود محاولات للتاسي بالرومانسية الجديدة . واصبحت الواقعية التي سادت في نهاية القرن الماضي ليست الا ذكرى من الايام الخوالي ولاتخص الا مؤرخ الادب والباحثين فيه .

ومع الحرب العالمية الاولى حلت سلسلة من التغيرات العميقة في مجال الادب اليوغسلافي ايضا . وسقط الكثير من الاوهام . وعفى الزمن على الكثير من المفاهيم الادبية بين ليلة وضحاها وفي خضم الهزات الاجتماعية وسيل الدماء والموت . وكالشهب السماوية بدأت تظهر اسماء ادبية جديدة إتخذ كل منها لنفسه نموذجا ومثالا من الحياة اليومية مما اشاع عدم التناسق في الجو الادبي العام . ووفقا للاتجاهات الادبية الاوروبية ظهر في يوغسلافيا العديد من الحركات الادبية التي تساهم في وفرة وتكثيف الحياة الادبية . وبدلا من انطلاق الادب اليوغسلافي في مسار ثابت واتجاه واحد فقد تعددت إتجاهاته وتنوعت اعماله الادبية وفي جميع المجالات ابتعد النقد عن الهدوء الاكاديمي وعن معاييره الموضوعية وتحرك في حرية فيما بين المدح والقدح .

وانعكست على الادب ايضا تلك الغليانات السياسية والاجتماعية التي تعرضت لها يوغسلافيا انذاك . وعبر الادباء اليوغسلاف في اعمالهم الادبية عن حياة العمال والفلاحين وعن بؤسهم وعن مقاصد الطبقة البرجوازية وعن حدة الصراعات الطبقية . وكان رجال السلطة اليوغسلاف ، وعلى الاخص خلال فترة الحكم الديكتاتوري ، يضطهدون الادب الذي يمكن ان يعرض مصالحهم للخطر . ولهذا تم حظر صدور عدد كبير من المجلات الادبية ذات الايدلوجية اليسارية .

ويجدر بنا ان ننوه الى ان ثورة اكتوبر السوفيتية كانت لها اصداء قوية في الادب اليوغسلافي الذي اخذ رويدا وفي جرأة واضحة يتخلى عن برجه العاجي المنعزل ويهبط الى الشارع اليوغسلافي . واصبح مثله مثل الزئبق الحي في رصده لكثير من التحركات الاجتماعية والقومية . ولم يعد الالتزام إختيارا بل خاصة جوهرية من خصائص هذا الادب الذي ازداد إتصاله بحياة المواطن العادي .

وحتى نهاية الثلاثينيات من القرن الحالي ظهر الجيل الثاني من الادباء اليوغسلافي الذين منحوا الروح للادب في جميع المراكز الادبية اليوغسلافية وطبعوه بطابعهم . وهذا الجيل - بالمقارنة بالجيل السابق له - كان يعرف بشكل اكثر وضوحا الى اين يتجه في مبادراته وانشطته الادبية . وقد دخرت فترة مابين الحربين العالميتين بالنشاط الديناميكي السريع للاديب ميروسلاف كرليجا (١٨٩٣ - ١٩٨١ م) الذي يعد بلاخلاف الشخصية المركزية في الادب في كرواتيا بسبب مجلاته الادبية ومجادلاته الفكرية والادبية وتاثيراته الفكرية والادبية واعماله الادبية ، بل وكذلك بسبب تواجده المباشر في اختيارات ومساعي المجتمع المعاصر . وبسبب تاثيره الفعال على الجو الادبي وعلى الادباء في يوغسلافيا كلها . وفي مواجهته يقف الاديب إيفو اندريتش (١٨٩٢ - ١٩٧٥ م) الذي كان يتطور وحده بعيدا عن الساحة الادبية . وقد رحب به النقاد على الفور ولم يختلفوا على مؤلفاته . وكان من البداية - وفقا لطبيعته الهادئة المنطوية الى حد ما - بمنأى عن المناقشات الدائرة وعن المجالات الادبية الجارية حول التيارات الادبية المختلفة . وخلال هذه الفترة النشطة الثرية الصاخبة بين الحربين العالميتين برزت الى ابعد درجة المميزات الخاصة لفروع الادب اليوغسلافي . وارتبط الادب بالمجتمع ، ولكنه في كثير الاحيان كان يفتقر الى النتائج الادبية الملموسة . بيد ان الادب اليوغسلافي باصراره على التركيز على وظيفته في المجتمع ساهم في إضفاء الحيوية والكمال على حداثة الادب .

ومن الحتم ان ننوه هنا الى ان الادب اليوغسلافي لم يذبل خلال فترة الاحتلال الهتلري . واشترك الكثير من الادباء اليوغسلاف - على اختلاف قومياتهم - في الكفاح ضد المحتل وسقط العديد منهم في ميدان القتال ولقي كثير منهم مصرعه بشكل او باخر . وخلال هذه الفترة من النضال تطورت نوعية خاصة من الادب اليوغسلافي يطلق عليها اسم "ادب حرب التحرير الشعبية" وهدفه اساسا تصوير ما حدث في حرب التحرير ورسم الشخصيات البارزة من المناضلين وتجسيد الجهود المبذولة في تشييد يوغسلافيا المستقلة الحديثة .

وليس من نافلة القول التنوية الى ان الادب اليوغسلافي في فترة ما بعد الحرب هو تكملة طبيعية للادب في فترة ما بين الحربين ولادب حرب التحرير الشعبية الذي اتسم بتلقائيته وقيمته التسجيلية وبانسانيته وبنقاء تعبيره . وعدد كثير من الادباء في هذه الفترة كانوا موجودين في الفترة السابقة . وشهدت يوغسلافيا انطلاقة ادبية لامثيل لها من قبل تعددت فيها اسماء الادباء الجدد وتدعم الكثير من الاتجاهات الادبية وازداد فيها عدد المجلات الادبية والاعمال الادبية ودور النشر . وحصلت فيها الشعوب والقوميات اليوغسلافية على المساواة الكاملة في استخدامها للغاتها . الامر الذي ساعد على سرعة تطور

الأدب والى تسجيله لمنجزات هامة .

وفى تلك الفترة التى ارتبطت فيها يوغسلافيا ارتباطا شديدا بالاتحاد السوفيتى كان الشعار الاساسى السائد فى الأدب اليوغسلافى هو الواقعية الاشتراكية ، ويتلخص مضمونها فى حتمية أن يكون الأدب انعكاسا للحياة فى المجتمع الاشتراكى ، لا أن يكون انعكاسا للحياة على ما هى عليه . وفى بعض الاحيان ادى تمسك بعض النقاد اليوغسلاف وواضعى النظريات الأدبية بالنماذج الروسية الى ان يتم قياس العمل الأدبى وفقا لملاءمته للموقف السياسى الراهن . الا ان تمرد يوغسلافيا على الاتحاد السوفيتى ادى الى تغيرات منطقية فى مجال الادب . وبالتدريج اخذ الادب اليوغسلافى يبحث عن ذاته ويهمل النماذج الادبية المستوردة ونشأ صراع طبيعى بين الافكار والاتجاهات الادبية المختلفة .

ومن المؤكد أن حصول الأديب اليوغسلافى ايفو اندريتش على جائزة نوبل للآداب فى عام ١٩٦١ كان نقطة تحول حاسمة فى شد انتباه وانظار المؤسسات الثقافية فى العالم الى هذا الأدب النامى المتطور الذى اخذت بشائر نهضته تتضح حتى استوى ادبا قويا رائعا ، يزخر بمجموعة لابأس بها من الأعمال الأدبية الجيدة ، تتمتع بقدر لابأس به من الأصالة ومن المقومات الفنية . وبعد حصول الأديب المذكور على هذه الجائزة الأدبية الرفيعة اخذ الناس فى مختلف اقطار العالم يتذوقون هذا الأدب الشاب ويحسون به وينظرون اليه نظرة ملؤها التقدير والاحترام ويقبلون على قراءة ما يترجم لهم منه .

وأصبحت مؤلفات اندريتش وكذلك مؤلفات كبار الادباء اليوغسلاف معروفة فى جميع انحاء العالم . وهكذا كان اندريتش افضل سفير وداعية للأدب اليوغسلافى داخل بلاده وخارجها . كيف لا وقد تمت ترجمة اعماله الى ما يربو على الاربعين لغة محلية وعالمية . ومازال هذا الاديب حتى الآن يحتل مكان الصدارة فى قائمة الأدباء اليوغسلاف الذين تمت ترجمة اعمالهم الى لغات اجنبية .

وقد ولد ايفو اندريتش فى عام ١٨٩٢ م ، بقرية دولاتس بالقرب من مدينة ترافنيك المشهورة بمنطقة البوسنة والهرسك . وقد كان والده عاملا بسيطا يصنع طواحين بدوية للبن ، ولكنه فقد هذه الحرفة بسبب تلاشيها تدريجيا فى الظروف الاقتصادية الجديدة خلال الحكم النمساوى المجرى . ثم حصل والده على وظيفة مكتبية . وكان يكد ويكدح بكل ما أوتى من قوة وطاقة ولذا فقد وافته المنية مبكرا . وكان اندريتش يبلغ من العمر سنتين عند وفاة والده فقام اقاربه بمدينة فيشيجراد برعايته الى أن أتم المدرسة الابتدائية .

وقد اصابت الحرب العالمية اندريتش بكثير من المحن ، فقد اعتبرت السلطات النمساوية المجرية ان اتصاله بالشباب اليوغسلافى الثائر استفزازا لها ، فاعتقلته وحددت اقامته خلال الحرب العالمية الأولى . بيد ان اندريتش كان ، بوجه عام ،

يجابه هذه المحن بصبر وشجاعة بالغتين . وكان يدافع عن نفسه وعن روحه ويحميها من الدمار بالعمل المستمر الدؤوب وبالقراءة والدراسة واكتشاف صنوف المعرفة . وقد سجل اندريتش احداث هذه الفترة واهميتها بالنسبة لحياته الادبية وآراءه فيها فى كتابين هما ديوان المنثور بعنوان "اكس بونتو" فى عام ١٩١٨ ، وآخر بعنوان "القلق" فى عام ١٩٢٠ .

ولم يقض اندريتش سنوات الحرب فى احلام الشتاء بل الف ثلاث روايات هى : جسر على نهر درينا ، وتاريخ مدينة ترافنيك ، والآنسة والفناء الملعون ومن النصف الأول لهذا القرن بدأ اسم اندريتش يلمع ويظهر تأثيره فى الأدب اليوغسلافى . ثم توالت بعد ذلك مجموعاته القصصية : عام القلق ، عمر باشا لاتاس ، العطش ، يلينا ـ المرأة غير الموجودة ، علامات ، الأطفال ، الدروب والوجوه والمناطق ، المنزل المنعزل ، علامات بجانب الطريق وغيرها . كما ان له بعض الكتب التى تحوى مقالاته النقدية والأدبية .

وليس هناك خلاف على ان اندريتش قد استلهم افكار وموضوعات رواياته وقصصه من منطقة البوسنة التى نشأ وترعرع فيها ومن ماضيها وتراثها الأدبى ، ومن الروايات والأساطير القديمة . وذلك لأن البوسنة وقعت كثيرا تحت وطأة الغزاة الاجانب ويدين سكانها بالاديان الثلاثة وبها العديد من المتناقضات القومية والاقتصادية ، ومن أجل هذا كانت منطقة البوسنة عبر القرون مركزا للتناقض وللصراع وللحروب وللاغتيالات . وكان اندريتش هو الأديب الذى يبصر الحياة فى البوسنة كلها وفى جميع اشكالها والوانها ، وكان اشبه بالعالم الباحث الذى يفحص ويجمع ـ بما لديه من نهم وشوق عظيم الى الحقائق ـ كل معلومة صادقة عن البوسنة وعن كل مايرتبط بها .

والحقيقة أن ايفو اندريتش يمثل مرحلة جديدة رفيعة ومتطورة فى تاريخ الرواية اليوغسلافية وتقدمها ، وذلك بسبب تجديده وايجازه وكلماته الفلسفية العميقة . وتصل مؤلفاته إلى اغوار الفلسفة . وفيها يعالج الأمور الكامنة فى اعماق النفس البشرية ويحللها تحليلا نفسيا ويرسم الزوايا المظلمة من حياة البشر واللحظات الحرجة التى يتعرضون لها ، وبذلك يسلب لب القارئ ويشد انفاسه ويجذب عقله الى كتاباته بالقليل الموجز من الكلمات التى أحسن انتقاءها .

ولاريب فى ان اندريتش يتمتع بموهبة خارقة على الملاحظة ويعتنى أيما اعتناء برسم شخصيات رواياته وقصصه باسلوب يبرز تمكنه من اللغة وسيطرته عليها وعلى تعابيرها . فقد كان يدقق فى اختيار كل كلمة وكل لفظ وكأنه ينحت فى الصخر نحتا يترك أعمق الأثر فى نفس القارئ . وكان يزن كل جملة ويحذف كل ما يشوهها ولايلزمها . ولذا فان معظم قصصه قصيرة ولكنها زاخرة بالمحتويات

والمضامين ، وهي كلها مكتوبة بلغة الشعر الفنية الرائعة وتعتبر كل واحدة منها عملا خالدا فريدا في نوعه . كما أن أسلوبه الروائي تميز بالهدوء والاعتدال وعدم الاثارة .

ونصل في الختام الى الرواية التي تقع ترجمتها بين ايدينا وهي رواية الآنسة (١٩٤٥) التي تعالج عدة موضوعات في ان واحد ، فهي تعالج موضوع الفراغ والوحدة وتاثيرها على حياة الانسان وتعالج رذيلة البخل المعروفة معالجة جديدة تضفي عليها الكثير من العناصر والابعاد الجديدة والصور الحديثة . ويحلل اندريتش في هذه القصة نفسية شخصية كلاسيكية هي شخصية الفتاة رايكا البخيلة التي فقدت اسمها الحقيقي واصبح افراد المجتمع يسمونها "الآنسة" نظرا لانعزالها عنهم بعد ان اصبحت اسيرة لرذيلتها وشهواتها في جمع المال وتكديسه . والقى اندريتش الضوء على دوافع هذه العزلة القاسية التي لجأت اليها هذه الفتاة ، وعلى الاسباب التي دفعتها الى ذلك . فوراء هذه العزلة مأساة عائلية محزنة لقد رأت في طفولتها والدها الذي كان يغمرها بحبه وحنانه يقع ضحية للاحتيال والخداع ويلقى شر هزيمة في صراعه المرير مع الحياة وشهدت بعينيها العاصفة التي اودت بلا رحمة ولاهوادة بسمعة والدها التاجر وبكل ممتلكاته وجعلته يشهر إفلاسه . ونصحها والدها وهو يلفظ انفاسه الاخيرة أن تكون قاسية تجاه الآخرين ، وان تقتل في نفسها كل الاعتبارات الانسانية حينما يكون الامر متعلقا بالمال . وكانت تفوح من كلمات والدها رائحة الهزيمة والفشل وفقدان الثقة بالناس اجمعين . وسرعان ما اصبحت هذه الكلمات هي القائد والموجه للفتاة الصغيرة في حياتها التي ستمضي تبعا لتعليمات والدها وإرشاداته ، وكأنها الوصفة الطبية لعلاج أمراض الحياة . وتعيش ابنة التاجر حياتها وقد تسلطت عليها فكرة الأخذ بثأر والدها ونما في اغوار نفسها الحقد والبغض . واخذت تقسو على نفسها وعلى الآخرين وتقتلع من قلبها كل ذرة للاحساس بالرحمة والشفقة وتكرس كل حياتها لجمع المال وإكتنازه وتنظر بمنظار أسود إلى كل مزات الحياة ومباهجها .

وأصبح الادخار والتقتير هو مذهب الانسة ونهجها في الحياة . ولكنه سيكون السلاح الذي يصوب إليها في النهاية . إنها لن تحقق حلمها بامتلاك اموال ضخمة تمكنها من ان تنتقم اشد إنتقام من الجنس البشري بسبب مأساة ابيها ، ولن تشعر بالمجاعة اثناء الحرب ولكنها ستصبح منعزلة عن مجتمعها وعن عائلتها وتقطع صلتها بالعالم الخارجي وتبقى في النهاية وحدها مع نقودها .

وشوه البخل وجه الآنسة وجعلها اسيرة له وللمطالبة فهي تنطوي على نفسها تماما وتغلق قلبها وتعيش في وحدة اشبه بوحدة القبور وتنعزل عن الناس وتبتعد عن كل أطايب الحياة وملذاتها وتتملكها الانانية وتحقد على كل إنسان . وحتى

ابيها لم تسلم من قسوتها وسوء معاملتها . ولم يكن هناك سوى شخص واحد يبهجها ويدخل السرور على قلبها الا وهو خالها الماجن المستهتر الذي لايشعر بالمسئولية نحو اي شيء ولا يحمل في قلبه هما ولا غما . إنه الخال فلادو الذي استطاع بطبيعته الساحرة وتصرفاته الطائشة المستهترة ان يلين قلبها المتحجر المتجمد ، فلم تعد معارضة بل اخذت تحابيه في طيشه وهي تشعر بسعادة بالغة . وبسبب شدة حبها لهذا الخال ستنهار تماما وتنهار كل مبادئها بخصوص التوفير والتقتير وذلك لأنها تعرفت على شاب طائش قريب الشبه للغاية من الخال فلادو . واستطاع هذا الشاب ـ دون أن يدرك حقيقة الأمر ـ أن يصل إلى مفاتيح قلبها واصبحت ضعيفة امامه وامام مطالبه المتزايدة .

وتقل الاحداث في هذه القصة التي تعد تحليلا تاريخيا نفسيا لامراة بخيلة ، وذلك لان حياة الانسة كانت بمعزل عن الاحداث الخارجية ولذا فقد انصب إهتمام اندريتش على التحليل النفسي . ولم يتعمق أندريتش في وصف الشخصيات الاخرى التي تحيط بحياة الانسة سواء في محيط العائلة او في محيط العمل وذلك لأن هذه الشخصيات كانت كالسحاب سرعان ماتنقشع عن حياة الآنسة . كذلك يقل الحوار في هذه القصة نظرا لانطواء الآنسة على نفسها ولندرة اتصالها بالعالم الخارجي ، ولانغلاقها قلبها .

وبهذه الخطوط الاساسية ظهر إيفو اندريتش على الساحة الادبية في يوغسلافيا وبها سجل مرحلة بارزة جديدة في تطور الفن الروائي وخلق نظرة واقعية جديدة رفع بها الادب اليوغسلافي إلى مصاف المقاييس العالمية . ولاشك أن مؤلفاته التي تم جمعها في حوالي سبعة عشر كتابا تعتبر أعظم اعمال الادب اليوغسلافي ، وكفاه فخرا انه حصل لبلاده على جائزة نوبل في الآداب .

فى احد الايام الاخيرة من شهر فبراير ١٩٣٥ نشرت جميع الصحف فى بلغراد خبرا مفاده ان صاحبة المنزل رقم ١٦ أ بشارع ستيتشكا قد تم العثور عليها ميتة بمنزلها هذا . وهى تدعى رايكا راداكوفيتش واصلها من مدينة سرايفو . وكانت تعيش فى هذا المنزل منذ خمس عشرة سنة حياة منطوية . حياة العانس المسنة الوحيدة . وكانت تعتبر بخيلة وشاذة . وقد إكتشف موتها موزع البريد الخاص بهذا الشارع الذى ظل يقرع الجرس خلال يومين ولما لم يجد جدوى دار حول المنزل والقى نظرة من خلال نافذة الفناء فوجد فى الردهة جثة العانس المسنة ملقاة على ظهرها . فابلغ على الفور رجال الشرطة .

ووفقا للعادات السائدة آنذاك فقد كانت اخبار الجرائم تحتل جانبا كبيرا من صفحات الجرائد اليومية ، إذ ان جميع الصحف اليومية كانت تستعمل جرائم القتل والمصائب والحوادث الدامية لكى تلهب فضول الجماهير باثارتها لتخيلاتهم وتحريكها لنهيزاتها . ولكى تزيد من توزيع الصحيفة بارسالها لهذا الفضول بذكر أدق التفاصيل . وقد نشرت الصحف نبأ وفاة هذه العجوز المنطوية فى مكان بارز وبعناوين مثيرة : «هل هناك جريمة ؟» . «مازال التحقيق جاريا» . . «مراسلنا الصحفى يطوف بمكان الحادث» . ولكن لم يكن مقدرا للصحف فى هذه المرة أن تنشر تقارير مراسليها الطويلة المزودة بالتفاصيل المريعة وبالصور الفوتوغرافية . إذ أن اللجنة التى إنتقلت على الفور الى شارع ستيتشكا أكدت على وجه السرعة وبلا أدنى شك انه ليست هناك جريمة ، بل أن المراة الطاعنة فى السن ماتت ميتة طبيعية بالسكتة القلبية وأن كل شىء فى المنزل كما هو فى مكانه الطبيعى لم يمسه سوء ولاتوجد اية اثار لسطو او إستعمال للعنف أو السرقة .

وما أن تم نشر خبر وفاة العانس الطاعنة فى السن حتى حضر الى شارع ستيتشكا التاجر القديم المعروف ببلغراد جورج حاج فاسيتش مصطحبا زوجته ، وهما القريبان الوحيدان للمرحومة فى بلغراد . وقد قاما باجراءات الدفن وبصفتهما اقرب اقاربها فقد إحتلا المنزل واستوليا على كل ما فيه بينما لايزال موضوع الميراث قيد البحث .

ولم تعد الصحف تذكر مطلقا إسم رايكا راداكوفيتش . ولم يكن هناك اى شىء فى حياتها او وفاتها يمكن ان يجذب إنتباه جماهير القراء أو يثير خيالهم . ولكن القصة الحقيقية لمصيرها ستحكيها لكم الصفحات التالية .

الفصل الأول

السماء فى بلغراد على جانب من العلو والامتداد ، وهى متقلبة ولكنها جميلة على الدوام حتى خلال ايام الشتاء الصافية التى يحلو فيها الاستمتاع ببرودتها . وكذلك خلال ايام الصيف العاصفة حيث تتحول السماء كلها الى سحابة قاتمة واحدة تطاردها الرياح العاتية فتسقط امطارا مخلوطة بالتراب الآتى من سهول بانونيا . والسماء جميلة ايضا فى ايام الربيع حيث تزهر جنبا الى جنب مع نباتات الارض .. وهى جميلة كذلك حتى فى ايام الخريف حينما تنوء بحملها من اسراب نجوم الخريف . إنها جميلة وفخمة كتعويض لهذه المدينة العجيبة عن كل ما ينقصها ، وتعزية من أجل كل ما ينبغى ان يكون بها . ولكن اروع ما تهديه هذه السماء الى بلغراد هو منظر غروب الشمس . ففى الخريف والصيف يكون منظر الغروب ممتدا ومتلألئا كمنظر الصحراء ، وفى الشتاء يكون المنظر مختنقا بالسحب المكفهرة والضباب الداكن . وفى جميع فصول السنة كثيرا ما تصل حرارة هذه الشمس الغاربة وراء السهل بين الانهار التى تطل عليها بلغراد ـ الى قبة السماء العالية حيث تتفتت وتنتشر فى شكل وميض احمر على المدينة الكبيرة . وحينئذ تخضب حمرة الشمس ـ لبرهة ، اقصى اركان بلغراد وتنعكس على نوافذ تلك المنازل التى لاتشع النور ـ بطبيعتها ـ إلا قليلا .

وفى نهاية ذلك اليوم من ايام شهر فبراير عام ١٩٣٥ كان هذا الضوء ينير واجهة احد المنازل الصغيرة المهجورة بشارع « ستيتشكا » ونتيجة للعمران السريع فى هذا الشارع فقد إختلطت واضطربت ارقام المنازل لدرجة انه ظهر منزلان برقم ١٦ . ولذا كان لابد لأحدهما ان يصبح ١٦ أ ويحمل هذا الرقم المنزل الاصفر المنخفض المحاصر الثالث بين منزلين كبيرين حديثين ينتميان للعصر الحديث . وهذا المنزل المنخفض ، الذى لانصيب له من جمال المنظر ، يرجع فى اصله الى ماقبل حروب البلقان حيث كان هذا الحى يعتبر نهاية الدنيا وحيث كان ثمن الارض فى المنطقة دينارا واحدا للمتر المربع . وحيث كانت المنازل لاتزال نادرة وكلها منخفضة على هذا النحو ويفصلها عن بعضها حدائق فسيحة يتوقف حجمها على ذوق وحاجة المالك . ولم تكن ارقام المنازل فى ذلك الحين على درجة من الأهمية . فقد كان الجميع على معرفة بصاحب كل منزل ، وكان

الناس في الغالب يعرفون بعضهم البعض على الأقل بالاسم او بالرؤية ، وحتى لو لم يكن هناك تعارف بينهم فقد كان نادرا ما يحتاج احدهم للآخر . وكان من السهل عليهم الخروج من الازمات عما هو عليه الحال اليوم

وهناك في شوارع بلغراد القاصية العديد من مثل هذه المنازل التي تنتمي الى الطراز البلغرادي قبل الحرب . وجميع هذه المنازل متشابهة في حجمها وشكلها وبنائها وحتى في توزيع حجراتها . وهي متشابهة ايضا في تنظيمها الداخلي الى حد ما . فهناك نافذتان او أربع نوافذ تطل على الشارع . وذلك حسب تكوين المنزل من غرفتين او ثلاث غرف . وهناك على الجدار الموجود تحت النافذة نموذج زخرفي ينتمي لمذهب الانفصالية . او زخرفة هندسية بسيطة من نفس الشكل المتكرر لأحد الفنانين المسمى « تسرلو ترافانس » . والنصف العلوي للبوابة الحديدية مصنوع من السلك المجدول ومزين من أعلى بأسنان من الصلب . وهذه البوابة توصل الى فناء صغير له ممر ضيق وحديقة صغيرة للزهور بمحاذاة الجدار ، وتتسلق على الجدار شجرة الكروم أو النباتات المتسلقة . وفي الوسط يوجد مدخل المنزل تسبقه درجة او درجتان من سلم حجري ويغطيه سقف خشبي صغير . بينما يكون السقف عند الأثرياء من الزجاج الأغبش السميك . ووراء المنزل توجد حديقة فتتوسطها شجرة من أشجار اللوز وفي الغالب يوجد بئر بجانبها . وهناك بشائر البرقوق والخوخ بمحاذاة الجدار الذي يفصلها عن حدائق وافنية الجيران . اما بالداخل فالنظام يكاد يكون متشابها في معظم الاحوال . فهناك ردهة واسعة وحولها ثلاث او اربع غرف والمطبخ

جميع هذه المنازل تتشابه في كل شيء ولاتختلف إلا في المظهر الخارجي . فبعضها مطلى من الحلى انه بحالة جيدة وتتم صيانته بانتظام ، والأبواب الحديدية للفناء مطلية بلون زيتي فاتح والنوافذ نظيفة وقد اسدلت عليها ستائر بيضاء رقيقة . وتوضح هذه المنازل أن سكانها يجارون عصرهم وانهم يعملون ويكسبون وان لهم مطالب ومغانم في الحياة . وعلى العكس من ذلك تجد البعض الآخر مهملا قبيح المنظر ، فحافة سقفه متآكلة وتغيرت أوضاع المزاريب وبهتت الالوان وبليت افاريز البناء والزخارف البدائية ، وقد تلطخ الجدار الموجود تحت النافذة برذاذ طين الشارع ونقش عليه الصبيان التدريبات الاولى لكتابة الحروف الابجدية . ومن خلال

زجاج النوافذ يظهر بالداخل الاهمال والفقر ، وببساطة يظهر ما يدل على عدم الاستعمال

والمنزل رقم ١١٦ يقع ضمن النوع الثاني ، فليس به إلا نافذتين تطلان على الشارع ، ومن الملفت للانظار وجود قضبان قوية من الصلب على النوافذ ، مما يعطى للمنزل كله مظهرا مظلما وتجعله اشبه بالزنزانات ، ووفقا لهذا المظهر يمكن الاعتقاد أن المنزل مهجور او انه ينتظر المشترى الذى سيبتاعه لا لكى يقطن به بل لكى يهدمه ويبني مكانه منزلا كبيرا جديدا يشبه عددين المنزلين اللذان يجاورانه من اليمين ومن الشمال . ولكنك إذا نظرت بإمعان ستري وراء نافذة من هاتين النافذتين اللتين لاتغطيهما ستائر ولاتوجد عليهما زهور ، إمراة عجوز تجلس منحنية لاتتحرك وقد إرتسم على وجهها تعبير شرود الفكر والتركيز الذي تتميز به وجوه النساء اللاتي يعكفن على العمل اليدوي . كانت هذه هي الآنسة « رايكا رادكوفيتش » . واقدم السكان بشارع « ستيشكا » الذين اتوا قبل الشروع في بناء المنازل الجديدة ذوات الطوابق العديدة التي يقطنها اناس جدد غير معروفين . يعرفونها باسمها ، ولكنهم جميعا منذ زمن بعيد يسمونها باختصار « بالآنسة » .

وقد انتقلت من سرايفو الى هنا عام ١٩١٩ بعد الاستقلال مباشرة وإشترت هذا المنزل وعاشت فيه مع امها التي توفيت منذ عامين ، ومنذ ذلك الحين وهي تعيش بمفردها بدون أقارب او خدم ويكاد لايزورها احد من الأصدقاء . فمم تعيش ؟ (هذا هو السؤال الاول الرئيسي الذي يطرح نفسه هنا في حياة كل إنسان ويتكرر بلا كلل الى إن يتم إيجاد او استنباط إجابة عليه) . وقد وجد السكان القدامى بشارع ستيشكا أن الآنسة تعيش حينذاك من الايجارات ومن التوفير . وإدعى البعض انها ثرية تتربع على كنز من النقود ، وإدعى البعض الآخر انها فقيرة وانها تعاني الأمرين . وعلى العموم فمنذ عدة سنوات قل اهتمام الناس بهذه الآنسة العجوز المنطوية في وسط هذه الألوان العديدة من البشر .

واصبح من النادر ان يراها الناس في السنوات الاخيرة ، فهي تذهب الى السوق الموجود عند جرن « كالبنليش » من حين لآخر . او حينما يحل الشتاء كما هو الحال الآن تخرج لكي تنظف بمفردها الثلج الموجود على الطوار امام منزلها . وهي فتاة مسنة طويلة نحيفة في العقد الخامس من عمرها ووجهها مصفر يتخلله العديد من التجاعيد الغائرة بشكل غير عادي .

وعلى الجبهة فوق الانف مباشرة تتلاقى هذه التجاعيد وتكون مثلثا متساوى الأضلاع يربط بين الحاجبين الكثيفين وفى نهاية كل من هذه التجاعيد يوجد ظل رقيق يشبه الرواسب السوداء . ولذا فان وجهها كله يتسم بتعبير قاتم مضنى يجعل نظرات العينين خالية من الصفاء لان الظلام يطل منهما . بيد أن سلوكها مستقيم ، يخلو من اثار التردد الذى يظهره الأشخاص الانعزاليون والمرضى فى كل شىء ، ومشيتها سريعة حادة . وهى ترتدى ملابس لاتمت بصلة الى جميع العصور او الازياء ، فهى ترتدى سترة سوداء وجونلة طويلة بشكل شاذ لايرتدى مثلها احد فى الوقت الحالى . كما ترتدى حذاء باليا وجوربا سميكا وتضع قبعة صغيرة من الصوف على شعرها الابيض . وعالم اليوم الذى يعيش حياة سريعة لدرجة انه اصبح معتادا على ذلك ـ لايكاد يلاحظ المظهر الغريب لهذه المرأة السمراء الطويلة النحيفة .

وفى عشية ذلك اليوم من ايام فبراير جلست الآنسة ايضا بجانب النافذة ترتق الجوارب . وقد إضطرت بعد ظهر اليوم الى الخروج لقضاء شأن من شئونها . ولكنها عادت قبل الغروب وقد بللها المطر واصابها البرد بسبب رياح فبراير المحملة بالثلوج والامطار معا . وارتدت الخف القديم وخلعت معطفها الشتوى الطويل الاسود المغمور بالماء والمصنوع من قماش خشن كقماش ملابس العسكريين . وامسكت بالمشجب القديم فى طرازه وجذبته من الركن الى وسط الردهة . ووضعت عليه المعطف حتى يجف بسرعة فبدا كأنه رجل طويل القامة بلا رأس دخل المنزل وتوقف وسط الردهة . ثم دخلت الغرفة التى بدت لها دافئة نظرا لاصابتها بالبرد . واخذت عملها اليدوى وجلست .

وتنير نوافذ الغرفة تلك الحمرة المسائية التى يبدو انها تستقر على بلغراد فترة أطول ، وتتوهج عليها توهجا أقوى من توهجها على المدن الأخرى . ولايمكن للانسان أن يعمل بطريقة مريحة فى هذا الضوء الأحمر للشمس الغاربة إلا إذا إقترب من النافذة . إذ أن الظلام قد خيم على الجزء الخلفى من الغرفة . وتتبين فى هذا الظلام مدفأة صغيرة من الصلب تتوسط اثاثا بسيطا يتألف من دولاب ورف وسرير خشبى مغطى ببطانية مصنوعة من صوف الابل . وكل شىء فى هذه الغرفة ـ ابتداء من الجدران الى الاثاث ـ يحمل طابع الاهمال وعدم الاستعمال ، كأنما يعيش فيها رجل كفيف او شخص لايبدى ذرة من الاكتراث نحو الاشياء الموجودة بهذا

الكون ويستخدمها لانه مضطر وبقدر ماهو مضطر فقط ، ولايهتم مطلقا بمكان أو مظهر هذا الشىء او ذاك . وتعطى تلك الحمرة المنعكسة من الليل فى بلغراد منظرا اكثر حزنا للاماكن المهملة الفقيرة كما تعطى منظرا اكثر جمالا للاماكن البديعة النظيفة .

وتقضى الآنسة جزءا كبيرا من وقتها فى هذه الحجرة البائسة لانها المكان الوحيد الذى تتم تدفئته ، فهى هنا تنام وتقضى يومها وهنا تعمل وتطهو على الموقد الصغير طعام غذائها البسيط الذى يعد عشاءها فى نفس الوقت . والآنسة لاتستهلك كثيرا من الوقت فى مثل هذه الاعمال كإعداد المنزل والطهى ، ذلك لانها لاتحب الاستهلاك على وجه العموم ، ولاتحب كلمة « يستهلك » او مشتقاتها او ما يمت اليها بصلة . اما العمل الذى تقوم به الآن وهو الرتق فهو شىء آخر ، علاوة على ان الانسان يتوفر لديه من الوقت والبصر ما هو أوفر من الاشياء الاخرى من جميع النواحى . وكانت تقول لنفسها المثل الشعبى القديم « الصبر والرتق هما اساس المنزل » كانت تقوله وهى تجلس بجانب النافذة وتمسك بجواربها القديمة التى قامت برتقها عدة مرات من قبل ثم تكرره فى همس وبلا وعى وترددة فى نفسها كثيرا مثلما تكرر صغار الفتيات عند العمل ، طربا وبلا صوت ، كلمات والحان الأغانى العاطفية التى لاقيمة لها فى حد ذاتها ولايعلم احد مكان او وقت ظهورها ، ولكن من العجيب انهن يجدن فيها صورة حية وتعبيرا دقيقا عن افضل امالهن ورغباتهن .

الرتق ، ياله من لذة ، وإنه فى الحقيقة صراع ابدى وتفوق مضنى على عدو خفى قوى . وهناك فى هذا الصراع لحظات جمود ثقيلة تبدو بلا نهاية . وهناك أيضا هزائم وإنهيارات ولكن هناك كذلك الكثير من اللحظات المضيئة المكرسة لطقوس العيد وحماس المنتصرين . فقد يرق او يتمزق مكان ما بأحد الخفاف او بقطعة من قطع القماش بحيث يصبح الشىء كله عديم القيمة لايصلح للارتداء او الالقاء . ولكن هنا حيث تستسلم النساء الاخريات وتذعن لهذه القوة الهائلة التى تستهلك وتبلى كل شىء فى حوزتهن وتصاحب كل حياة بشرية وكل حركة كأنها لعنة وتعمت على كاهل الوجود الانسانى علاوة على خطيئة الادمى الاول ـ من هنا يبدأ ـ بالنسبة للآنسة الصراع الفعلى وتظهر امال شاقة بعيدة . ولكنها امال رائعة فى إنتصارات عظيمة . إنها تنكب بكل مالها من قوة عذرية فائتة خفية ، قوة على الاصرار لايستهان بها . تنكب على هذا الشىء ولاتدعه من يدها

ولاتبتعد عن ناظريها إلا بعد أن تعيد حياكته ورتقه ويصبح معدا لاستعمال جديد مديد . وكانت الآنسة تقول لنفسها " لو كانت مكاني أية إمرأة أخرى لألقت بهذا الشيء ، إلا انني لن ألقِ به . فليس لدى مايسمى بالخسارة أو الضياع " . ثم تتأمل بنظرة شاردة وحب عميق هذا الخف الذي تم إنقاذه وإختطافه من بين براثن تلك القوة العدائية التي تقرض وتنخر ، وتمزق وتفسد كل ما علينا وما حولنا . حقا إن هذا الخف لم يعد جميل المنظر ، وعلاوة على ذلك فهو ضيق وملئ يصيب جلد القدمين بالسحجات والخدوش والجروح . ولكن ما هي قيمة كل هذا امام تلك اللذة التي يمنحها هذا الانتصار والاقتصاد ؟ .. لتكن ما يكن من الآلام والجروح فانها آلام لذيذة وجروح بهيجة ، بل إنها على إستعداد لان تتحمل ماهو اعظم من ذلك . اما فيما يتعلق بالجمال فهذا هو آخر ماتهتم به .. إن الجمال ثمين وثمين بدرجة جنونية ، ولكنه شيء تافه خداع وليس هناك ما هو أكثر منه تفاهة ولا أكبر منه وهما . إنها لم تشعر بحب بالغ نحو الجمال ودائما ما كانت تبغضه ، وخبرتها في الحياة أكدت هذا الامر بشكل افضل . إنها لم تفهم مطلقا فهما صحيحا لماذا يجعل الناس هذا الفرق الشاسع بين ما هو جميل وما ليس بجميل ، ولم تدرك ماهية ذلك الشيء الذي يطرب الناس ويتملهم بحيث يجعلهم يفقدون - من أجل هذا الذي يسمونه بالجمال - صحتهم ويبذرون أموالهم .. الأموال الضخمة ذات القدسية والصولة والتي تعتبر فوق كل شيء ولايمكن مقارنتها بأي جمال ولو حتى من بعيد . والآن كلما تقدم بها العمر وكلما إنكشفت امامها بوضوح المحاسن العديدة التي تفوق التصور وتكشفت امامها حلاوة الادخار فانها تبدأ في مقت ذلك الجمال بمزيد من القوة والوضوح كأنه كفر وإلحاد . كأنه صنم شرير معاد يضلل الناس ويقودهم الى متاهات محزنة وينفرهم من الادخار وهو المعبود الحق الفريد . والرتق هو أحد الطقوس الدينية العادلة الهادئة التي تقدم لهذا المعبود . والرتق معناه مكافحة التلف .. معناه معاونة الأبدية في استمرارها . ولذا فان هذا العمل البسيط التافه على درجة كبيرة من العظمة والقدسية وإنه ليملأ النفس كلها بالهدوء وبالنشوة ، ولذلك فهو يستحق أن يكد الانسان ويكدح من اجله وأن يحتمل الكثير ويصبر عليه .

احتمال الصعاب .. يالها من لذة أيضا . إنها تعرف ذلك لأنها تحملت وقاست الكثير في حياتها وشعرت بنشوة بالغة من جراء ذلك . ولماذا لايحتمل الانسان بعض الصعاب وهو يعلم انه يتجنب بذلك شرا بالغ السوء

ويفتدى خيرا عظيما للغاية ؟ وإذا لم يقدر الانسان على إدراك مقدار الفائدة المضمونة التي يجنيها من وراء ذلك فهو شخص غير عاقل ، ذلك لأن المشاق والتضحيات البسيطة - التي نؤديها خدمة للادخار تافهة بالنسبة لما يمنحه لنا وبالنسبة للمضار التي يجنبنا إياها .. إن احتمال الصعاب يصون الحياة ودوامها ويثريها باستمرار ، وبعبارة أخرى يضفي على كل ما نملكه مسحة من الخلود . إنه يحمينا ويحفظنا من الانفاق والخسارة ومن الفوضى والفقر ، ويحمينا من البؤس الذي يأتي في نهاية المطاف ويعد اكثر سوءا وشؤما من الموت .. وهو جهنم الحقيقية على وجه الارض وعلى مدى الحياة . وعندما يدرك المرء كيف يختفي كل شيء حولنا ويتلاشى ويتحطم ويهلك ويتغير باستمرار دون أن يلاحظ ذلك ، وعندما يعلم أن كل ما يمكننا ونقدر على إتخاذه في كفاحنا ضد هذا العدو هين وبسيط ، ولو وافق عندئذ على كل معاناة وكل تضحية لا لشيء إلا لكي يقاوم هذا الشر . ولكان عليه أن يشعر بالخجل من كل لحظة راحة يتمتع بها ومن كل يوم يضيع هباء ومن كل لقمة يتناولها ومن التبذير والبذخ ايضا وعلى المرء أن يتحمل كل شيء في هذا الكفاح بمنتهى الشجاعة وبدون أمل في الانتظار

وسرت بجسد الآنسة قشعريرة حقيقية من جراء تعمقها في التفكير ، وأصابتها رعشة وغرزت الابرة في الجورب ، ثم نهضت متثاقلة نتيجة لما أصاب جسدها من تصلب . وذهبت لكي تلقي نظرة على النار المشتعلة في المدفأة .. إنها ليست نارا وإنما هي لسان صغير من اللهب لايمكنه أن يدفيء الغرفة ، ولكنه حسبما يبدو للآنسة يبتلع الفحم والخشب إبتلاعا كأنه بركان « فيزوف » أو بركان « إتنا » أو كأنه ذلك البركان الامريكي الذي لم تعد تتذكر إسمه وإنما تعلم انه يبتلع ويحرق بلهيبه أكثر مما تفعل هذه البراكين المعروفة عندنا . وذهبت لكي تضيف بعضا من الفحم ولكنها انتفضت على الفور وكأنها أرادت أن تفعل صنيعا بالغ الضرر لايمكن الرجوع فيه . وضغطت على اسنانها وعادت الى مكانها في شجاعة ثم واصلت رتق الجورب . إنها قانعة راضية عن نفسها وعن هذا العالم الذي توجد به فرصة للادخار في كل زمان ومكان . (وهي تتذكر انها قرأت ذات يوم في إحدى الصحف أن درجة البرودة قد بلغت خمس عشرة درجة مئوية تحت الصفر داخل الثكنات العسكرية خلال شهور الشتاء) وإعتمادا على هذه الافكار فهي لاتحس بالبرد إحساسا بالغا . وتقوم تلك الحفنة من الفحم

التي لم تشتعل بعد بالشعاع الدفء في نفسها . وفي نفس الوقت تعلو يدها زرقة وتصبح شفتاها قاتمتين وأنفها محمر ومن حين لآخر تسري في بدنها رعشة داخلية عميقة نتيجة للبرد ومع ذلك فالآنسة لاتستسلم ولاتتخلى عن مكانها . وهكذا فالمحاربون الأكفاء لايمكنهم ان يتجنبوا رعشة بسيطة في لحظات الخطر ولكنهم يتغلبون عليها ببطولاتهم ويسيرون قدما الى الأمام .

وهكذا كانت الآنسة تواصل الرتق والصبر على المكاره بدون استسلام أو شكوى . وراحت وقد تجمدت أطرافها وتصلبت أعضاؤها ترتق المكان البالي من الجورب وتضع الخيوط بين الانسجة التي تمزقت وبليت فهي تمسك خيطا من النسيج بالابرة وتترك الآخر . وهكذا بالترتيب الى الامام ثم الى الخلف إلى أن يصبح هذا المكان البالي قويا سليما .

وعندما تتامله يغمرها حينئذ ، من قمة راسها الى اخمص قدمها ، إحساس بالسرور وشعور بأنها سجلت في الصراع الحسابي المعقد بين المكسب والخسارة نقطة جديدة لصالح التدبير المنزلي . وعلاوة على ذلك فهي تشعر انها حققت نصرا جديدا في كفاحها العظيم الخالد ضد التلف والخسارة والاستهلاك وأنه قد تم سد ثغرة أخرى بسفينة الفضاء الضخمة التي ماتنفك تتعرض للخطر . وفي معظم الاحيان يتزايد هذا الشعور في لحظات السعادة الى ان يصل الى إحساس بنشوة الانتصار .

ثم يحل الدور على ثغرة أخرى بنفس الجورب او بجورب آخر وكل ثغرة تبدو في أول الأمر وكأنه ميئوس منها ولا يمكن إصلاحها . ولكن في النهاية يبتسم لها النصر وتتغلب عليها . وهكذا تنقضي الساعات في هذا العمل الذي يبدو رتيبا كئيبا . وفي الحقيقة بينما تقوم الآنسة بعملية الرتق تطلق العنان لمخيلتها وذكرياتها وأفكارها وتسرح في الخيال بطريقتها الخاصة وتجتر الذكريات المتتالية او المتقاربة . وخلال قيامها بهذا العمل تستعرض أمام عينيها جميع الحوادث التي مرت بها .

إنها لم تشعر مطلقا بطفولتها . تلك الطفولة المبكرة التي يقول عنها الفلاسفة والشعراء انها أجمل فترة في حياة الانسان ... تلك الفترة البريئة التي لا يعرف فيها المرء ما هو المال ولايدرك الجهد اللازم للحصول عليه ولايعلم كيف يحمي نفسه من الخسارة . إن مكان هذه الطفولة في عقلها الباطني فارغ وليس له أي لون خاص . إن حياتها تبدأ في حوالي الخامسة عشر من عمرها وتبدأ بنقطة مظلمة ولحظة مريرة .

كان هذا منذ ثلاثين عاما حينما كان والدها التاجر « اوبرن

راداكوفيتش » من أشهر التجار الصرب في ذلك الحين بمدينة سراييفو التي لم يكن من اهلها بل كان من اهالي مدينة « كراينشيك » وقد وفد في شبابه الى سراييفو بعد الاحتلال النمساوي مباشرة وأصبح من أحسن تجارها بالحظ والمهارة . ثم تزوج من « رادويكا » الشقراء الجميلة الرقيقة التي تنتمي الى عائلة « حاج فاستيتش » ، وهي عائلة عريقة مشهورة . وكان دكان التاجر « اوبرن » يقع في اول سوق الفرو الكبير مباشرة حيث يشتغل بتجارة الفرو بالجملة ، ولكن بمرور الوقت اتسع نطاق تجارته الى فروع أخرى ، فكان أحد كبار المساهمين في أول مصنع للبيرة في « كوفاتشيتش » وعضوا في مختلف مجالس الادارة .

وعلى ما يبدو للآنسة فهي ماتنفك تتذكر والدها وهو أهم شخصية وأعظمها شأنا في ذكرياتها الأولى . ولكن حينما تفكر فيه دائما ما تراه بحالته التي رأته عليها في السنة الأخيرة من حياته . وكانوا في ذلك الحين يقيمون بمنزلهم الجديد الواسع الذي يقع على حافة شاطىء نهر « ميلياتسكا » وتطل عليه الكنيسة البروتستانتينية . وكانت هي في اوائل السنة الرابعة بالمدرسة العليا للبنات . إنها تراه في صورة جميلة ، وستظل تراه بهذه الصورة حتى الموت . فقد كان طويل القامة مستقيما نحيفا يعلو الشيب شاربه ويغمر البياض حاجبيه ، يضع على راسه قبعة ويرتدي حلة لونها رمادي فاتح وقميصا ناصع البياض له ياقة عالية . كما كان يرتدي رباطا حريريا للعنق به خطوط زرقاء وسوداء ويحمل على صدره سلسلة ذهبية وبيده خاتمان ثقيلان من الذهب . أحدهما خاتم الزواج والآخر خاتم التجار ، ويزين الاساور المنشاة بزرارين كبيرين مستديرين مصنوعين من الذهب . وكان حينما يسير في الشارع باستقامة جسمه وزهوه يبدو كتمثال لايعرف الانحناء والجلوس ويرتسم الجد على وجهه بطريقة قدسية . إنه لايبتسم ولايتحدث بل يقوم فقط باصدار الاوامر والتعليمات . وكان والدها ـ هذا الرجل الضخم الذي تنظر اليه باعجاب ـ يأخذها في أحضانه بعد الغذاء والعشاء ، كما كان يفعل حينما كان عمرها ست سنوات ، ويربت على شعرها ويسألها بصوت دافىء حنون بقوله :

ـ ماذا فعلت اليوم يابنتي ؟

وكان ينظر الى الفضاء من خلال النافذة بينما كانت تسرد عليه أمورها البسيطة وأحداث يومها ، ومن الواضح انه لم يكن ينصت الى ثرثرتها . وكان ذلك بالنسبة لها يقع ضمن نطاق عظمة والدها التي لاتفهمها حيث انه

فى الحقيقة لايصيخ السمع لما يقال له بل يتأمل الفضاء من خلال النافذة وهو شارد الذهن وعلى العموم فهذه فى عائلته حتى مع الكبار . إنه لايتحدث مطلقا عن نفسه بل يطرح الاسئلة فحسب ويستمع الى الاجابات وهو شارد الفكر وكأنه شخص يعلم مقدما منذ فترة كل ما يمكن ان يقوله الناس ويستغل الوقت الذي يتحدثون فيه للتخمين والتفكير فى الردود التى سيقولها له الآخرون كاجابة على تساؤلاته فيما بعد

ودائما ما كان والدها العظيم القادر على حال واحد لايتغير . أو على الأقل هذا هو ما بدا لها فهو مخلوق خال من النقائص والنزوات والرذائل وخال من الهموم والآلام التى يشعر بها كل إنسان .

اما تلك التجاعيد العميقة التى تظهر على وجهه وشعره الاشيب فليست فى رايها إلا دلالة قاطعة على اعتزازه بنفسه وعلى عظمة نادرة ، ولايمكن مقارنته إلا بالهة « أولمبيا » التى بدأت فى هذا الخريف تدرسها فى المدرسة . ومع كل هذا فلا يمكن مساواتها به تمام المساواة .

وفجأة . وبدون أية مقدمات ، سقط والدها من على عرشه فى هذا الخريف . ومن هنا تغير مصيرها وتحول عن طريقه . وسادت الكآبة وجه ابيها كما يخيم الظلام على النهار وبدا يكثر من بقائه بالمنزل بينما يحضر اليه بعض الأشخاص وينفردون به فى الغرفة ساعات وساعات يتهامسون ويتحاسبون .

وكانت والدتها السيدة « رادوبكا » إمراة شقراء طيبة ضعيفة رقيقة القلب والروح . ولم تكن تعرف او تقدر على ان تشرح لها أى شيء . ولكن بالرغم من هذا فقد اتضح لها الامر بكل وطاته وغموضه ، ذلك انها تشاجرت لسبب تافه مع إحدى زميلاتها بالمدرسة ، وهى زميلة على قدر من البدانة وحب المشاكسة لم تكن تبالى بما تقوله كما تفعل بنات محدثى النعمة . وغالبا ما يكون الصغار على درجة كبيرة من الصفاقة فى حديثهم . درجة لا يمكن ان يكون عليها الكبار إلا فى افكارهم فحسب

فقد تعثرت اثناء اللعب هذه الفتاة التى تعد غاية فى البدانة والسماجة بالنسبة لعمرها وإبتسمت منها « رايكا » ساخرة ، فنهضت الفتاة وقد علا وجهها الاحمرار وتملكها الغضب وردت على هذه السخرية امام الجميع بقولها

ـ ماذا يضحكك ؟ إتضحكى على أبيكى الذى انهار بطوله كله !

وفى الحال ارتسم الجد على وجه رايكا وكأنها امام شيء مقدس وقالت

ـ أبى لايعرف الانهيار !

وهنا ابتسمت الفتاة الصغيرة البدينة فى تشفى قائلة :

ـ يقال ان اباك قد اشهر إفلاسه وأنه لم يسقط بمفرده فحسب بل جر وراءه آخرين . إسألى من تريدين !

إن هذه المشادات القصيرة الحمقاء التى تحدث فى الفناء المدرسى والكلمات الاولى للاهانة المجيدة التى ينطقها الانسان ـ لايتم نسيانها على الاطلاق لان كل ما يتبعها لايؤلم إلا هذا الجرح القديم .

« الافلاس » ! لقد انهار والدها ، والجميع يتحدثون عن ذلك إلا هى فلا تعلم ولاتتوقع شيئا . اى انهيار هذا ، وما هو مداه ؟ وماذا يحدث لاولئك الذين ينهارون ؟ خاصة وان والدها قد انهار من ارتفاع عال جدا .

وفى ذلك اليوم وصلت الى منزلها وقد إرتسمت تجعيدة قصيرة كئيبة بين حاجبيها ، وتأملت جيدا امها التى كانت تنظر اليها حينئذ على انها فتاة مسكينة جاهلة ، واقتربت من والدها لاول مرة كاقترابها من رجل ينهار . إنها لم تستطع ان تدرك كيف واين ولماذا حدث ذلك ؟ ولكنها بدأت تجد مزيدا من التأكيدات بالنسبة لهذا الامر الفظيع المستحيل الذى عرفته عن ابيها .

ففى هذه الايام انقطع والدها عن الخروج من المنزل وراح الطبيب يكثر من الحضور اليه ، ولم يكن والدها يخرج من الغرفة . وكان يعد بعض المستندات والاوراق مع كاتبه « فيسو » ويجرى محادثات هامة مع شركائه من التجار . ثم انقطع ذلك ايضا ولم يعد يحضر عندهم إلا الطبيب واقرب الاقرباء . وكانت الام لاتنقطع عن البكاء طول اليوم . وحينما اوقدوا المدفأة الخزفية الكبيرة لاول مرة كان والدها يرقد على السرير . وبمجرد ان تعود من المدرسة كانت تجلس بجانبه . لقد اصبح نحيفا قاتم اللون غريبا بذقنه غير الحليقة ، وكان عارى الرقبة بارز الترقوة احمر العينين . ولم يكن يتحدث ولم تكن تجرؤ على ان تسأله . ولم تشعر إلا بحاجتها الى الجلوس بجانبه وقد تصلبت ورمت شفتيها الجافتين وإرتسمت بين حاجبيها تجعيدة بغيضة رفيعة لم تنفرج مطلقا بعد ذلك .

وذات يوم من أيام الشتاء وقع حادث غريب له اهمية حاسمة فى حياتها . فقد طلب منها ابوها ان تقترب منه وبذل جهدا بالغا لكى يعتدل فى جلسته وربت على شعرها كما كان يفعل من قبل وقال لها بصوت هادئ :

ـ يابنيتى لابد ان اتحدث اليك . لقد ظننت انى ساقدر على المقاومة ...

وبطول عمري وانني لن اضطر لتركك على هذه الحال ، ولكن لامفر الان ! .. إنك إبنتي الرشيدة ويجب ان تكوني على علم بكل شيء وسياتي وقت تفهمين فيه الأمور فهما جيدا ! .. لا ، لاتبك وإنما إصغ الى وتذكرى مايقوله لك ابوكى . إنك منذ الان ستكونين ولية امر نفسك ، فانت تعلمين ان امك طيبة ولكنها يائسة .. إنني لن أجلب لك العار لأنني سددت أيضا تلك الالتزامات التي لم اكن مضطرا لسدادها ، تذكرى ذلك جيدا . ولكني لن استطيع أن اترك لك شيئا إلا هذا المنزل الذى نعيش فيه والدكان الموجود بسوق الفرو ووثيقة تامين لدى بنك ، اوربا ، سيحل موعدها بعد ثلاثة أعوام ، أى بعد أن تبلغى الثامنة عشر . وكل هذا مخصص إما لزواجك او لمصاريف معيشتك كيفما تريدين وتقررين . لا ، لاتبك . إنك فتاتي الرشيدة وستتفقين وتفعلين كل شيء بحكمة وكما يجب . وسيكون التاجر ، ميهايلو ، ابوك في العماد ، وصيا عليك . اطيعيه واحترميه ، ولكن منذ الآن ابدئي في التعود على ان تفكرى وتحكمي على الامور وتقضي حوائجك بنفسك .

وإعتدل الوالد في سريره بشكل افضل واقترب بوجهه من اذنها وراح يتحدث إليها في هدوء ووقار عن امور عجيبة بالفاظ غريبة . ولكن الالام التي كان يسيطر عليها دون أن تلاحظ ذلك كانت تقطع حديثه من حين لاخر . وكان هذا الحديث من نوع ذلك الحوار الذي يقوله الناس في لحظات المحن الكبرى ووقت حلول المنايا حيث تتم رؤية العالم والناس في ظل ضوء غريب متحيز . وكانت تصغى إليه وهي جافة العينين دون أن تتاوه او تبكي وقد تملكتها رهبة نتيجة لعظمة اللحظة التي ينكشف فيها امامها السر الكامل لوجود الانسان في المجتمع

- ستظلين بمفردك لأن أمك لن ترعاك ، وإنما ستقومين انت برعايتها ولذا فلابد ان تعى جيدا ما ساقوله لك . ينبغى ان تعرفى على الدوام ولاتنسى مطلقا ان كل انسان لايقدر على أن ينظم العلاقة بين موارده ومصروفاته بالطريقة التى تطالبه بها الحياة ، قد حكم على نفسه مقدما بالهلاك . وإذا لم تكن لديك هذه القدرة فلن يفيدك أن تكونى وديعة او يكون لك مورد تتكسبين منه او لديك اموال . إن مواردك لاتتعلق بك وحدك وإنما ترتبط بمختلف الأشخاص الاخرين ومختلف الظروف الاخرى . ولكن قيامك بالتوفير لايرتبط إلا بك وحدك ، وينبغى أن يتجه اليه جل اهتمامك وكل قوتك . وفى هذا المجال لابد الا تكونى رحيمة تجاه نفسك وتجاه الاخرين

لانه لايكفى أن تقتصدى فى رغباتك وضرورياتك ، فهذا جزء بسيط من الادخار ، وإنما ينبغى بادىء ذى بدء أن تقتلى فى نفسك الى الابد كل ذلك الذى يطلقون عليه الاعتبارات العليا وعادات السادة من نبل نفس وكرم اخلاق ورحمة . وكل إنسان يعتمد عند إحتياجه لنا على هذه النقائص ونقط الضعف الموجودة فينا والتى يطلق الناس عليها أجمل الالقاب لكى يخدعوننا ، وإنها لتبتلع جميع ثمرات كفاءاتنا وجهودنا . وهى فى الغالب السبب فى إستبعاد الفقر لنا طول حياتنا او السبب فى انهيارنا التام . ولابد من استئصال كل هذه النقائص من النفس دون أدنى مبالغة ، لأن الادخار ينبغى ان يكون بقسوة وبلا رحمة كالحياة نفسها . لقد كانت آرائى طول حياتى مخالفة لهذه الآراء وتصرفاتى تتناقض معها ولذلك اصابنى الفشل والانهيار . ولكن حينما تكشفت لى الحقيقة اردت ان يكون فشلى مثلا لك وعبرة . وإنى أعلم ان كل شيء داخل نفسك وحولها سيحدثك ويدفعك الى أن تتصرفى بشكل مختلف ولكن لايجب أن تستسلمى .. إعملى بقدر ما تستطيعين وكيف تريدين ولكن إدخرى . إدخرى دائما وفى كل مكان وفى كل امر دون الاكتراث باى شيء او باى شخص . ذلك لأن حياتنا فى الوقت الحالى تجعل الناس لايصونون أنفسهم ولايصلون الى المراتب العليا بالعمل ، وإنما بالادخار . وينبغى أن تعلمى أن الناس يكونون على قدر من حسن الخلق والوعى بالنسبة لأولئك الذين لايرتبطون بهم ولايطلبون منهم شيئا ولكن بمجرد أن تربطى مصالحك بهم وتصبحى غير مستقلة عنهم فان كل شيء من دين وورع وقرابة وصداقة وحياء وإحترام يفقد قيمته . ولاتتوقف كل هذه الامور إلا امام ذلك الشيء الذى تمسكيه باحكام بين يديك . ولايتم هذا إلا بذلك المعيار والمقدار الذى يبلغه ماتملكيه وبقدر المهارة والقدرة التى يمكن ان تحميه بها وتدافعى عنه . تذكرى جيدا ان جميع مشاعرنا واعتباراتنا ليست إلا نقائص ونقط ضعف فينا ، وان كل ماحولنا يتربص بها ويجعلها هدفا له ومقصدا . تعودى منذ الصغر على الا تتأثرى بالمدح والتملق ولا يضايقك مطلقا أن يلقبوكى بالبخيلة ويصفوكى بالانانية وعدم الرحمة . فاللقب الاول إشارة إلى انه يجب ان تأخذى حذرك واللقب الثانى معناه أنك ماضية فى الطريق السليم . إن الانسان الطيب الكريم لايفلح مع الناس ، بل يفلح ذلك الذى يقدر على الا يكون لاهذا ولا ذاك دون أن يتمكن الناس من النيل منه . أما أن الناس يمدحون خيارهم وكرامهم فذلك لانهم يتعيشون منهم وعلى

حساب فشلهم وانهيارهم . ولكن تعلمي انت من البداية الا تضطربي مطلقا والا تنخدعي بالالفاظ ولا تلتفتي إلا إلى الشيء الذي يتعلق به الموضوع . أما الاسم الذي يطلقه الناس فدعيه لأولئك الذين إخترعوه لكي يشتتوا إنتباهك . ومن يحترم نفسه ويحافظ على ماله يحترمه الناس ويحافظون عليه . ولا توجد قاعدة غير هذه يمكن الاعتماد عليها . ولذا فحافظي على ما تملكينه بحيث لا يرتبط ابدا . بقدر المستطاع . اي شيء لديك - ولو للحظة واحدة - برغبات واهواء الاخرين . إنه ليصعب على إضطراري لتركك وانت لازلت صغيرة وليست لديك خبرة بهذا العالم الذي لم اخبره إلا الآن وحياتي على وشك الانتهاء . ولكن بمقدورك أن تخففي هذا الألم إذا وعيت نصائحي هذه وإذا وعدتيني بانها ستظل في ذاكرتك وستتصرفين بوحي منها دائما وفي كل حال .

وهنا شهق المريض وانفجرت الفتاة الصغيرة باكية ولم تعد قادرة على حبس دموعها . ولكنه جذبها نحوه بشدة وعجلة . واقسمت له وهي ترتعد في احضانه انها ستتخذ بصلابة وبلا هوادة طالما بقيت مع امها او ظلت وحيدة بغض النظر عن الاتجاه الذي سيسلكه مصيرها . واقسمت كذلك انها لن تدع حياتها ولن تسمح لنفسها بان تكون ضحية لاهوائها او فريسة لجشع الناس .

وبعد يومين توفي والدها بعد أن لفظ انفاسه الاخيرة وقت الظهيرة بالضبط وقد ادار وجهه للحائط دون أن يحدث اي شخص في ذلك الحين او قبله . ودون أن ينطق ولو بكلمة شكوى واحدة من مصيره مع الناس . ولم يعلم احد علم اليقين ما الذي حدث بين الرجل المحتضر وبين الفتاة الصغيرة التي بدات حياتها منذ تلك اللحظة . او بالامانة الخطيرة التي اورثها لابنته .

ومنذ ذلك الحين بدات حياة جديدة . فالفتاة التي بلغت الآن الخامسة عشر من عمرها والتي كانت منعزلة حتى ذلك الحين اصبحت جادة وإنطوت على نفسها إنطواء كاملا . وفي نهاية العام الدراسي تركت المدرسة العليا التي انهت بها السنة الخامسة . وبعد عام من وفاة والدها خلعت ملابس الحداد واطالت فساتينها القديمة . وقبل أن يكتمل نضجها تماما اصبحت اشبه بفتاة غليظة القلب لاتهتم إلا بنفسها . تعرف رغباتها ولاتكترث إلا بها . ولم تكترث بتطفل الناس او بما يعرضونه عليها

وحاول اقاربها ان يحذروها وان يدخلوا السرور على قلبها وان يحولوها من هذا الطريق فراحوا يدعونها الى مجالس الاصدقاء والحفلات العائلية بالمنازل الأخرى . وقد حاربتهم في ذلك بعضا من الوقت فكانت تلتقي بالفتيات والشبان المماثلين لها في العمر حيث تستمع - وقد ضمت شفتيها - الى اغنياتهم وكأنها غريبة مبهمة وتنصت الى ضحكهم . ذلك الضحك المعدي الذي لاداعي له والذي يعتبر الصفة المميزة للشباب والذي لايمكن مقارنته - من حيث قيمته - إلا بالصحة . وكانت هي ايضا تضحك ولكن بعضلات وجهها فحسب . ولم يكن ضحكها حزينا او قلقا بل كان فيه شرود وبراءة . وحينئذ تظل تجعيدة التشاؤم القصيرة بين حاجبيها ثابتة في مكانها لاتتغير . كذلك لم يستطع احد ان يدفعها الى تعلم الرقص او الى دعوة صديقاتها الى حفلة عندها او الى شراء فساتين جديدة يتطلبها تغير الأزياء المستمر . وبالرغم من صغر سنها فقد كانت تعتبر نموذجا مضى اوانه ومضى عليه الزمن بين الفتيات المماثلات لها في العمر . وحسب قاعدة غريبة من قواعد الحياة الاجتماعية وطباع النساء فهي لم تجتذب صديقاتها او ابتعدت عنهن بل على العكس . كلما زاد تخلف وبؤس ملابسها وقلت الانوثة والجاذبية في تصرفاتها وسلوكها . كلما زاد نحوها عطف وإشفاق الجميلات والمتزينات من صديقاتها . لقد كانت محل حب ومدح من الجميع وقد مشطت شعرها بطريقة بسيطة . بلا مساحيق على وجهها وبلا قفازات في يدها . وكانت ترتدي نفس الفستان القديم والحذاء البالي على الدوام . وربما كانت هي الفتاة الوحيدة في سرايفو التي لايملك احد ما يلومها عليه او يعاتبها به . وعلاوة على ذلك . فقد إعتاد الجميع بسرعة على الا يعتبروها فتاة شابة وعلى الا يحسبوها في إعتبارهم عند تنظيم حفلات الرقص او في المغامرات العاطفية او في عمليات التوفيق الهامة المتغيرة الخاصة بالخطوبة والزواج . لان من ينفصل عن المجتمع يلفظه المجتمع بلا حزن او تردد ويراعي كذلك عدم عودته اليه مطلقا حتى لو غير رأيه .

وبعد مرور سنة اخرى حاول اقاربها وبعض صديقاتها ان يغيروا من شأنها وان يقنعوها بالاقلاع عن إنطوائها ومجاراة من هم في مثل سنها من الفتيات قبل فوات الأوان . فما كانت تفعل شيئا إلا ان تهز كتفيها وتبتسم وتواصل بهدوء طريقتها المعتادة في الحياة .

وكان خالها . فلاديمير حاج فاسيتش . او الخال فلادو من بين الذين

بذلوا غاية جهدهم لكي تختلط بالمجتمع وتتعود على حياته وعلى حفلاته .

وكان لأمها أربعة من الأخوة . أكبرهم « جورج » ذهب في باكورة شبابه الى بتغراد حيث تاجر وكسب وتزوج . أما « ناسو » و « ريستو » فكانا يديران سويا شركتهما القديمة بسرايفو ويعيشان كما كان يعيش أجدادهما . وأنهى الأخ الأصغر تعليمه بالمدرسة التجارية ، ولكن لم يدر بخلده مطلقا أن يعمل مع أخيه الأكبر ، بل كان يحيا حياة مالك وسيد صغير يحب الحفلات الباهظة والأشياء الجميلة . وكان يكبر رايكا بأربعة أعوام فقط ، ذلك لأنه ولد قبل زواج أخته ، وهي أمها ، بثلاثة أعوام . وكثيرا ما كان يحدث ذلك عندنا في الوقت الذي كانت فيه النساء تلد الكثير من الأطفال وتتزوج الفتيات وهن صغيرات . وإنها لتتذكره وهو غلام صغير ولكنه في معظم الأحيان يظهر في مخيلتها بصورة شاب في التاسعة عشرة من عمره .. شاب أشقر طويل القامة بهي الطلعة كثيرا ما ترتسم الابتسامة على شفتيه ، ودود كله نشاط وحيوية وكان هذا في السنوات الأولى التي تلت وفاة والدها .

وكانت هناك صداقة وثيقة بينها وبين « فلاديمير » الذي كان طيبا في معاملتها نبيلا في تصرفاته نحوها ، يرعاها رعاية الأخوة ويعتني بها عناية الأبوة . فقد خرجت معه لأول مرة الى الحفلات والسهرات المسائية في منازل الأصدقاء والأقارب وتلقت منه أجمل الهدايا ، ولم تر في حياتها مطلقا حتى ذلك الحين ولابعده رجلا مثله يعشق تقديم الهدايا وله مقدرة فائقة على أن يختار لكل شخص الهدية التي تلائم رغباته ملاءمة تامة وتدخل على قلبه سرورا بالغا . حقا لقد كان غاية في الروعة ولكنه ملعون من الله ، وصديق لكل انسان ، وعدو لنفسه . واليوم بعد أكثر من ثلاثين عاما قد ترتعد عند تذكرها لهذا الماجن وأن يتملكها الحزن حينما تفكر في رغبته الجامحة المشبوهة لأن يبعثر ويبذر حوله القوة والصحة والمال والأملاك ، ويتملكها الحزن أيضا حينما تفكر في تلك السرعة الانتحارية التي كان يقصي بها كل شيء عن نفسه لرغبة غامضة منه في أن يحرم نفسه من جميع الأشياء ويصبح عاريا وحيدا ، كان كل شيء - في رأيه - لايحصل على قيمته الكاملة إلا إذا أهداه وراه بين يدى الآخرين . وهاهي الآن يمكنها أن تشعر بعطف الأمومة التي كانت تكنه له . وحتى الآن يمكن أن تتملكها نفس تلك الإغماءة الخفيفة التي كانت تغشاها من جراء تلك الدوامة الحية للاسراف والانفاق الجنوني والتبذير الطائش . ورغم أنه كان

خالها ويكبرها سنا فدائما ما كان يبدو لها أنه غلام ضعيف لايعرف كيف يتصرف بمفرده وكيف يتخلص من الصعاب . غلام لايحتاج إلا الى يد تمتد له لتنقذه من هذه الدوامة ولكن ليس هناك من يستطيع ذلك أو يقدر عليه بما في ذلك هي نفسها . وإنه لشيء محزن وأثم بالغ أن تراه وهو في طريقه الى الانهيار .

ولم يعش هذا الشاب المشرق ذو الحياة الماجنة والمظهر الملائكي على هذا المنوال إلا بضع سنوات فحسب ، وفي هذه الأثناء نجح في أن يبدد ويبعثر كل مايملك بما في ذلك نفسه أيضا . وقد توفي في الثالثة والعشرين من عمره بمرض السل مما يعتبر رحمة من القدر وحسن حظ عظيم بالنسبة له ، لأنه من العسير تصور الحالة التي كانت ستبدو عليها حياته دون أن يتمكن من الانفاق وتقديم الهدايا . وكانت نهاية حياته وشيكة .

وظلت ذكراه في العائلة كلها مثالا رهيبا أمام الشباب البالغ . أما بالنسبة للآنسة فقد ظل حتى يومها هذا أرق وأفظع ذكرى وسؤالا يحيرها الى أبد الآبدين الا وهو : كيف يجوز أن تجتمع في رجل واحد وتتصل اتصالا وثيقا أكثر أوصاف الروح والجسد تباينا . موهبة الجمال والطيبة مع البطالة والمجون والاسراف الذي يرتبط بالجنون . لقد كان الانسان الذي تكن له أكبر معزة في الحياة يمثل بدرجة غير طبيعية تلك الرذيلة التي تعتبر بالنسبة اليها أشد من أي إثم وأشقى من الموت ذاته الا وهي الاسراف ! كيف يكون ثريا فاحش الثراء وفي نفس الوقت تصديه الاسراف بلا حدود وبلا هدف ؟ وإذا كان هناك شيء يعد أكثر سموا وإشراقا في حياتها هذه التي تتألف من الهموم البسيطة والادخار والعمل والعزلة المتمردة فهو ذكرياتها مع هذا الخال . ذكريات بها القليل من الألم غير الأناني والرقة النسائية الخالصة وفقا لقدرتها من حيث طبيعة معيشتها الانطوائية القاسية ومن حيث طبيعتها الشاذة .

وخلال العديد من السنين دائما ما يظهر لها في صراعها اليومي المستمر ضد كل إنفاق وبذل ، وجهه بغموضه وفظاظته وقربه وسحره كأنه وجهها هي ... والآن في أول الظلام الذي يخيم ويتسلل بين الخيوط التي تقوم بربقها ها هو الخال فلادو يهبط دون أن يرتسم على وجهه أمارات الروعة والبهجة والطيبة والايثار والجرأة وفساد الخلق ويلوح الابتسام على محياه وهي تنظر اليه شزرا بلا جزع في حزن بالغ وعدم فهم كامل . لقد كان بائسا كما هو دائما وسيظل كذلك الى الأبد . إن عينيه الشقراوتين

اللتين يملؤها بريق مضطرب تنظران الى المتحدث وكان لديهما رغبة فى الغناء وأن يصبحا قربانا ، وخصلة الشعر المتلألئة فوق الجبين تسطع وتزداد لمعانا كأنها تريد أن تنساب وتنتشر فى الفضاء بلا حدود

وانها لتراه ، وكأنما تشاهد حلما غريبا . تراه بوضوح هنا أمامها على حالته تلك وتشعر برغبتها فى أن تصيح وتنادى عليه وأن توقفه فى هذا الطريق الذى يودى بالانسان . ولكنه يمضى فى خفة وتعلو شفتيه الابتسامة ، ولا يمكن إقناعه بالعدول عن قراره الانتحارى فان يقدم نفسه قربانا لمن لايستحق ولمن يستحق بأكثر الطرق سوءا ومهانة .

واطلقت الآنسة آهة خفيفة لانها وخزت سبابتها اليسرى وهى ترتق الجورب . وقد بعدت هذه الآهة صور الشباب التى كانت تسترجعها وايقظتها من الحلم واعادتها الى الحاضر والواقع فى برهة .

كان الظلام قد بدأ يسود الغرفة وتملكها شعور بالعزلة والبرودة بعد الرؤيا البراقة وبات كل جهد للصبر والتوفير يبدو بائسا وعاجزا بليدا - فى نفس الوقت - هناك عدد كبير من الآخرين يبذر غاية التبذير ويقتطع ويختطف . ومكافحة هذا الأمر تعد شيئا محزنا لاأمل فيه ومن المستحيل كذلك العدول عن الكفاح ولابد من الاستسلام . وراحت ترتق من جديد وقد إنطفأت النار فى المدفأة وخيم الظلام على الغرفة . واقتربت الآنسة من النافذة أكثر فأكثر ونتيجة لذلك إزداد شعورها بالبرودة . وفكرت فى إيقاد النور ولكنها عدلت عن تفكيرها على الفور وتمالكت نفسها ثم واصلت العمل وركزت بصرها فى صراعها مع الظلام . ومضى على هذا الحال خمس دقائق . ودقت الساعة اللحظات التى وفرتها وراحت تقول لنفسها فى رضى وسرور لو أننى منذ قليل إستسلمت لرغبتى الأولى واشعلت المصباح لظل مشتعلا خمس دقائق دون داع . وحتى الآن يمكن رؤية وتمييز كل خيط مع قليل من الجهد . إنها تعرف معرفة جيدة أن بمقدور الانسان دائما أن يوفر شيئا وأن يقتطع من كل شيء : من الوقت ومن الدفء ومن الضوء ومن الطعام ومن الراحة .. بمقدوره دائما وحتى حينما يبدو أن ذلك مستحيل فعلا .

ومع استغراق الآنسة فى هذه الأفكار تفقد فى تلذذ بصرها بدلا من فقدها للتيار الكهربائى الى أن تسيل دموعها ويختلط الظلام الخيوط . إنها الآن لاترى شيئا بالفعل . ولكن قبل أن توقد النور تظل على هذا الحال لحظات مكتوفة الأيدى فوق الجورب وقد تملكها شعور مؤلم ولكنه سام بأنها

رغم كل هذا لم تبلغ بعد أقصى حدود التوفير ، وهذا يجعلها تحزن ولكنه لايثبط من عزيمتها . وبالرغم من أن هذه الحدود بعيدة المنال وقد لايمكن الوصول اليها إلا أنها مع ذلك تستحق المشقة والتضحية أكثر من أى هدف آخر يمكن أن تضعه نصب عينيها .

ويتضح لها هذا وضوحا كاملا ويصبح مفهوما للغاية فى أول الظلام أكثر منه فى النهار حيث تسطع الشمس أو فى الليل حيث يكون المصباح مشتعلا .

إن كل شيء يبدو جليا كما فى السماء الصافية ، وتظهر الأبعاد قريبة فى حياتها الحاضرة التى تخلو من الحوادث الخارجية والتغييرات الظاهرة . وفى هذا الظلام الخفيف يصبح كل شيء أكثر وضوحا وحيوية وهى تجلس بجانب المدفأة المطفأة وتنحنى على عملها الذى انتهى ، والماضى يقترب وتبرز الذكريات وحدها ، فحياتها كلها - منذ أيامها الأولى - أى منذ وفاة والدها - تتحرك أمامها . وإنها لتحب أن تتذكر هذه البدايات فهى الفترة البهيجة من حياتها .. ذلك لأن أكثر الصحراوات مساحة لها أيضا ربيعها حتى ولو كان ربيعا قصيرا لايلاحظ .

فى ذلك الحين كان هناك حلم يتسلط عليها ويغرقها فى التخيلات ، ولم تكن طبعا تخيلات عن الحب أو اللهو بل تخيلات عن طرق ووسائل اكتساب المال وكيفية تنميته وحفظه .

وعندما تتحرك الذكريات مرة فإنها لاتتوقف عند نقطة البداية .

الفصل الثانى

كانت الشهور الأولى بعد وفاة والدها كئيبة ولكنها عظيمة كأنها الموسيقى الحزينة للحن الوفاة والتى تعتبر بهيجة فى نفس الوقت ، لأن الحياة بطبيعتها تمكن المرء من أن يحيا ويعيش وان يكون فى غاية الحزن أيضا .

وفى تلك الأيام بدأت حياة رايكا تأخذ فجأة إتجاهها الأبدى بشكل سريع

وكان لايزال من غير المألوف كلية فى ذلك الحين ان تقوم إمرأة بنفسها - وهى فى هذا العمر - بتصريف امورها والذهاب الى الجهات المختصة والتفاوض مع رجال الأعمال ، ولكن الناس إعتبروها حالة شاذة وقبلوا وضعها على ما هو عليه . وكان الجميع يعرفون معرفة جيدة تلك الفتاة النحيفة ذات العيون السوداء المتوهجة والوجه الصفراوى والملابس الرثة التى ليس لها اى ارتباط بأزياء العصر ولاتمت بأية صلة الى حاجة المرأة الى التزين والتجمل . وكان الجميع يعلمون ان والدها التاجر أوبرن قد تعرض للافلاس ضحية لطيبته ولفهمه العتيق الدقيق لما يعنيه شرف التاجر ، وكانت تصرفاتهم نحوها تتضمن ذلك المعنى . اما هى فقد استغلت ذلك ابعد استغلال فكانت تذهب الى شخص يطلب متواضع او بمطالب محددة دون أن تبتسم او تكثر من الكلام . ويسعى كل شخص الى مساعدة ومعاونة هذه الفتاة الحزينة التى جعل القدر منزلها عرضة لأشد هوان . وبهذه الطريقة الملحة فى أن تعقد مساومات مفيدة وأن تتجنب صرامة القانون الشديدة . وكانت الآنسة تجد امامها انسب الحلول الممكنة واخفها وطأة بالنسبة لها نتيجة لحصولها على استشارات مفيدة لاتمنح مطلقا لأى من رجال الأعمال . وعلى هذا النحو إستطاعت بمرور الزمن ان تعثر على تسوية مناسبة للحالة التى خلفها والدها وان تؤمن كثيرا من الأوضاع المشكوك فيها بحساباته وأن تدفع المصاريف المطلوبة التى اعتبرها اصحابها مفقودة منذ فترة طويلة ، وان تحول الى نقود الاوراق والمستندات التى كانت ترقد فى خزانات الاخرين بلا قيمة وفى حالة أشبه بالموت .

وكان يقدم لها اكبر عون فى هذه الأمور التاجر ميهايلو ، ابوها فى

العماد والوصى عليها ، ثم دارجوتين باير مدير بنك « اوبيون » .

كان التاجر ميهايلو رجلا عليلا منهك القوى ، من نسل إحدى العائلات التجارية العريقة بمدينة سرايفو . ودائما ما كان بهذه العائلة الكثيرون من ضحايا السل الذى لم يفلح مطلقا فى ان يبيدها إبادة تامة . وكان هناك على الدوام احد افراد هذه العائلة - من الابناء والبنات ثم من الاحفاد - يقضى فترة علاجه فى المصحة التى تقع على جبال الألب النمساوية او يقضيها على شاطىء البحر . اما من ناحية التجارة فقد كان وضع العائلة دقيقا ومعقدا . ولكن اكثر ما كان يؤرق التاجر ميهايلو - دون ان يظهر ذلك - هو أكبر اولاده . ذلك الشاب الهادىء ذو الموهبة الخارقة والقوام الجميل الرقيق كالقديسين والنفس المضطربة . ذلك الشاب الذى كان فى الست سنوات الأولى من دراسته أحسن تلميذ بمدرسة سرايفو الثانوية . وكان غلاما لانظير له ، ولكنه فى ذلك الحين بدأ يقرض الشعر ويهمل المدرسة وهرب الى صربيا قبيل التحاقه بالثانوية العامة . وهو يعيش الآن فى بلغراد حيث يعمل شاعرا بوهيميا . وقد تبودلت - لفترة طويلة ودون جدوى - رسائل طويلة بين الأب وابنه ، ولكن حتى هذه الصلة انقطعت منذ زمن بعيد . وقد أصاب الوهن التاجر ميهايلو نتيجة لمرضه ولحزنه على ولده ولهمومه فى العمل ، وضعفت قواه . ولكن كل هذا اعطى لملامحه وقارا ممتزجا بالألم . فوجهه ذو العينين الكستنائيتين الكبيرتين اللتين تتلألآن دائما نتيجة لكل مايفهم الانسان ويؤلمه وما تتطلبه السمعة والاحترام من صمت ، ووجهه هذا يذكرنا بوجوه الرسامين الاسبان فى العصر الذهبى .

وقد بذل التاجر ميهايلو غاية ما فى وسعه حتى لاتصبح ارملة التاجر « اوبرن » وابنته بلا مأوى وبلا مأكل ، وحتى لاتشعران بالمأساة التى حلت بهما إلا بأقل قدر ممكن . وقد ساعده فى ذلك جميع التجار الصرب العاملين بسوق سرايفو وجميع الأقرباء والأصدقاء واولئك الذين يحترمون ويقدرون التاجر اوبرن البائس . وقد برز من بينهم بشكل خاص المدير « باير » وهو احد الاجانب الذين يعملون بفرع بنك اوبيون فى بوادبست وفى الحقيقة كان هذا الرجل ذو اللقب الالمانى غير محدد الاصل ومجهول الجنسية ، فأبوه ألمانى من إقليم « بانات » ويقيم فى مدينة اوسيك وأمه كرواتية من عائلة ارستقراطية تتمسك تمسكا شديدا بلقبها الارستقراطى ، إلا أن جدتها من ناحية والدها كانت رومانية وجدتها من ناحية الام مجرية وعادة مايحدث صراع بين الدماء المتباينة المضطربة لمثل هؤلاء الناس

وتتقاتل فيما بينها . اما دماء هذا الرجل فقد كانت تجرى في هدوء مع بعضها وتعطى نتاجا كليا متناسقا غير مألوف .

كان « باير » رجلا طويل القامة جميل المنظر ذا شعر ابيض خفيف وعينين كبيرتين شاحبتين ، حركاته رشيقة رقيقة عند السير والتحدث . وكان متزوجا من إمرأة مجرية ثرية شاذة لم تكن تعيش معه بل تقيم في مزرعة والدها بالمجر . وكان لها ابن وحيد وهو غلام مهى الطلعة يعمل في إحدى المصالح بالمجر ايضا . وكان يمكن لباير منذ وقت بعيد - نظرا لكفاءته وصلاته - ان يتولى منصبا اهم من منصبه الحالي بل وكان من الجائز ان يكون احد المديرين الهامين في المركز الرئيسي للبنك في بودابست ولكنه لم يكن يكافح من اجل هذا بل ظل بناء على رغبته مقيما في مدينة سرايفو التي إرتبط بها ارتباطا وثيقا والف الحياة بها ، وله فيها مسكن مؤثث تأثيثا تحفة رائعا . وهو مغرم بالصيد ويجيد لعب التنس ويملك مجموعة جميلة من الأسلحة القديمة والتطريزات الشعبية ومكتبة عظيمة تحوى كتبا بعديد من اللغات . وكان يشترى الصور القديمة ويساعد الرسامين المحليين من الشبان دون ان يعرب مطلقا عن رأيه في أعمالهم . وبجانب كل هذا يدير بنكا من اهم البنوك الموجودة في سرايفو وله مبنى رائع خاص به على الشاطئ مباشرة ، يديره في هدوء كشئ ثانوى ولكنها إدارة جيدة دقيقة .

ولم يكن بين المدير وبين التاجر « اوبرن » علاقات عمل فحسب بل كان ايضا صديقا مخلصا له منذ سنين عدة ، وبعد وفاته اعتبر ان من واجبه ان يقدم يد العون الى ارملته وابنته وان يسهل عليهما امور الحياة . وكان يقوم بذلك ببساطة وفي هدوء وبلا كثير من الكلام كما كان يقوم بكل شيء آخر في حياته .

وبفضل هؤلاء الناس وبفضل مالدى رايكا من ثبات الرجال فقد تمت مع مرور الوقت تصفية شركة التاجر « اوبرن رادكوفيتش » بانسب تصفية ممكنة ، وتم التوصل الى حل مرضى فيما يتعلق بمسالة معيشة عائلته والتكفل بها .

وتمت كذلك تصفية جميع اعمال التاجر « اوبرن » خارج سرايفو واخذ « فيسو روجيتش » وهو مدير اعماله منذ عدة سنين ، على عاتقه إدارة شركة « اوبرن رادكوفيتش » في سرايفو على ان يحصل من الورثة على الثلث . وطبعا صغر حجم الاعمال التجارية وما إنفك يهبط . ولكن بقى عند

مدخل سوق الفرو الكبير محل صغير ضيق نظيف ضعيف الانارة فارغ وتوجد فوق مدخله لوحة كبيرة عتيقة كتب عليها : اوبرن رادكوفيتش - محل قومسيونجى . وكتب في دائرة ذهبية على كل جانب : تأسس في عام ١٨٨٤ . وتحت ذلك اضيف بخط صغير متواضع : المالك فيسيلين روجيتش .

وفيسو هذا ، مساعد التاجر اوبرن ، كما كان كل الناس يلقبونه على الدوام ولم يمنحوه حتى الآن لقب التاجر فيسو . قضى حياته بجوار سيده ووجد انه من الطبيعى تماما ان يظل باقيا تحت ظل إسمه وان يحافظ على ما بقى وان يخدم عائلته . وقد كان فيسو يتيما مجهول الأصل ومن اهل الريف ، وهو قصير القامة صغير الحجم بدين ، ممتلئ الجسم أمرد رقيق الصوت كبير الرأس ، وله وجه محمر به تجاعيد كثيرة سابقة لأوانها . وفي الحقيقة كان هذا الرجل القصير القامة ، الذى يبدو بجانب سيده - ذى السلطة والنفوذ - بلا إرادة او استقلال في التفكير ، فلاحا بسيطا ثابت الجنان صامتا يرتدى ملابس متواضعة على قدر من النظافة والجمال ، وله زوجة تدعى « سوكا » وهي على شاكلته قصيرة القامة شقراء ممتلئة الجسم . وهما يقيمان في مدينة « فاروش » في مسكن صغير يترنم بالنظافة والنظام ، مسكن ابيض منظم توجد زهور على نوافذه وله فناء صغير . ولم يكن لديهما اولاد وكانا يعيشان في هدوء ووئام كأنهما زوجان من اليمام .

وكان بعد وفاة سيده يظل جالسا في الدكان يتملكه إحساس بالقلق والوحدة كأنه يتيم ، ويشعر بالعزلة والضعف بعد ان فقد سنده الا وهو التاجر اوبرن . ولكن ذهنه كان يعمل بقدر ما يمكن ، اما عيناه الضيقتان ويداه الصغيرتان فكانتا في حركة مستمرة . وفي هذه النكبة لم يظهر وفاء فحسب بل واظهر حكمة ومهارة على طريقته الخاصة .

وفي الأسابيع الأولى طفقت رايكا تزور الدكان حيث كانت تفحص مع فيسو الدفاتر والحسابات وتتحدث معه عن كل شيء . وتعرفت في صمت - وقد تملكتها الكآبة والهدوء - على مسك الدفاتر وعلى الرسائل التجارية وعلى طريقة العمل بأكملها . وجدتوها ، دون جدوى ، ان هذا العمل ليس عملا نسائيا او حتى مناسبا لعمرها . وكانت تقضى يوميا ساعة او ساعتين بجانب فيسو لا لانها لاتثق به ، فذلك مالا يمكن ان يدور بخلد مطلقا ، او لان الاعمال تتطلب إشرافها عليها فالعمل قليل في الوقت الحالي - بل لوجود

رغبة لديها في ان تتعلم وتتعرف وترى كيف يبدو من هذه الزاوية ذلك العمل الذى فقد فيه والدها حياته والذى تعرفه الآن معرفة افضل نتيجة لطوافها على البنوك والمصالح وخلال تسويتها لمسالة املاكها واملاك والدتها الأملاك البسيطة غير الثابتة . وكانت تشعر ان مجرد بقائها في الدكان البارد الذى يضعف فيه الضوء بجانب هذا الفيسو الذى كان يبدو وكانه ذكرى حية للتاجر « اوبين » - يعد تنفيذا للأمانة التى خلفها لها والدها .

ولكن بالاضافة الى الدكان وعلاوة على ما كانت تقوم به مع رجال الاعمال وفى المصالح لم تنس رايكا المنزل فقد راحت تعقد مشيئتها فى هذا المجال ايضا بمرور الوقت .

قالت لنفسها بعد الذكرى نصف السنوية التى اقيمت من اجل والدها : المنزل بمن بقى الآن ، وفى نفس الوقت كانت تشعر بقلبها يرتعد فى صدرها ويدق فى لذة وإثارة الى حد الالم وكانه ليس بقلبها ولكنه قلب اخر اكثر قوة .

بادىء ذى بدء عرضت على والدتها خطتها فى اسلوب إدارة الشئون المنزلية ولكنها لم تعرض الخطة بكاملها بل شرحت لها فحسب ذلك القدر الذى يتعلق بها والذى لابد ان تعرفه قائلة :

- ان رغبة والدى ان نوفر وبذلك نصلح - الى حد ما على الأقل - من الضرر الذى حمله الناس إلينا . لقد وعدته بذلك ولابد ان نشرع فيه فورا . ومن الآن لن ندفىء غرفة الاستقبال الكبيرة ولن نشعل الموقد الخزفى الموجود بالردهة ، سندفىء غرفة نومك حيث تقضين فيها وقتك وساقوم منذ هذه اللحظة بتدبير شئون الخدم والمأكل وكل شىء . اما انت فاخلدى الى الراحة ووجهى إهتمامك لاعمال التطريز .

وبكت السيدة « رادويكا » كما كانت فى هذه الايام تبكى كلما قيل لها اى شىء ، ولم تكن قد ادركت بعد المعنى الكامل لهذه الكلمات .

وفى الشهر التالى إستدعت الآنسة الخادم « سيمو » الذى كان يدير شئون الحصان والبقرة ويقطع الخشب وينقل الماء ويقوم بتادية جميع الاعمال القاسية التى يتطلبها منزل احد التجار . وهو موجود بالمنزل منذ زواج التاجر « اوبين » وليست له زوجة او اسرة . ضخم الجسم ساذج طيب كانه قد خلق لكى يكون خادما الى الابد ولكى يحيا حياة اسياده . وقف امامها وهو يفرك بيده اليسرى شاربه الكستنائى الاشعث . وقالت له :

- ياسيمو لقد استدعيتك لكى اقول لك ان كل شىء فى منزلنا قد تغير

بوفاة والدى . واستولى الناس على مايملكونه وعلى مانملكه ولذا فلابد ان ندرك كيف سنتصرف وماذا سنفعل .

- سنتصرف على اى نحو ياسيدتى رايكا .

وواصلت الفتاة حديثها وكانها لم تسمعه اطلاقا :

- ولابد ان نبيع الحصان والبقرة ولذا فلن نحتاج الى خادم .

- كيف ؟

- واريد ان اقول لك انه بمقدورك ان تظل هنا حتى اول يناير ، ولتبحث لنفسك من الآن عن مكان اخر

واستدار سيمو ونظر حوله كانه يبحث عن شخص بالغ عاقل بجوار هذه الفتاة الصغيرة التى لاتعرف ماذا تقول ، ثم قال

- لقد ظننت انك الآن بالذات فى حاجة الى رجل بالمنزل . انني لن اطلب منك راتبا فلقد مضى سبعة عشر عاما منذ ان حضرت الى المرحوم ، ومن اجله لن اتركك ياسيدتى ولو عشت على الخبز والماء .

واكتئب صوته وامتلأت عيناه بالغشاوة .

وشعرت الفتاة ان هناك شيئا يتراقص فى صدرها ... شيئا لذيذا وخطيرا ايضا كما يحدث عندما يميل الانسان على عمق كبير ، وقد جعلها هذا تتردد ولكن دار بخلدها بعد ذلك على الفور ان هذه هى احدى لحظات الضعف التى حدثها عنها والدها وهو على فراش الموت . فرفعت راسها بقوة وقالت فى برود وحدة اكثر مما ارادت

- انني اعلم ياسيمو انك كنت طيبا على الدوام وان ابى كان يحبك ولكننا الآن فى وقت عصيب بحيث انه من الافضل ان تبحث عن مكان آخر باسرع مايمكن

وخرج الرجل الضخم وهو مضطرب حزين . ثم استدعت الطاهية « ريزيكا » التى تعمل بالمنزل منذ سنوات . وهى امراة على قدر من المحافظة والتحكم اسوة بالطاهيات الجيدات فى العالم . وزادت القسوة التى تعلو وجه الفتاة واعتدلت كانها مقبلة على تمرين كبير ، وقالت لها

- انت تعلمين يا « ريزيكا » اننا فقدنا كل شىء نتيجة لوفاة والدى ولابد ان تتغير الحياة فى المنزل لن يحضر لدينا ضيوف ولن تتعدد انواع الطعام وسيكون عملك من الآن بسيطا وساتولى مساعدتك فى المنزل . انه ليس بمقدورنا بعد الآن ان ندفع راتبا عاليا للخدم ، ولقد استغنيت عن خدمات سيمو ويمكننا ان نستبقيك ولكن على ان يكون راتبك عشرين كرونا فى

الشهر بدلا من اربعة وعشرين كرونا فى الشهر كما كان راتبك حتى وقتنا الحالى . اذا كنت تقبلين هذا الوضع فبمقدورك ان تبقى . فكرى حتى الغد ثم قولى لى رأيك . ومنذ الآن ستكون النقود اللازمة لحاجات المنزل موجودة لدى فى الفترة الأولى وسنذهب معا كل صباح الى السوق .

ولاح ذهول واضطراب كامل ، لافى المنزل فحسب ، بل وبين الجيران وبين ابعد الاقارب والمعارف . وقد لفت مختلف الاقارب نظر الام لكى لاتدع هذه الفتاة الصغيرة العنيدة التى لم تنضج فكريا بعد تمتلك زمام السيادة فى المنزل . ولكن لم يكن فى وسع الام إلا ان تبكى او تبتسم وجاء التاجر ميهايلو ونصحها بالا تتعجل لأن الحالة فعلا عصيبة ، ولكن النصيحة ليست قطيعة حتى تغلق المنزل تماما . فاجابته الفتاة فى هدوء بانها تعرف معرفة جيدة ماذا قال لها والدها وهو يلفظ انفاسه واذا لم تكن قد اصبحت بالغة بالنسبة للقرارات الاخرى فانه يمكنها ان تفعل وتنظم منزلها كيفما تشاء .

وبالفعل ترك سيمو المنزل فى بداية العام الجديد وبقيت ريزيكا شهرين بعد تخفيض راتبها ولكنها لم تستطع ان تتحمل اكثر من ذلك . فقد كانت الآنسة تذهب معها كل يوم الى السوق حيث تقلل من نفقاتها عن طريق اقتطاعها من كمية ونوعية البضائع التى تشتريها . واخيرا طفح الكيل لدى ريزيكا فرحلت عن الآنسة وهى تبكى . ثم اخذت تتحدث فى منازل الجيران عن انها كانت تود لو تخدم جنود السوارى بدلا من ان تخدم هذه الطفلة الشاذة التى ستحكى عنها قصصا اذا ما استمرت على هذا المنوال .

واستخدمت الآنسة احدى صغار الفتيات لكى تقوم بالعمل المنزلى كله ، وكانت هى تقوم بادارة شئون المطبخ مع والدتها . وامام اصرارها تملك التعب اقاربها وصديقاتها اللاتى كن يقدمن لها النصائح فى البداية وتركوها تفعل ماتريد . اما هى فكانت تعمل فى صبر حسب تخطيط وتنفذ كل قرار لها بسرعة وبلا رحمة ، ولكنها كانت تمعن التفكير فيه قبل ان تصدره وتترك فترة كافية تمر بين اصدار كل قرار . فالوقت كان يساعدها على تحقيق القرارات التى اصدرتها ويساعدها على اصدار قرارات جديدة .

وحينما كان خالها فلادو حيا كان بوسعه ان يقنعها بالعدول عن بعض مبالغاتها فى التوفير وان يدفعها الى الاتصال بالناس الى حد ما ، وكان يقدم الهدايا لاخته - اى امها - حتى لاتشعر شعورا بالغا باقتصاد ابنتها

الشديد وطباعها القاسية . وكان لايزال من الممكن ان تضحك وتمزح معه لانه كان احد أولئك الناس الذين يصعب عليك ان ترفض مطالبهم ويسهل ان تغفر لهم هفواتهم ، حتى ان الصراع الذى كان يجرى دوما بينه وبين رايكا بسبب توفيرها وتدبيره كان صراعا بهيجا رقيقا .

تجده وقد هبط عليها بالمنزل عندما يكون آخر من تتوقع حضوره . فيجد رايكا مستغرقة فى القيام باعمال شاقة وهى معصوبة الراس غارقة فى الهباب فيقول لها :

- هيا استعدى . لقد حضرت لكى اصحبك الى « بعناشا » لتناول الجيلاتى وينتظرنى هناك عدد كبير من الاصدقاء .

- ليكن الله فى عونك ، الا ترى هيئتى ! لقد وجدت الجو جميلا فشرعت فى تنفيض وتنظيف السقف .

- لن يهرب السقف ، هيا ارتدى ملابسك فالعربة فى انتظارنا .

- العربة ؟ والله لقد اصبحت مستشفى المجانين انسب مكان لك !

ثم تلقى نظرة من النافذة فترى عربة جديدة رائعة ، سائقها يضع طربوشا احمر على راسه وزهرة فى نهاية الكرباج . وجعلها مجرد تفكيرها بان سائق العربة يعمل بالساعة وان النفقات تزيد مع كل لحظة انتظار ، جعلها هذا تشعر بالم لايطاق . وكان الدم يهرب منها قطرة بقطرة فتغطى وجهها براحتى يديها حتى لاتراه ولاترى تلك العربة الملعونة وتصيح حتى يعلو صوتها على صوت ضحكه قائلة :

- لا ، لن اراه ولن اراك ، اننى ساكون غاية فى الغضب .

- هيا استخلفك بخيالى !

- من الافضل الا تحيا وانت بهذه الطباع .

ولكن من ذا الذى يستطيع فى حضوره ان يغضب فعلا وان يحتفظ بتعبير جدى على وجهه ؟

وبدا فى الغرفة سباق وضحك وجهاد . واخيرا اتفقا على ان يصرف السائق (لانه ليس بمقدورها ان تطيق هذا الانتظار الباهظ الثمن) اما هى فستغتسل وترتدى ملابسها ثم يذهبان سيرا على الاقدام مخترقين المدينة . هو بمنظره الجميل وابتسامته العذبة مرتديا حلة بيضاء من الحرير اليابانى وقد وضع وردة فى عروة سترته ، وهى مكتفية قد شمرت اكمامها وصففت شعرها بطريقة ليس لها اسم وارتدت ثوبا طويلا من الخلف اكثر من طوله من الامام .

وكانت تحدث امور اكثر جنونا وغرابة ، ذلك لأن معه كل امر عجيب او غريب ليس بمستبعد أو مستحيل . ففي يوم من الأيام ظهر عندهم في المنزل مع شروق الشمس وهو يحمل حملا صغيرا بين يديه وقد بدا عليه السهر وعلاه الغبار وإبتسامة ترتسم على شفتيه ، وقال

ـ دائما ما تقولين لي أنني لا أعمل ولا اربح ، وها انذا قد كرست نفسي في جدية للتجارة والزراعة . واحمل لك اول ثمار عملي

وعندما جلست وقص عليها كل شيء إتضح لها الأمر برمته .

وعندما ذهب مع إثنين بماثلانه تماما من اقرانه الى قرية ، فريلو بوسنا ، حيث قضوا ليلتهم في الاستمتاع بالشراب والموسيقى (فما هي ليلة الصيف ؟ إنها لاشيء . بمجرد ان تلتفت تكون قد مضت !) وعند الفجر تحركوا عائدين الى سرايفو بالعربة . وفي الطريق صادفوا قطيعا ضخما من الخراف والنعاج التي كان بعضها حديث الولادة ، وكانت عربتهم تخترق بصعوبة هذه الكتلة المتموجة التي تفوح منها رائحة الصوف واللبن والغبار وتملكهم الغضب في البداية ثم بدا الأمر يصبح طريفا ممتعا .

والشباب الذي قضى الليل في الغناء والشراب يحمل في مثل ذلك الوقت من السحر في الصيف قلبا كبيرا ورغبة شديدة في القيام بأعمال باهرة ، وهم على استعداد لتنفيذ شتى الافكار التي تدور بخلدهم في مثل هذه الأوقات . فقد إقترح احد الرفاق ان يشتروا جميعهم قطيع الضأن كله وان يمضوا به الى سرايفو فيبيعوه ويقتسموا الربح وتحمس ثلاثتهم لهذا الاقتراح . وكان الرجل الذى يسوق القطيع اجيرا ذكر لهم ان مالك القطيع موجود في قرية ، جسر على باشا ، وعندما وصلوا الى هذه القرية قابلوا مهربا قرويا على قدر من البدانة والمكر رفض في البداية العرض المقدم من السادة الشبان الذين تملكهم السرور والمرح ، ولكن حينما طلبوا منه في جدية وإصرار إنهاء ، العملية ، شرع في رفع السعر . وانتهى الأمر بعملية بيع خيالية تعد أغلى من سعر السوق بنسبة ٣٠ ٪ على الأقل . وافرغ الشبان كل ما لديهم من مال واشتروا واحدا وستين كبشا واحدى عشر حملا . وساقوا ماشيتهم في الطريق الى سرايفو ولكن وهم في الطريق تبطت همتهم وندموا على مافعلوا حتى قبل ان يصلوا الى المدينة حيث كان يوم السوق . ومروا على سوق الماشية وهناك فحسب علموا انه ليس من السهل بيع مثل هذا العدد من الماشية مرة واحدة . وعندما تملكهم

الملل تركوا الرجل يقوم بعملية البيع ، طبعا مع خسارة لم يكن هناك مفر منها

وضحكت رايكا من هذا الجنون وبكت حسرة على الخسارة الطائشة على لعب هؤلاء الشبان الذين ينبغي أن يكونوا في الوقت الحالي سادة وارباب عائلات . وارادت أن تعرف مقدار مادفعوه عن الراس الواحدة ومبلغ خسارتهم ، ولكن فلادو ابتسم وبدلا من أن يجيب عليها اية اجابة قرب من وجهها حمله الهادىء الأبيض .

وقد ظل هذا الحمل في منزلهم واصبح اليفا وعاش معهم ، وقد احبوه حبا جما حتى انهم لم يقدروا على ذبحه بل باعوه للقصاب

ثم حلت آخر سنة في عمر الخال فلادو وهو العام الثالث والعشرون من حياته .. عام كئيب ثقيل مفعم بالديون والقضايا والحجز . عام ماتنفك تسوء فيه الحياة ، وفي النهاية فهو عام المرض . ثم توفى في ، دوبروفنيك ، بأحد الفنادق وهو وحيد تماما بعد أن زاد إرتفاع ضغط دمه في اليوم التالي لوصوله ، وقد نهب خدم الفندق حتى تلك الأشياء القليلة القيمة التي كانت لاتزال لديه . وحتى عند وفاته إنتقى أغلى طريقة في الوجود .

وبعد ذلك إزدادت رايكا تعلقا بوحدتها ، فهي نفسها لاتعرف كيف ومتى ولماذا كان ذلك . وحتى أعز صديقاتها أصبحن نادرا مايزورنها . أما صديقات والدتها فقد ظللن يزرنها فترة ما ، ولكن عندما ابصرت مقدار إستهلاك البن والسكر خلال هذه الأحاديث التافهة شرعت رايكا في إغلاق دولاب المطبخ وحمل المفتاح معها . وهكذا ، حتى هؤلاء بدأن يتخلفن عن المجيء ولم يبق إلا اقاربها وقريباتها من ناحية والديها الذين لايزالون يختلفون إليها حسب القوانين القوية لعلاقات القربى التي تستمر عندنا حتى ينقطع كل شيء اخر ، وتستمر حسب قاعدة مغرقة في القدم ومعروفة لدى معظم العائلات الموجودة بالمدن الا وهي ، بالرغم من طباعه فانه منا ، . وكانوا يحضرون وقد تملكتهم جميع أنواع الحزن والخوف ودائما مايتساءلون عن المفاجأة غير السارة التي ستحدث لهم هذه المرة . ذلك لأن هذا المنزل الذي كان في يوم من الأيام يتلألأ ويتوهج بذلك الرخاء الدافىء الذي لايرتبط بالثراء أكثر من إرتباطه بالقلب ويتلألأ بالكرم الفطري لرب الدار ـ أصبح الآن مايتفك من عام الى آخر يزداد برودة وفظاظة . لم يتم نقل أي شيء من المنزل ولكن كل مايتم إستهلاكه نتيجة للاستعمال وكل ما يمكن إخفاؤه ظل بعيدا عن ايدي واقدام الناس وعن نظراتهم ايضا

كلما امكن ذلك . فقد بدا للآنسة ان الاشياء التي يتم الاحتفاظ بها في الدواليب والصناديق المغلقة تقوم بالاشتراك معها في عملية توفير بينما الاشياء التي يجري استعمالها تنقص كل يوم قليلا . لان كل لمسة وكل نظرة من عيون الآخرين تخلع شيئا من عليها . فهي تشعر ان تلك الحاجيات الاولى تمثل راسمال ينمو ويعطي ثمارا وهو مختفي . اما كل الاشياء الاخرى فتمثل ثروة تنقص وتذوب وتستهلك نفسها وتسبب نفقات جديدة حولها نتيجة لعرضها وعدم حمايتها . ولكن حتى تلك الاشياء التي يجري استعمالها تغيرت بطريقة غامضة مبهمة فهي تقف وكأنها تتشاجر فيما بينها . ولايمكن القول ان المنزل لم يكن نظيفا او انه مهمل ولكنه . مع ذلك يبتعد عن تلك النظافة الصحية البراقة التي تلمع وترفرف على المنازل السعيدة لان البخل والتقتير هو احدى تلك الشهوات التي تجر معها ايضا بمرور الزمن القذارة الخارجية . ولازالت الآنسة تعيش على النظافة السابقة ولكن بدات العلاقات الاولى في الظهور . ففي جميع الاماكن وحول كل شيء يسود في خفاء وكثافة جو من الكآبة القاتمة والحزن البارد المتجمد . وصار كل ماهو موجود في هذه المنزل يفقد ببطء وباستمرار مع كل يوم ولحظة شيئا من بريقه وحيويته ويجذب تلك الطبقة الرمادية التي يصعب ملاحظتها والتي تسبق القذارة . ويتضح من النظرة الاولى انه لايتم تنظيف هذه الاشياء الا بقدر ماهو ضروري حتى لايمكن القول بانها قذرة ، ومن الواضح انه لايطلب منها اكثر من تادية الواجب الذي لابد ان تؤديه والذي لالزوم لتواجدها بدونه . وبمرور السنين فتسم بمثل هذا المظهر الحاجات والاماكن في « التكيات » وفي بعض الاديرة او لدى الشواذ من العزاب الذين لايعيشون الا لفكرة معينة او من اجل شيء واحد . ومثل هذه المنازل يتحمسها كل انسان ء لايدخلها الا للضرورة

وعلاوة على الاقارب ظل الشحاذون ايضا يفدون الى المنزل لفترة طويلة ولابد ان نعرف ان الشحاذين في سراييفو في ذلك الحين كانوا من ذلك النوع الخاص الذي يوجد مثله في كل مدينة شرقية

أن وجود صنف من الشحاذين يمثل في الحقيقة إحدى القواعد التي تبنى على خرافة مقدسة وعلى حساب يقسم بالخبث يجد فيها الاغنياء من الناس راحة رخيصة لضمائرهم ويجد فيها الشحاذون ايضا مصلحتهم المباشرة . ولكن مجتمع مدينتنا القديم لم ينظر الى هذا الموضوع بتلك الكيفية ، فقد كان هؤلاء في رايهم هم « رجال الله » وهم الشغل الشاغل

لجميع وواجب كل إنسان . إن مختلف الاطفال المساكين العجزة الذين تمسكت التعاسة بتلابيبهم منذ مولدهم بايديهم الممدودة ونظراتهم المتقلبة التي تحمل معنى الشر احيانا ومعنى الخوف والجوع احيانا اخرى ، الصم والبكم وضعاف العقول والمؤساء من النساء اللاتي لاتقدرن لاينبغي ان تعمل مستندة في ذلك الى تفهم الجميع وموافقتهم .. المتقدمون في السن العاجزون الهادئون بلحاهم النامية وملابسهم المصنوعة من الخرق فحسب ويحمل كل منهم حقيبة على كاهله ويمسك عصا في يده ، فيكونون بذلك اشبه ما يكون بالاله الذي تحكي القصص عنه انه تنكر في زي شحاذ وراح يجوب العالم ليختبر قلوب الناس ويكتشف من للغنى والسعادة اهل ومن ليس باهل لهما ... كل هؤلاء ، بالنسبة لاي منزل من منازل الاغنياء والميسورين ، نوع من الارواح الطيبة دليل حي على استمرار الرخاء والتقدم في هذا المنزل . ويرى فيهم الاولياء تاكيدا للقرارات الغامضة الازلية التي اصدرتها العناية الالهية التي بمقتضاها يملك بعض الناس وسيملكون دائما كل شيء . اما الاخرون فلن يملكوا ولن يكون لديهم شيء ابدا رغم ان الجميع يتصدقون عليهم في سبيل الله .

وبناء على مالديهم من نظام ثابت للطواف وجدول للمواقيت يظهرون في كل منزل في ايام معينة بل ويكادون يظهرون في ساعات محددة ويحصلون على نصيبهم من القروش او من الخبز الذي يمثل جزءا من ذلك الخبز وتلك الاملاك التي لهم عليها حق مقدس غير مسجل ، ثم يواصلون مسيرتهم تاركين لاهل المنزل بركاتهم التي ليست إلا كلمات جوفاء ، ويجعلونهم يشعرون شعورا قويا بالسعادة من اجل كل ما منحهم الله إياه والذي لم يقدر الناس والنكبات على سلبه وتحميه وتحفظه الحسنات والصدقات .

وليس لهذا التسول عندنا نفس المعنى والغرض كما في البلاد الغربية فغالبا ما يكون المتسولون عندهم من أراذل الناس ومحتاليهم ومحتاليهم الذين يحتمون عن ضحايا لهم ، بينما المتسولون عندنا (حسب فهمنا الشرقي على الاقل) هم انفسهم الضحايا . وهم مخلوقات تحمل على كاهلها جزءا حتميا من بؤس المجتمع ، ونتيجة لذلك بالذات تصبح لهم ديون على كل شخص ولهم نصيبهم الخاص بهم في سعادة السعداء وثراء الاثرياء . إن للتسول عندنا (لو كان له) تفسيره الذي يتصل إتصالا وثيقا بمفاهيم اهل المدينة والسوق ... بالمفاهيم المتعلقة بمصائر الناس وبطريقة

المعيشة والكسب لديها . إنه يمثل تغيرا ضروريا أزليا راسخا بين أولئك الذين يملكون ويقدرون وأولئك التعساء البؤساء ، ويمثل وسيلة طبيعية مختارة لتكميل وتصحيح ما لم يكن من الممكن أو المستطاع تصحيحه بكيفية أخرى . ولذلك فإن التسول يعتبر - بمقتضى عرف قديم غير معلن - وكأنه شيء فيه خير وله مبرر وضروري لأولئك الذين يمتعون كما هو ضروري لأولئك الذين يتقبلونه على حد سواء .

وكان يتم في هذا المنزل - خلال الثماني عشرة سنة الأخيرة - استقبال المتسولين في حماس والتصدق عليهم بسخاء . وكان هذا شيئا معروفا . أما الآن فحتى ذلك الأمر بدأ يتغير . إلا أن الآنسة لايمكنها أن تكون في هذا الموضوع متسرعة حادة الطبع كما كانت في مسألة الخدم . وظلت والدتها - التي كانت تستسلم لها في كل شيء - مستمرة لفترة طويلة على إصرارها بشأن هذا الموضوع . ففي رأيها كان التصدق على الفقراء أمرا مقدسا متأصلا . وقد نقلت هذا الفهم عن منزل والدها ووجدته في الدار التي تزوجت فيه . ولم يكن بمقدورها أن تتصور أنه يمكن المساس بهذا الأمر المقدس طالما هناك كسرات خبز في المنزل . ولذا فلم يكن بامكان رايكا أن تقطع هذه العادة فجأة ولكنها تولت مسئولية التصدق على الفقراء كما فعلت بالنسبة لكل الأمور الأخرى .

وشعر الشحاذون على الفور بتدخلها . فكانت تستقبلهم على طريقتها الخاصة - أي بفظاظة وبرود - وهي تتفحصهم بنظرات حادة لتعرف من يستحق المساعدة ومن لايستحقها ، وتنظر الى ملابسهم الرثة باحثة عن آثار الثراء قد تكون مختفية بطريقة ماكرة وتبحث في عيونهم البدنية عن التصنع وعدم الصدق . وكان معظم هؤلاء الشحاذين - نتيجة لمعرفتهم إياها وهي لاتزال طفلة - يحيونها بالمصافحة أو بتمتمة أو ابتسامة بائسة منتظرين دون جدوى أن تبتسم لهم هي الأخرى .

وعندما تتأكد أن الشحاذ بالفعل متقدم في السن وعاجز وأنها لاتملك عذرا يمكنها أن ترفضه به تغلق باب الدار وتذهب الى المطبخ حيث تأخذ كسرة من الخبز القديم والجبن الصلب وتعود لكي تمنحه إياها ، ولكن حيث أنها لاتزال مترددة وتعد مبتدئة في مجال التوفير والتقتير فبينما تسير في الممر تتذكر أنه ربما يأتي شحاذ آخر في حاجة أشد . فتعود الى المطبخ وتترك الجبن في الدولاب . ثم تشرع في الرجوع بالخبز وحده . وبينما تتأمله في الطريق يبدو لها أن كسرة الخبز كبيرة للغاية فترجع الى المطبخ

ة أخرى وتقسم الكسرة الى نصفين وتترك النصف في سلة الخبز . بينما تهم بالعودة حاملة مارأت في النهاية انه يناسب الشحاذ تتفحص سك بالسكين ثانية وتقطع من هذه الكسرة أيضا شريحة رقيقة . وخلال سليمها للشحاذ في يده تواصل تأمل الخبز وما يرتسم على وجه الشحاذ - تعبيرات رغبة منها في أن تعرف بهذه الطريقة ما إذا كانت قد أخطأت سخته أكثر مما ينبغي .

وكان يكفيها أي سبب لأن ترفض الشحاذ وتطرده . فأحدهم نسي أن لق باب الفناء . والآخر حمل الوحل مع قدميه الحافيتين ولوث الرصيف رصيع بزلط صغير أبيض يفتخر به فناءهم بين أفنية التجار في سرايفو . ات يوم قرأت في الصحف عن وفاة إحدى المتسولات في باريس وهي حالة بائسة وترتدي ثيابا مهلهلة . وبعد ذلك عثروا في حاشيتها على لغ ٣٥٠ ألف فرنك . وقد استغلت هذا الحادث كمبرر لأن ترفض طوال سبوع جميع الشحاذين موبخة إياهم بأنهم يتظاهرون ويخفون كنوزا من مال .

واستمر الحال على هذا المنوال من يوم الى يوم ومن شهر لآخر وأخيرا دث شيء منقطع النظير لم يحدث من قبل في منزل تاجر لايزال هناك اس يعيشون فيه . فقد بدأ حضور الشحاذين يندر ويكثر غيابهم الى أن نعوا إمتناعا كاملا عن الحضور . وقد تملك السيدة « رادويكا » حزن بر لأن المعوزين والفقراء لايطرقون باب منزلها . وكانت غالبا ما تقف بوار النافذة وتنظر في حزن وقلق الى الزقاق وحينئذ تستطيع أن ترى بنيها الشحاذين بوجوههم المعروفة يسيرون مبتعدين عن منزلها كأنه ل لهم العدوى أو كأنه أصبح في خبر كان . وكانت تبكي بسبب ذلك سبب اللعنة الشديدة التي لايمكن إصلاحها وتؤنب نفسها بطريقة أشد وءا من تأنيبها لنفسها من أجل إضطرارها للقيام بتضحية شخصية .

وهكذا تخلصت الآنسة - حسب خطة محددة وترتيب معين - من كل ما تبر أنه يمثل عقبة في طريقها الذي لم تبح لأي انسان بهدفه النهائي . بل م تر هي بنفسها هذا الهدف رؤية واضحة كاملة . وهكذا أيضا حل موعد ستلامها لمبلغ التأمين الخاص بها . ومع بداية العام الجديد كان على الآنسة أن تتسلم عشرين ألف كرونا من شركة التأمين في « تريستا » . وفعلا في نهاية شهر يناير حضر التاجر سيبابليو الوصي عليها ، بمساعدته عدويه المعتاد وهو على شيء من الوقار ويكاد يكون منفعلا ويتنفس

بصعوبة بالغة نتيجة لمرضه بالربو الذى كان يعذبه أشد العذاب ويعوقه عن العمل . وقد حضر لكى يبلغها أن الشركة قد دفعت التأمين الخاص بها وأنه قد تم وضع المبلغ باسمها فى بنك « أونيون » .

وتقبلت الآنسة الخبر بلا أدنى إنفعال ولم يحدث إلا أن تضاعفت التجعيدة المرتسمة بين حاجبيها ولاح عليها أنها تستغرق فى تفكير عميق .

وقدم لها الوصى عليها المستندات التى يتبين منها أن الشركة قد دفعت المبلغ كله بعد خصم الضرائب وخصم ستة وسبعين كرونا تحت حساب النفقات . وفى نفس الوقت ذكر لها أن الشركة التى قدمت لها كل عون ومساعدة فى هذا الشأن تنتظر أن تسمح الآنسة بنشر الشكر المعهود على سرعة الإجراءات وتسهيل الصرف فى صحف ستراتيو . ولكنها قالت له :

ـ إننى أسمح بذلك على شريطة أن تتحمل الشركة تلك الستة وسبعين كرونا الخاصة بالنفقات وإلا فلا !

ونظر التاجر ميهايلو الى الفتاة فى دهشة كانسان لايصدق مايسمعه بأذنيه ويريد أن يتأكد بعينيه مما يسمعه . وقد إجتهد فى أن يوضح لها بطريقة لبقة أنه من باب اللياقة أن توافق على نشر الشكر علانية فى الصحف ، وأنه من المستحيل ربط هذا بالنفقات التى يتحملها العميل بمقتضى اللوائح . والجميع يفعلون ذلك والشركة تستحقه عن جدارة ، وعلى العموم فهذا لن يكلف رايكا مليما واحدا . فقالت له

ـ إن هذا لن يكلفنى شيئا ولكنه يفيد الشركة ولذا فلا بد أن تدفع لى اذا أرادت أن ينشر الموضوع فى الصحف .

وخرج التاجر « ميهايلو » وهو يسعل وتدور فى رأسه أفكار عجيبة عن هذه الفتاة .

ولم يظهر الشكر فى الصحف . أما التاجر « ميهايلو » فقد كانت تنتظره مفاجآت جديدة أكبر شأنا مع إبنته فى العماد .

فذات يوم ، بعد ذلك بفترة وجيزة ، مرت الآنسة على متجر ميهايلو ولما وجدته بمفرده أخبرته باختصار ببساطة أنها تنوى الاستفادة من القانون الذى يبيح لها ـ نظرا لظروفها الاستثنائية ـ إمكانية أن تطلب إعتبارها قد بلغت سن الرشد وهى الثامنة عشرة من عمرها . وأحصت له جميع الأسباب التى ستذكرها فى المحكمة وهى : الدكان الذى ظل مثقلا بالديون بعد وفاة والدها ومرض الوصى عليها وانشغاله بأموره الخاصة ثم الأم المسنة التى تتكفل بها وإستعدادها ورغبتها فى أن تدير بنفسها شئونها

التى ستنشط وتتحسن فى هذه الحالة . وإنها الآن تطلب موافقته على ذلك .

وراح التاجر ميهايلو يحدق فيها بعينيه المنهكتين المسنتين قبل الأوان اللتين تنعكس فيهما دهشة واستغراب مؤلم . وبدأ يلف سيجارة ثم قال فى هدوء وهو يحملق فى أصابعه :

ـ هل هناك يابنيتى أى ضرر أصابك نتيجة لقيامى بادارة أعمالك حتى الآن ؟

ـ حاشا لله . ولكنك ترى بنفسك ما وصلنا اليه من حال ، ثم لماذا تتعب نفسك بهمومنا وأنا فى ريعان شبابى وصحتى . وإننى سأسألك النصح على الدوام . ولكن من الأفضل أن أقوم بنفسى بانهاء أعمالى ، وقد كانت هذه رغبة والدى أيضا .

وجعل التاجر ميهايلو يطيل النظر الى الفتاة وكأنه يراها لأول مرة وراح يبحث بحثا شاقا فى وجهها عن ملامح تلك الصبية التى كان يعرفها فى وقت من الأوقات .

وفى النهاية أعطى موافقته على ذلك ، وأخذت « رايكا » على عاتقها القيام بكل ما يتبع ذلك وبعد مضى ستة أسابيع على هذا الحديث قدم لها المحامى قرار المحكمة الذى تعلن فيه بلوغها سن الرشد .

وتقبل ميهايلو الأمر قبولا حسنا عندما أبلغوه به دون أن يظهر إستياءه أو يخفى قلقه .

وقال لها بصوت خافت وقور :

ـ إنك الآن حرة حسب القانون فى أن تقومى بادارة ممتلكاتك ، ولكنك بالنسبة لى فى مرتبة إبنتى ولا أفرق بينك وبين أولادى . وأعلمى أنك كلما كنت فى حاجة الى مساعدتى ونصيحتى فستجديها رهن إشارتك .

وشكرته الآنسة ، ولكنها لم توضح له الطريقة التى تفكر فى أن تسير عليها فى استخدام المال الذى تسلمته من وثيقة التأمين . وفى الفترة الأخيرة بوجه عام ما إنفك يقل حديثها عن أمور العمل مع الوصى عليها ، ثم أصبحت تتجنب تجنبا تاما مثل هذه الأحاديث ، وكانت لا تتكلم إلا مع الشخص الذى تحتاج اليه ولا تتحدث إلا عن الموضوع الذى تريد الخوض فيه كما لم تكن تلقى التحية على أى إنسان مالم يكن هناك داع لذلك وخاصة فى الوقت الحالى بعد أن وصلت الى ثروتها

ولم تتملك الدهشة البالغة التاجر ميهايلو بمفرده بل وتملكت أيضا المدير

باير واكبر التجار سنا واكثرهم خبرة ، تملكتهم الدهشة من جراء الحرص الشديد الذى تسلحت به رابكا نقودها من شركة التامين ونتيجة للطريقة التى وزعتها بها فى الخفاء بسرعة حسب القواعد المقدسة لاقتصاديات السوق . اما الآنسة فقد سارت فى طريقها ولم يستطع ما تسمعه من تملق او توبيخ ان يقلقها او يجعلها تتردد وكذلك لم يكن لاى اعتبارات ان تعرقل مضيها فى طريقها .. فقد بدأ مالها ينمو .

وفى الحقيقة اصبح مالها يأتى بثماره منذ فترة .

وبمرور الوقت لاحظ الجميع ان الآنسة لاتعمل لكى تصفى تركة والدها ولكى تؤمن منزلها ، بل أنها تقوم بأعمال جديدة تماما قامت هى نفسها بابتداعها وإدارتها . ومع ذلك فقد إستمر الجميع فى تقديم المساعدة لها وتيسير امورها وإستقبالها أستقبالا غاية فى الكياسة واللباقة باعتبارها الابنة اليتيمة للتاجر اوبرن .

ولكنها الآن بعدما نمت اموالها نموا سريعا اصبحت قليلا ما تحتاج الى الاستعطاف والاستجداء . ففى خلال هذه السنين العدة تعرفت بالناس والمصالح والاعمال واصبح بمقدورها ان تتابع بمفردها الجديد من الامور والتغيرات فى سوق الأوراق المالية بسراييفو .. إنها لاتتابع التغيرات فى ذلك السوق العلنى الكبير بل فى ذلك السوق الخفى الصغير المليء بالحركة ، الذى لايراه كثير من الناس ولكن يعرفه معرفة جيدة التعساء والبؤساء عبيد الفوائد الكبيرة والآجال التى لا ترحم .

وبوجه عام بدأ الناس يطلبون مقابلتها

الفصل الثالث

سراييفو فى حوالى عام ١٩٠٦ هى المدينة التى تلتقى فيها شتى التأثيرات وتختلط بها البيئات الحضارية وتتصارع فيها مختلف اساليب الحياة والمتناقض من المفاهيم . ولكن كل هذه الطبقات والعقائد والجنسيات والفئات الاجتماعية المتنوعة والمتباينة تشترك فى خط واحد ، جميعها فى حاجة إلى المال بقدر اكبر بكثير مما تملكه . وهناك اولا وقبل كل شيء نسبة كبيرة من صغار الناس الذين لايمتلكون حتى اكثر الضروريات اهمية . وحياتهم ليست إلا رغبة وبحثا ازليا عن المال . ولكن كل شخص ايضا من اولئك الذين يملكون شيئا - او اولئك الذين يوحى مظهرهم بذلك - يرغب فيما هو اكثر واجمل مما لديه . ودائما ما كانت سراييفو مدينة المال والحاجة إليه . وتزايدت هذه الحال حينذاك عن أى وقت مضى . إن اهل المدينة عندنا ، علاوة على انهم عن طريق الوراثة مثقلون بالعادات التركية من عزوف عن العمل والرغبة السلوفينية فى الاسراف . يتقبلون الآن ايضا الافكار النمساوية الرسمية عن المجتمع والتزاماته والتى بمقتضاها تقوم السمعة الشخصية والشرف الطبقى للانسان على حجم معين من النفقات التافهة العقيمة ، وغالبا مايقومان على ترف خاو مثير للضحك لاروح فيه ولاتذوق .

ومن العسير أن نتصور المدينة وبها مال قليل ومصادر بسيطة للكسب وتعطش شديد نحو المال وإرادة ضعيفة تجاه العمل ومهارة غير كبيرة فى اساليب الربح وذلك بجانب الأمانى والمطالب العديدة . إن المزيج المكون من العادات الشرقية وحضارة اوروبا الوسطى يخلق هنا شكلا خاصا للحياة الاجتماعية يتسابق فيها اهل المدينة مع دخلاتها فى إبتداع إحتياجات وظروف جديدة للانفاق . إندثرت الآن إندثارا كاملا العادات القديمة المبنية على الاعتدال والقناعة لدى الفقراء والمبنية على التوفير عند الطبقات الغنية . وإذا كان لا يزال هناك اناس يعرفون التقاليد القديمة للسوق ، من تواضع ومبادىء حازمة فى الكسب القليل والتوفير الشديد ، فانهم يقفون بعيدا عن اية حياة إجتماعية وكأنهم بقايا مثيرة للضحك من الأزمان الغابرة .

وبدأت الآنسة تكون ثروتها وسط مثل هذا المجتمع الذى نسج فيه الإحتياج البالغ العاجل للمال شبكة خفية كثيفة متشابكة من الديون

والسلف بجميع المبالغ الممكنة والأشكال المتباينة والأشخاص . أمثال الآنسة ، الذين تعد إحتياجاتهم اقل مما لديهم قليلون لدرجة انه يمكن إحصاؤهم على الاصابع ، بينما اولئك الذين هم في حاجة إلى المال لانهم لايملكون منه ما يسدون به حاجاتهم الضرورية او لانهم ينفقون اكثر مما يقدرون - فعددهم بالآلاف . وكانت الآنسة تبنى إستنتاجاتها دون أن تتعمق في العلاقات الاجتماعية ودون أن تستقصي حقيقة العلاقة بين الأسباب والنتائج ، وإنما تقيمها بناء على ماتراه في الظاهر ، كما تفعل عادة النسوة والرجال الذين يقعون تحت سيطرة إحدى الغوايات الكبرى . وكانت الآنسة تجمع بين الصفتين فلم يكن ينقصها الكثير لكي تعتبر هذه المدينة باكملها وكل ما حولها من حياة مرتعا للصيد وأن تنسى كل شيء ماعدا إشتهائها للفريسة .

وراحت الآنسة في السنوات الاولى تستقبل في حانوت والدها رجالا ونساء يحتاجون إلى سلفة عاجلة ، وبدأ الامر بداية قانعة ولكنه تطور تطورا سريعا خطيرا خاصة بعد ذلك حين وصلت إلى يديها النقود الخاصة بالتامين وحين بلغت سن الرشد . وبينما كان فيسو - دون أن يتخيل خططها - يتاجر تجارة التجزئة مساوما الفلاحين على قطعتين او ثلاثة من فرو الثعالب بدأت الآنسة تشعر باللذة التي يمنحها المال المتكاثر لامرأة مثلها . وتحس بتلك النشوة الباردة التي تدفىء في خفية وتشمل بنورها المرابين الموجودين في الحوانيت الرطبة افضل مما تفعل الشمس وأجمل مما يصنع الربيع . وعندما راح العمل بالتسليف يتفرع وتزايد عدد زوارها جعلت تستقبلهم لافي المحل فحسب بل وفي المنزل أيضا ، وهذا طبعا لا ينطبق إلا على الزبائن المهمين الممتازين الذين تنتقيهم .

واتخذ المنزل البائس الجدب الذي يخلو من الضحك والحديث ومن الدفء والزينة ، علاوة على تجنب الشحاذين له ، يستقبل زوارا جددا لم يألفهم من قبل . وهنا يمكن أن ترى كيف يتنوع الناس الذين يجذبهم المال والحاجة إليه بخيوط مستترة .

وكانت كل زيارة في البداية تعد بالنسبة للفتاة الشابة حدثا تستعد له إستعدادا خاصا وتتذكره لفترة طويلة . ولكن بمضي الوقت ولما أصبح عدد اولئك الذين يجيئون بسبب حاجتهم اكبر مما تريد ، راحت تستقبلهم إستقبالا يتزايد فيه الاهمال وعدم الاحترام والحذر والصرامة . وبسرعة تعرفت على الناس الذين يطلبون في يأس قرضا من المال مدفوعين بحاجة

عاجلة أو غواية متسلطة ، وعرفت مقدار ضعف وعجز مثل هذا الشخص استعداده لتقديم كل تضحية كما أدركت أنه ليس من اللازم أن يحترم المرء مثل هذا الشخص أو يراعيه . وقد كشف لها هذا الأمر عن نفسه في بداية عملها فاستغلت هذه المعرفة إستغلالا وفيرا طائشا .

وكانت الآنسة تجلس صيفا وشتاء في تلك الردهة التي تكاد تكون خالية ، إذ ليس فيها - عدا المكتب الصغير الذي يخلو من أي كتاب أو ورقة - إلا محبرة عتيقة مع ريشة رخيصة يرجع أصلها إلى أيام التلمذة وتجلس هي على كرسي بسيط صلب لا يوجد بجانبه إلا كرسي آخر أصغر منه حجما وأشد صلابة مخصص للزوار . ولا تتم تدفئة المكان حتى في أشد الأوقات برودة .

وعادة ما تقول الآنسة حينئذ للزائر

- لاتخلع معطفك . ثم تضيف وقد شاب صوتها إحساس بالانتقام

- .... لانني لا أدفىء المكان .

وبعد أن تكون قد وضعته في موقف حرج وغير لائق للغاية تسأله عما يريده في صرامة ودهشة وكأنه قد أخطأ في باب المنزل وفي الشخصية التي يتحدث معها

وفي معظم الأحوال ينتهي الحديث بحيث يخرج الزائر خالي الوفاض تعلا بعد أن افرغ أولا كل ما في جعبته من هموم وإحتياجات امام الآنسة أما بالنسبة لتلك الفئة النادرة التي تصل معها إلى إتفاق ما ، فإنه يتم تأجيل الأمر كله للغد حيث يمكن أن تكون على مكتبها ورقة مكتوب عليها الشروط الخاصة بسلفة قصيرة الأمد . وحسب مدة الأجل دائما ما ينص الصك على مبلغ يزيد بنسبة عشرة في المائة أو ثلاثين في المائة عن المبلغ الذي يتسلمه المدين فعلا في يده . وجميع الشروط الأخرى تتفق إتفاقا تاما مع مواد القانون ، أي تتفق معه إلى أقصى حدوده . ولا يتم الدفع إطلاقا في المنزل ، وإنما في حانوت فيسو أو بطريقة غير مباشرة ، وفي الغالب يتم التسليم بطريقة على درجة كبيرة من الالتواء .. عند صراف أمام أحد الأوقاف الخيرية أو عند تاجر صغير غير معروف يجلس في حانوت يكاد يكون خاليا ، ظاهره يوحي بأنه محل جلب فقير . ذلك لأنه توجد في الأعماق تحت السطح المرئي الصاخب للمجتمع الذي يعيش وينفق ويتمتع ويبذر - شبكة رقيقة خفيفة صلبة ثابتة من المرابين .. منظمة صماء قوية لا إسم لها تتكون من أولئك الذين تركوا كل ما هو زائد وثانوي

فى الحياة وعثروا على الطريق المتجة إلى ذلك الذى يعدونه فى مفهومهم هاما وجوهريا فى المجتمع ، وتتكون كذلك من اولئك الذين يشبعون هواياتهم الوحيدة على حساب ما صغر وكبر من الهوايات والحاجات العديدة للآخرين .

ولكن الامر لا يصل إلى محادثات جادة مع اغلبية هؤلاء الزوار . فالآنسة بدافع غريزة غامضة اكيدة لديها تقاطع المرء فى منتصف شرحه بصوتها القوى الرنان معلنة إياه أن الناس قد أخطأوا فى توجيهه وانها كانت تملك بعضا من المال ولكنها اقرضته لبعض من الأصدقاء . وعادة ما يخرج الزبون من هذا المكان القارس البرد فى الشتاء ، الخانق فى الصيف وهو يشعر بخيبة امل نتيجة لفشله . ولكنه يشعر بالرضى لأنه تخلص من التواجد مع هذه الفتاة القاسية التى تنظر نظرات ثاقبة وتصافح مصافحة المصارعين .

بيد انه فى احوال إستثنائية تسير الامور بشكل مخالف وتظل الآنسة تتذكر هذه الاحوال لفترة طويلة .

ففى احد ايام شهر فبراير دخلت إمرأة جميلة طويلة القامة ترتدى معطفا طويلا من القماش الاسود وتلف رقبتها ويديها بفروكستنائى ثمين وتضع على رأسها قبعة صغيرة من نفس نوع الفرو . يصطبغ وجهها الرقيق الابيض ذو العينين الشقراوتين بحمرة خفيفة نتيجة البرد القارس والرطوبة الناتجة عن رذاذ المطر . إنها إمرأة اجنبية من اصل بولندى ، ولكنها نشأت وترعرعت فى البوسنة ، وزوجها كرواتى يعمل موظفا بالحكومة وهو رجل حسن الملبس يتصرف فى ثقة وكياسة ويشتهر بعشقه للميسر والخمر والملاحات من النسوة . وتعرفهما الآنسة شكلا وإسما .

بدأت الزوجة الشابة حديثها فى إضطراب وسذاجة . ثم بعد ان تركت جانبا كل إعتبار وكل محاولة للمهارة شرعت تذكر حقيقة الامر . فقد خسر زوجها فى لعب الميسر مبلغا كبيرا من المال بنادى الضباط ووعد بشرفه ان يدفع المبلغ خلال اربع وعشرين ساعة . وقد بعثت ببرقية إلى والديها وإلى شقيقها وهو من رجال الصناعة فى بولندا ولها شقيق آخر فى امريكا قدم لها العون فى ازمات مماثلة . إلا ان المسألة هنا تنحصر فى الاجل ، فالمبلغ وهو الف ومائتا كرونا ليس بالكبير وستحصل عليه بالتأكيد خلال اسبوع . ولكن من الضرورى ان يتم تسليم المبلغ صباح الغد . وقد وقع زوجها فريسة لحالة من حالات التبلد الكئيبة وهو يهدد بالقيام بما هو أشد

سوءا وعليها ان تنقذه . ولذا فلن تهتم بالفوائد او الشروط . فقالت الآنسة :

ـ إن الذى ارسلك إلىّ ياسيدتى لم يوجهك التوجيه الصحيح ، فاننى لا املك مالا لاقراضه وما كان لدى منه أعطيته لاصدقائى وانتظر الآن ان يعيدوه لى .

ونهضت المرأة قليلا وهى تقول :

ـ ارجوك ياسيدتى . لقد قالوا لى انه بمقدورك .

ـ لقد أخطأوا فى قولهم

ـ سيدتى . مازلت اعقد آملى عليك . إنك الوحيدة التى يمكنك إنقاذنا .

وهنا تتحرك الفتاة من مكانها وكأنها تريد بهذه الطريقة ان تقطع حديثا مفيضا لاجدوى منه . ولكن المرأة لم تكن تنتظر إلا ذلك . فقد إنفجرت باكية بصوت جهورى واخذت تفرد يديها ثم تضمها امام وجه الفتاة المذهولة مباشرة .

ـ سيدتى ، أتوسل إليك وانا اضم يدى كما يتوسلون إلى الله .

ولكى تبتعد الآنسة رفعت قامتها بقدر إمكانها وهى جالسة على الكرسى . اما المرأة الشابة فقد ركعت وإرتمت بنصف جسمها الاعلى على ركبتيها وقالت والكلمات تتعثر من خلال عبراتها :

ـ سترد لك كل شىء ! أستحلفك بحب الله ألا تجعلينا نهلك !

وبعد اللحظات الاولى من الارتباك ابعدت الآنسة ركبتيها ايضا ولكن المرأة سقطت كالمذبوحة وإرتمت بوجهها على حذاء الآنسة وامسكت بقدميها . وبسرعة نهضت الآنسة بعد أن دفعت الكراسى وراءها .

وهنا راحت تنظر بتعال إلى المرأة التى ترتمى منحنية بجانب قدميها وترتعد من البكاء المتشنج ، وحينئذ شعرت بان هناك شيئا لذيذا دافئا يتراقص فى صدرها وكأنه على اخر اكبر من قلبها . ثم مالت ميلا خفيفا وكأنها تريد أن ترفعها وتواسيها ولكنها ترددت ونحّت يدها الممدودة إلى مكانها فى حركة عصبية وقالت بصوت رقيق غير طبيعى

ـ لا تفعلى ذلك ياسيدتى .. لا تفعلى ! صديقتى لقد اخطأوا فى توجيهك ، وكل دقيقة تعد ثمينة بالنسبة لك ، ومن الافضل أن تسرعى فى البحث عن المال فى المكان الذى يمكنك ان تجديه به .

ومضت فترة طويلة من الزمن نهضت المرأة خلالها وهى لاتزال تتمتم :

- إنني أتوسل إليك ياسيدتي ... واستحلفك أن تنقذيني فإنه سينتحر ،

وظلت تكرر ذلك حتى وصلت إلى باب الخروج ، ثم إعتدلت فجأة وكفكفت وجهها وأصلحت من شعرها وخرجت دون أن تلقي عليها بالتحية .

وظلت الآنسة مضطربة وكأنه قد مسها شيء من الحياء دون أن تشعر به في أعماق نفسها . ولكن سرعان ما انشغلت ببعض الأعمال ولم تجد من الوقت ما تفكر فيه في السيدة الجميلة البائسة ولم تهتم بعد ذلك بمصيرها . بيد أنها علمت أن السيد لم ينتحر لأنها شاهدتهما بعد تلك الزيارة بخمسة عشر يوما وهما يتنزهان على شاطيء نهر ميليا تسكا وقد أمسك كل منهما بيد الآخر وإلتصقا ببعضهما إلتصاقا شديدا . وكانا على قدر كبير من التشابه من حيث القوام والقامة وكأنهما أخ وأخت . وكانا يرتديان ملابس أنيقة تجعل الإنسان يعتقد أنها قد قطعت قطعا من إحدى محلات الأزياء . ولكن كانت هناك حالات مغايرة .

ففي أحد الأيام (كان الوقت صيفا والجو جافا شديد الحرارة) وجدت « كراسك » وهو نقيب من رجال الشرطة من أصل الماني تشيكي يجلس في الردهة على الكرسي الصغير ، وكان يعمل في إحدى المدن الصغيرة القريبة من سرايفو ، وهو مشهور بمجونه في الملاهي الليلية التي يختلف إليها الضباط في سرايفو . وقد تم نقله ومجازاته بسبب حياته التي لانظام فيها علاوة على إضطراب أحواله المالية ، وهو الآن يواجه أمرا بإجباره على الاستقالة .

وكان كراسك رجلا بدينا له عينان كستنائيتان على قدر من الإتساع وله رقبة ممتلئة قوية ، وظهرت بدانته وهو يرتدي الزي العسكري الأسود وتفوح منه رائحة صابون الضباط مختلطا برائحة الكونياك وقد أمسك في يده اليمنى بزوج من القفازات الصفراء الجديدة المصنوعة من جلد الوعل .

وبدأ حديثه باللغة الألمانية بنبرة تحمل ثقة زائفة بالنفس وهذه سمة يمتاز بها مدمنو الخمر . وقال :

- إنني ياسيدتي أحتاج إلى نقود .. إلى مبلغ كبير وأريد أن أعرف ما هي شروطك .. إنني أحتاج إلى ألفين من الكرونات لمدة ثلاثة أشهر وأعتقد أن ضماناتي ستُرضيكِ .

ولكن الآنسة لم تسمح له بأن يشرح طبيعة ضماناته حتى لايعتقد أنها ترفضه لأن ضماناته لا تكفي وحتى لايطيل الحديث بلا فائدة قالت له

- أستميحك المعذرة ياسيدي ولكنني لا أملك مالا للاقراض

- لا تملكين ؟

- إنني ياسيدي لا ولم أملك مالا ، كان هذا منذ زمن بعيد حيث كنت أمتلك مبلغا بسيطا حصلت عليه من وثيقة التأمين الخاصة بي وقد أقرضته وهذا كل ما في الأمر .

وهنا ذابت ثقة الضابط فقال متسائلا :

- أقرضتيه كله ؟

- أجل ياسيدي ، أقرضته كله .

فقال الضابط مكررا :

- كله !

وراح ينقل القفازات من يد إلى أخرى وهو يعصرهما عصرا . ثم قال :

- إنني سأقبل جميع شروطك مهما كانت ..

- إنني أسفة ياسيدي ولكن لا توجد لدي شروط ولا نقود .

ولم يحر الضابط جوابا ، وكان « يعجن » القفازات بعصبية في يده اليمنى . وظهرت على مؤخرة رأسه التي شرع الصلع يزحف إليها زحفا شديدا - قطرات من العرق تشبه الندى ، وتجمدت نظراته على مكان بعيد عن الآنسة وكأنه يبحث عن شخص يقف وراءها . وحتى تقطع ذلك الصمت المؤلم وتلك الحملقة نهضت هي أولا ، ذلك لأنه من الأسهل أن يتحمل الإنسان النظرات البغيضة أكثر من تحمله لنظرات الاصرار التي تمر بجانبه .. وهنا إنتفض الضابط أيضا إنتفاضة يكاد يشملها الخجل ، ثم سعل وأمسك بغطاء رأسه الموجود على المكتب وضم كعبيه في يسر وبلا صوت وقال :

- إذن لاشيء . لاشيء . أشكرك ياسيدتي وإلى اللقاء !

وفي الأسبوع التالي حملت صحيفة « بوسته بوست » التي تصدر في سرايفو - خبرا موجزا مطبوعا بحروف صغيرة مؤداه أن النقيب كراسك قد لقى حتفه فجأة أثناء سفره في مهمة رسمية إلى قرية « تارتشينا » .

وأدركت الآنسة دون إستقصاء أو بحث أن الضابط قد تناول السم وأن إثنين من المرابين في سرايفو قد فقدا الأمل في إسترداد أموالهما ، وكل منهما له بضعة مئات من الكرونات . وتملكها سرور بالغ لأنها لم تعطه نقودا

لقد كان من الواضح أن الضابط كان سيسدد بنقودها القروض الصغيرة ثم ينفق الباقي وبعد شهرين أو ثلاثة يفعل نفس الشيء وكانت ستصبح أكثر دائنة له . ومع ذلك فقد شعرت بالضيق نتيجة لتذكرها وإجاباته الشاردة الآلية السيئة المقتضبة التي تشبه صدى الصوت وكذلك لتذكرها الضابط بنظراته التي لا ترى شيئا . وبعد ذلك بفترة طويلة كانت تتذكر النقيب وعادة ما يكون هذا في الوقت الذي تجيب فيه على أحد الأشخاص الذين يطلبون نقودا - إجابتها المعتادة بأنها لا تملك شيئا ولم تملك ، وحينئذ تتصور في وجل أن الرجل سينهض ويضم كعبيه قائلا :

- إذن لاشيء أشكرك ياسيدتي وإلى اللقاء !

ولكن ذلك الشخص ينهض بطريقة مخالفة ويتلفظ بكلمات مغايرة ، ويتملك الآنسة إنقباض وضيق .

ومن أجل كل هذا كانت تصب غضبها على نفسها وتنسى الأمر كله ، ومع ذلك فلم تكن تقدر على أن تتخلص تخلصا تاما من الخوف السخيف الأليم . وعند إفتراقها عن أحد الزبائن لم يكن بوسعها إلا أن تشعر بالفزع من أن يكرر أمامها حركات الضابط مصحوبة بالفاظه ، وإحتاجت لوقت طويل لكي تجعل كل هذا نسيا منسيا .

وهكذا كان في البداية لايزال يتميز بعض الزوار باعتبارهم حالات شاذة خاصة طريفة من حيث مصيرها ، ولكن بمضي الوقت إنضموا جميعا متكاتفين في موكب واحد طويل لا شكل له مكونين كتلة كثيفة لا وجه ولا اسم لها - يلزمها المال .

وعلى العموم سرعان ما أدركت الآنسة بنفسها أنها لن تستطيع الاستمرار على هذا المنوال ، أي على أن تستقبل في منزلها وبنفسها كل عميل . فقد ذاع الأمر أكثر مما ينبغي (وطبعا لم ينتشر هذا الأمر بين الرأي العام ، بل حيث لا ينتشر إلا همسا وبين العارفين فحسب) وقد حذرها أصدقاء والدها القدامى عدة مرات ، وحينئذ تحول هؤلاء الزوار عن منزلها ولم يذهبوا إلى متجرها حيث يوجد فيسو ، بل توجهوا إلى متجر آخر في شارع « فرهاديا » يديره يهودي من سرايفو يدعى « رافو كونفورتي » وهناك كان يتوافد الذين تصيبهم أزمات مؤقتة طالبين سلفا صغيرة لمدة أسبوع ، أي يتوافد الذين هم على استعداد لأن يعيدوا بعد أسبوع كل عشر كرونات عشرين كرونا أو - إذا لم يكن ذلك بمقدورهم ، أن يدفعوا كرونا واحدا عن كل عشرة كرونات كل أسبوع إلى أن يردوا الدين كله

الفائدة المحددة . كانت هذه هي الفخاخ المميتة التي تبدو وكأنها مساعدة إنقاذ .

وكان « رافو » يستقبل العملاء في دكانه . ولكن لم يكن سرا بالنسبة للعارفين أن المال الذي يعرض هنا للاقراض بهذه الشروط يخص الآنسة وما كانوا يعلمون على اليقين أن النقود لا يمكن أن تكون ملكا لرافو .

وكان رافو كونفورتي هذا وردي الوجه على قدر من النقل والتوهل بالرغم من أنه لا يزال شابا . وقد ترعرع في بيئة فقيرة لأن والده كان يعمل إسكافيا ولديه كثير من الأولاد . وبدأ وهو صبي يتاجر لحسابه في أحد محال الخردوات ويرتدي ملابس أنيقة ويحلم بخطط جريئة ومكاسب ضخمة . واليهود في سرايفو يعدونه شابا حسن التصرف ولكنه غير جاد وروحه مفرطة في حيويتها وخياله غزير للغاية . وعندما إستقل بنفسه فتح في شارع « فرهاديا » متجرا صغيرا خاصا به حيث كان يبيع القليل من البضائع وكل شيء تافه . وعادة ماكان يشترى كمية كبيرة من الأزياء القديمة التي مضى زمنها ويبيعها بجانب دعاية ضخمة تحريرية وشفوية لم تكن معروفة لدينا حتى ذلك الحين . ويقوم بعرض البضاعة بأكملها على مائدتين عريضتين أمام الدكان ويلصق على جميع جدران ونوافذ متجره إعلانات حمراء وخضراء .. أوكازيون ! . تخفيض هائل في الأسعار ! أوكازيون ! اليوم فحسب .. التصفية بخسارة ! فرصتك اليوم ! والدعاية الكبرى يقوم بها رافو شخصيا . فيدور وهو بدين محمر الوجه مبتسم أسحيا وكأنه نحلة ويخلق حوله دوامة من الضحك والحديث . وأثناء الكلام يضع باستمرار راحة يده - مفتوحة - على صدره ويكرر : بشرفي وحياتي وبأسمى الشرقي وبحياتي ! .

وكل حدث يجري في المدينة وكل كلمة عابرة تقال تعد حافزا للمزاح والحديث والصياح والدعاية .

يقول أحد العابرين الذين يحبون الدعابة - إلى كنفورتي الذي كان يمدح بعض أربطة العنق العتيقة لاثنين من المشترين المترددين :

- لاتخدع الناس يارافو !

- ماذا ؟ ماذا ؟

وعلى الفور يترك رافو الاثنين ويهرع إلى وسط الشارع وهو يضرب يدا بالأخرى ويقف أمام الرجل يمنعه من مواصلة سيره وعيناه السوداوتان الاسبانيتان مخضبتان بلمعان دامع وإنفعاله أقوى من إنفعاله الحقيقي ويصيح راقوصحيا إياه وهو يتكلم بصيغة الجمع دائما :

- ماذا ؟ أنا أخدع الناس ؟ أنا ! إننا بشرفى وحياتى نقوم بالتصفية بخسارة قدرها عشرة فى المائة .

ثم يقول ذلك الشخص وهو يشرع فى مواصلة سيره .

- حسنا ياراقو ! هذا شىء معروف !

ولكن راقو يمسكه من كلتى يديه وهو يقول

- ما هو الشىء المعروف ؟ إدخل ، ادخل المحل لكى أريك الفاتورة . قائمة الحساب تتحدث ياسيدى ! فلنتراهن ! اراهنك بخمسين كرونا ، خمسين منى أنا البائس مقابل خمسة منك أيها السيد . واراهنك أننا نعمل بخسارة .

ويهرول راقو إلى المائدة الواسعة وبحركات مسرحية يمسك برابطة عنق ويشدها ويقربها لعينى الرجل وهو يقول

- أترى هذه . فتلك هذه قمامة لابضاعة إذا لم نكن نخسر فى عملنا أقول لك . إدخل لترى قائمة الحساب فإذا وجدت أننى أكذب فسأوزع هذا كله على الناس مجانا .

ويتوقف الناس ويضحكون ويتمتعون بهذا المنظر الذى كثيرا ما يتكرر ، ودائما ما يكون منهم من يسمع ذلك لأول مرة يكون هناك على الدوام أشخاص يتباعون شيئا .

هكذا كانت بداية عمل راقو كونفورتى وبمرور الأعوام تملكه الجدة والرزانة وأصبح ثقيل الحركة خاصة منذ ثلاثة سنوات حينما تزوج من عائلة غاية فى الثراء والعراقة من مدينة «ترافنيك» . وكان زواجه هذا على شىء من الغرابة ، فقد رأت الفتاة الجميلة - وحيدة أبويها - الشاب النشيط فى إحدى حفلات اليهود فى مدينة «ترافنيك» . واحبته . وبينما والداها لم تكن بهما رغبة لأن يسمعا عن زواج راقو بابنتهما هربت الفتاة بلا اثاث وبدون دوطة . كانت هذه عبارة عن عملية إختطاف فعلية مصحوبة باطلاق الرصاص (طبعا كان إطلاق الرصاص فى الهواء ولم يطلق على بشر) ومصحوبة أيضا بالجرى والانفعال وبرجال البوليس . وقد أفلحوا فى أن يلحقوا بهما فى سراييفو ولم يسع الوالدان إلا الموافقة . ولديهما الآن طفلان ولكن والد الزوجة لايريد أن يغفر لهما ذلك مغفرة تامة . وهو يساعدهما ولكنها مساعدة بسيطة عن طريق شخص ثالث .

كان كونفورتى أحد عملاء رايكا الأوائل فى الوقت الذى كان يؤسس فيه متجره . أولا كانت تعطيه مبالغ ضئيلة من النقود فى غير ثقة كبيرة بضمانات كثيرة ، ولكن بمضى الزمن إتضح انه على الرغم من مجونه فهو على قدر ضئيل من التطرف وعلى قدر عظيم من الكفاءة أكثر مما يبدى .

ومنذ سنتين ، بل وفى البداية نفسها ظهر راقو فى عينيها كرجل مفيد عيد النظر . ففى أحد أيام شهر أكتوبر عام ١٩٠٨ زارها مع أول خيط من خيوط الظلام لكى يطلب منها تأجيل الدفع وكانت الايام على غير عادتها دافئة جميلة والنافذة مفتوحة ومن خلال هذه الليلة الساكنة كانت تصل الى أسماعها جلبة غير مألوفة تختلط بالعمليات الحسابية الرتيبة التى يقومان بها . وكانت الريح تهب فى روعة ووجل وتدق جميع أجراس الكنائس الكاثوليكية . ومع انسياب موجات الهواء لدقات الأجراس كانت تصطدم وتختلط الأصوات الغليظة المتزنة لأحد ألحان الأغانى الوطنية التى كانت جماهير لاترى من المتظاهرين تغنيه فى الشوارع الرئيسية فى ظلام الصيف الدافىء .

واصاخت الآنسة السمع وسألها راقو بصوت هادىء والانفعال يتملك نبرة صوته وقد انحنى تجاه الناحية التى تصدر منه الأصوات .

- أتسمعين ؟ أتعرفين ماهى هذه الأصوات ؟

فأجابته الآنسة فى غير حماس كبير .

- أعلم .. إنها الوحدة .

- أجل . لقد تم اعلان الوحدة بين البوسنة والهرسك ، ولكن فى نفس الوقت بدأت التعبئة .. إذ أنه سيتم ارسال جيش الى الحدود الصربية والى الحدود الروسية أيضا .. الآن ينبغى شراء البندقات (عملة ذهبية قديمة) .

- كل انسان يعلم هذا وسيفعل الجميع ذلك .

فقاطعها راقو قائلا

- إنظرى . ليس الأمر كذلك . لايعلم هذا الامر كل انسان ولن يفعله كل أولئك الذين يعلمونه . إن الناس تنقصهم الحكمة وهم على شىء من الكسل وعدم الاكتراث . وعلاوة على ذلك فلا يملك الجميع نقودا . فهاأنذا أعلم هذا الأمر وأقوله لك ولكنى لاأشترى لأننى لاأملك ما أبتاع به . أما أنت ياآنسة فلديك المال . وإنى لاستحلفك أن تشترى كل مايمكنك من الذهب مادام الله قد منحك مالا ومادام ذلك فى مقدورك . استشترى كل مالديك من

مال سائل ولن تندمي على ذلك وبعد شهر سيظهر ما إذا كانت هناك حرب ام لا . فإذا كانت الحرب فستحققين بالبندقات بدلا من الاوراق النقدية ، واذا لم تكن هناك حرب فستربحين الكثير من بيعها فى الوقت المناسب بسعر مربح . استمعى الى نصيحتى فانتى احدثك حديث الصديق ولن تندمي على ذلك . فإذا اردت فانني ساشترى البندقات لحسابك ولن اطالبك بمكافأة بل حدديها انت بنفسك حسب الربح .

كان كونفورتى يتحدث فى حركات منفعلة وكان بعينيه بريق شديد جعلها تبدو وكان بها بعض الحول . وظهر على الرجل احساس بالحزن البالغ لانه لايملك مالا يمكنه من القيام بعملية رائعة مضمونة .

اما الانسة فقد راحت فى احتراس وبطء تشترى البندقات من زوجات المسطمين فى معظم الاحيان (وقد ندمت بعد ذلك على هذا الاحتراس والبطء) وكان رافو أيضا يبتاعها لحسابها وفى شهر يناير من العام التالى حينما بلغت ازمة الوحدة ذروتها اعطى رافو فجاة - وكانه كلب صيد - اشارة بضرورة البيع وقد عارضت الانسة وترددت لان الذهب كان فى ارتفاع مستمر ولكن رافو ظل ينصحها فى اصرار وفروغ صبر بان تلقى بما لديها باسرع مايمكن والسعر لايزال فى ازدياد . لانه خلال اسبوع او اسبوعين سيتضح لكل انسان ان الحرب لن تنشب وحينئذ سيبدا سعر البندقات فى الانخفاض السريع . وقبلت الانسة الحل الوسط ... الحل النسائى الوجل وباعت النصف بربح يصل الى ثلاثين الى خمسة واربعين فى المائة وانتظرت بالنصف الثانى لكى ترى ماذا سيحدث . وبعد اسبوعين هبط فعلا سعر الذهب وافلحت فى ان تبيعه بطريقة مايربح يصل من عشرة الى خمس عشرة فى المائة . وقد قلل هذا من معدل الربح فى العملية كلها ولكنه بين لها فى نفس الوقت ان كونفورتى شخص يمكن الاعتماد على رايه ، وقد اعطته مكافأة قدرها واحد فى المائة

والآن فى بداية عام ١٩٠٠ اخذ رافو على عاتقه الجزء الظاهر من عمل رايكا بيرمته . ومنذ زمن بعيد اختفى من حول متجره ذلك الصياح وتلك اللوحات المزركشة لانه لم يعد يرتزق من الاوكازيونات الصاخبة بل من الاعمال التجارية الهامسة التى لاترى ولاتسمع . واصبح فى المتجر قليل من البضاعة ، ويعمل به مساعد شاب ولكن العمل الاساسى كان يقوم به كونفورتى شخصيا وراء احد الحواجز الزجاجية حيث يوجد مكتبه ومدفأة صغيرة وخزانة كبيرة ، وحيث يحضر من يحتاجون الى سلفة عاجلة

يتهامسون مع رافو ويتركون الحلى التى احضروها رهينة او ضمانا اكيدا ويتسلمون النقود ثم يخرجون من المتجر وقد تملكهم شعور بالغ بالراحة لان هذا هو حال جميع المبذرين . فعندما يجدون مافم فى حاجة اليه - حاجة مؤقتة تحت ضغط العوز او الغواية - فانهم يتخيلون انهم قد وجدوا حلا مثاليا ابديا لجميع الامور التى تشغل بالهم وتقلقهم

وكان رافو يذهب بقدميه القصيرتين وبدانته مرة واحدة فى الشهر الى الانسة فى الطرف الاخر من المدينة وتكون هذه بالنسبة له هى اطول نزهة واعظم عمل . كما ان تصفية الحساب مع الانسة هى اشد اجزاء العمل صعوبة . لانه عند القيام بتسوية الحساب مع الانسة التى ترى كل شيء - كما كان رافو يقسم - لاينفع القسم بالشرف والاسم ولاحتى اكثر صيحات الاعجاب صدقا او اشد الحركات حيوية . لاشيء يجدى سوى الارقام الدقيقة القائمة على اساس فعلى .

وفى عام ١٩١٢ صاحبت الحرب البلقانية ازمة ثانية واضطراب من الاضطرابات التى يربح فيها الناس ويخسرون . وكانت الانسة هذه المرة ايضا فى الجانب الذى يربح . فقد قامت ثانية بالاشتراك مع كونفورتى فى عملية يسيرة رائعة بالبندقات التى تم شراؤها من الارامل او من ابناء البكوات الذين يعيشون عيشة السادة ولايعملون ولايكتسبون شيئا . ولكن المكسب فى هذه المرة كان اقل بكثير لان الازمات لم تعد محددة تحديدا دقيقا ببداية ترى فى وضوح ونهاية يمكن التنبؤ بها ، بل اصبحت الازمات معقدة مستترة تتسلل الى جميع نواحى الحياة . تختفى ظاهريا ثم تظهر على الفور مرة اخرى وتمتد الى مالا نهاية

وهكذا مرت السنون على الانسة بسرعة دون ان تشعر بها . ان مرور الوقت لايعذب ولايحسب بالضبط الا اولئك الذين يعيشون وجل همهم محصور فى المشاغل التافهة الخاصة بشخصياتهم واستعداداتهم ، بيد ان الوقت قصير وغير محسوس بالنسبة لاولئك الذين يعملون متناسين انفسهم فى اى عمل يتجاوزهم ويكاد لايوجد اذا قيس بحجم حلم من الاحلام الغريبة التى يصعب تحقيقها . ومنذ عدة سنين والانسة تعيش فى حلم كبير يحجب كل شيء اخر فى الحياة ويجعله ثانويا . ودائما ماكان حلمها ان تنتقم وتثار لابيها . ولانها لم تقدر على انقاذه فلتحقق عهده - على الاقل بالكيفية التى فهمتها به - دون ان ترعى او ترحم نفسها او الاخرين . وقد نما حلمها هذا بمضى الوقت وتغير من حيث مراميه التى كان يتجه اليها

وحسب الوسائل التى كان يستخدمها دون أن تلاحظ ذلك بنفسها ، وقد صار له الآن اسما وهو : المليون .

وقرأت ذات مرة أن أحد أصحاب المليارات الأمريكان بدأ حياته بائعا للصحف قال «لابد أن تظفر بالمليون الأول وبعد ذلك يمضى كل شىء بسهولة . وليس مليونيرا إلا ذلك الذى يريد أن يصبح مليونيرا ، فينبغى أن تكون لديك الرغبة وهذا هو كل شىء» . إن هذا التعليق السطحى وربما المختلق فى الصحيفة قد شغلها بتوره . وفى هذه اللحظة حصل ذلك الشىء الذى إشتاقت إليه منذ زمن وشعرت به - على إسمه وهو المليون .

وأصبح هذا الحلم يحلق أمامها كأنه نجم لاينطفىء نوره ليلا أو نهارا ولا حتى خلال النوم . وكانت تعمل وهى تتأمل هذا المأرب الذهبى البعيد وتدخر وتفكر وتحلم فى منزلها المقفر الذى ما إنفك يشبه القبر . إن المسافة بعيدة كل البعد بينها وبين هذا الهدف ، بيد أن ذلك يزيد من حلاوة التوفير وقداسة كل مكسب . إنه لقليل عدد أولئك الذين يجدون فى أنفسهم القوة ويجدون فى الناس إمكانية الاتجاه إلى هذا المأرب ، وإنه كذلك لقليل على الدوام عدد أولئك الذين يسمح لهم مالوصول إلى الهدف . إنها تعلم ذلك علم اليقين بيد أنها فى نفس الوقت تعلم وتشعر بمعنى أن يكون المرء أحد أولئك الذين يمضون فى هذه الطريق . لم يكن بمقدور أى إنسان من أولئك الذين كانوا يحملقون فيها فى الشارع بنظرات دهشة أو كانوا يغتابونها فى المنازل - أن يخمن إسم هذه الحلم . أما الآنسة فلأنها كانت تعيش مع هذا الحلم وتحيا به فكانت تمر بجانب الناس وكأنها تمر بجانب أموات . ولم يكن بامكانها أن تسمع أو تفهم من بين كل ماكان يحدث حولها فى العالم وماكان يحرك الناس حتى أقربهم إليها ويثير ويخلق الاضطرابات والحوادث فى الدول والشعوب - إلا ذلك الذى يمت بصلة إلى حلمها ألا وهو الحديث الأزلى المعقد الذى لانهاية له عن الوارد والمنصرف .

ومنذ زمن بعيد هناك بالنسبة لها عالمان غاية فى التباين وإن لم يكونا منفصلين تماما . أحدهما عالمنا ذلك الذى يسميه الناس كلهم بالدنيا ، وهى كل هذه الأرض الهادرة التى لاحدود لها بأناسها وحيواناتهم وغرائزهم ومآربهم وأفكارهم ومعتقداتهم وإحتياجهم الأبدى للبناء والهدم وبلعبتهم الغامضة للجذب والدفع المتبادل . والعالم الآخر وهو عالم المال - إمبراطورية الكسب والتوفير - العالم الخفى الساكن الذى لاتعرفه إلا

الآلية . ولكنه جزء لانهاية له من النضال الصامت والأحلام المستمرة التى يسودها الحساب والقياس وكأنهما إلهان لايتكلمان . وهذا العالم الآخر الذى لايرى ولايسمع ليس بأصغر أو أقل تنوعا ولاثراء من ذلك العالم الأول ، لهذا العالم الآخر أيضا شمسه ونجومه الصغيرة وغسقه وغروبه وصعوده وهبوطه وبركاته وسنواته العجفاء ، وله أيضا قوة ضخمة مبهمة لصعوده الداخلى ومبادئه الحياتية التى يقوم عليها ويتحرك بها كل شىء التى لايمكن إلا للرجل الضعيف الميت أن يخمنها ويتنبأ بها . هذا العالم القاتم المعكوس كانت تعده الوجه والعالم الآخر هو الظهر .

هذا هو العالم الذى تتبعه الآنسة بكل كيانها وهو العالم الذى تعيش فيه فعلا . إن حياتها فى عالمنا هذا لتشبه فى كثير منها حياة ناسك وجد منذ فترة طويلة وجودا كاملا علاقة روحانية بالله وجعلها هدفا لحياته ، وإن كان لايزال يتحرك فحسب تحركا مؤقتا عابرا هنا بيننا لاضطراره إلى ذلك ، يتحرك فى سهولة وحرية ومرح لأنه يرى أن كل ماهو خارج عن نطاق عالمه الحقيقى لايستحق سوى الضحك الذى يطلقه الكبار عند مشاهدتهم للعب الأطفال وألعابهم .

وفعلا ، بالنسبة للآنسة كانت الأيام والشهور والأعوام مع الحوادث التى كانت تأتى بها ، تمر كصوت غامض وغمامة بعيدة . وقد أصبح الآن اتصالها بالمجتمع وبالناس مقصورا على أقل حد ممكن وليس إلا بقدر ما يتطلبه العمل وكسب الرزق ، وقد رفضت منذ فترة طويلة آخر فرصة لها للزواج . ذلك لأنه بالرغم من إنطوائها وتواضعها الأنانى فى الملبس ، فعلى الأقل فى السنوات الأولى كان يجىء إلى منزلها الراغبون فى الزواج منها . وكان عددهم كبيرا وغاية فى التنوع ، فمن أستاذ الرياضة المساعد المتواضع المنطوى إلى التاجر الشاب الأرمل ذى الطفلين . وكانوا يتساوون جميعا فى شىء واحد وهو رفض الآنسة لهم جميعا باختصار وبلا تفكير ودون أقل مراعاه للوم أمها والوصى عليها .

ومنذ فترة قطعت علاقتها لا بالشباب والعاطلين منهم فحسب بل وبالشابات المتزوجات ممن هن فى سنها ، وأصبحت غريبة بالنسبة لجميع أقاربها بمسلكها وأعمالها فلاهم يدعونها ويحضرون إليها . ولولم تكن أمها موجودة لما دخلوا منزلها على الاطلاق . ولم تجتهد فى أن تخفى عدم إكتراثها التام بهم وبكل مايفكرون فيه ويتحدثون عنه . وكانت أحاديثهم وأفكارهم عنها غاية فى السوء وكذلك عن أسلوبها فى الحياة وعن مرضها

بالتقتير وتعاملها المخجل بالربا . والخالة جوسيافا وهي إمرأة قصيرة القامة حادة الطبع لماحة تعمل وسيطا وناقلا للاشاعات بين عائلة «هاج فاستيتش» وتلك الدستة من العائلات التي تمت لها بصلة القربى - كانت تقول في جميع اللقاءات العائلية :

- إنني لا أعلم ماذا سيكون مصير هذه الفتاة ، فانها تترعرع كالكمثرى البرية بعيدا عن الطريق لدرجة أنه لايستفيد منها أي إنسان . إنني لاأعلم ، لاأعلم كيف نتجت من مثل هذا الأب وهذه الأم !

وخلال هذه الاحاديث لا ينقطع الجميع عن التساؤل عن الشخص الذي يمكن لرايكا هذه ان تشبهه . وحينئذ يتذكرون دوما جدها من ناحية الام ويتذكرون المرحوم التاجر «ريستان» .

فلا يزال هناك بعض الاحياء الذين يتذكرون ذلك العجوز الضخم الوقور ذا النظرات الباردة المغلول اليدين والذى لم يكن يعيش إلا لنقوده والسمعت وغالبا ماكان يشتهر بشحه . فإذا طلب منه أى إنسان شيئا باسم الصداقة كان يجيب عليه : كيف تكون انت صديقا لي ! صديقي هو ذلك الشخص الذى لا يطلب منى شيئا . وكان يذهب بنفسه كل يوم إلى السوق ويشترى كل ما يلزم لمنزله ، ولم يكن مزهوا بتجارته الضخمة المتشعبة بقدر تفاخره بانه يستطيع أن يجد الشيء الرخيص الجيد في السوق وبانه لم يصادف بعد الفلاح او رجل المدينة الذى يمكن ان يخدعه في ذلك . وعندما كان يشترى البيض كان يحمل معه حلقة حديدية خاصة كانت في رأيه هي اقل مقياس لحجم البيضة ، فالبيضة التي يمكن أن تمر خلال تلك الحلقة لا يشتريها ، وبينما كان يقلب البيض في سلة اي فلاح كان التجار من خلال المشربيات يشيرون إلى ابنائهم وصبيانهم في إحترام إلى العجوز الفذ الذى لايتردد - قائلين :

- إنظر ، هكذا يتم إكتساب المال وتشييد المنزل !

ولكن التاجر «ريستان» بالرغم من بخله وشراهته القاسية كان يعرف أن يقلل من شحه وأن ينفق المال ويستضيف ويستقبل جميع صنوف الناس حينما كان هذا ضروريا وحينما كانت سمعة منزلهم تتطلب ذلك . وكان يقدر على أن يفعل ذلك في روعة وكرم فعلي لدرجة أن قرشه كان يبدو أكبر حجما من نقود الآخرين . إلا أن رايكا هذه كانت تقتصد وتقطع فلا تراعي أية اداب للياقة ولا تعرف ما هو الحياء ولاتشبه تلك الفتاة التي نشأت في منزل

احد التجار بل تشبه اليهودى البولندى . ومنذ أن تم إنشاء مدينة سرايفو لا يذكر احد انه كانت هناك إمرأة تتاجر بالمال وبالاسهم والسندات وأن تكون مرابية بهذا الشكل . ولم يظهر مثلها مطلقا بين أهل أي ديانة من الديانات وكان الاقرباء الذين تملكهم القلق يقولون : إن هذه البدعة المحزنة وتلك الفضيحة الكبيرة لم تكتب إلا على عائلتهم . وكانوا ينتقدونها خاصة في تصرفاتها مع امها . وقد دعا بعضهم زوجة التاجر المسنة إلى أن تترك إبنتها وتنتقل لديهم لكنها كانت ترفض . وظلت هكذا تعيش في حجرتها وحيدة وقد تقدم بها السن قبل الأوان وهي تذبل كالعبد بلا إرادة وبلا صوت . وفي العيد حينما تزورها إحدى النساء من قريباتها او صديقاتها فإنها تبكي بصوت خافت وبقليل من الدموع لكنها لا تشكو لأحد من أي شيء .

وفي المدينة اصبح للآنسة بين الناس سمعة مؤكدة . سمعة ليست جميلة على الاطلاق وغريبة من جميع النواحي . فقالوا عنها اولا : انها طفلة غريبة قبيحة متطرفة . ثم تحدثوا بأنها آنسة مرابية ومخلوق لا يرحم ولا كبرياء لها . وتعتبر شاذة بين النساء وكأنها ساحرة من نوع حديث .

وفي السنوات الأولى بعد وفاة والدها بينما كانت تفحص ميزانية العمل مع فيسو خفضت الآنسة جميع النفقات التي تصرف في الأغراض الخيرية والتي كانت كثيرة أثناء وجود التاجر اوبرن وكانت في كل سنة تالية تزيد من خفضها إلى أن قررت ذات مرة أن تلغيها إلغاء تاما ، وقد عارضها فيسو - الذى لم يوافق رايكا على رأيها كما لم يوافقها في كثير من الأمور الأخرى - وقد عارضها حينئذ معارضة حازمة بقوله :

- لاتتصرفي على هذا النحو يارايكا فالانسان لايعيش بمفرده في هذا العالم ولايمكنه أن يتجنب الناس .

- بإمكانه مادام منضبطا . أنا لاأملك ، ولن أضيع .

- هدىء من روعك فلا يبذر احد المال ، ولكن ينبغي أن تتصدقي مادام هذا هو المتبع .

- تتصدق أنت !

- إنني سأتصدق ، ولكن ينبغي ان تتصدقي انت ايضا ، وإنني اقدم لك هذه النصيحة لمصلحتك .

- شكرا لك على نصيحتك .

واغضب هذا البرود القاسي الرجل الشاب فقال :

- يبدو لي أنك لاتعرفين ماتقولينه .
- إنني أعرف جيدا ماأقوله .
- إذن فإنك لا تعرفين ما يقوله الآخرون عنك .
- لايهمني ذلك على الاطلاق .
- إنظري ، إنك هنا تظهرين وكأنك لا تملكين من العقل مقدار ما تعتقدين أنه لديك ، ولو كان التاجر المرحوم حيا ..
- إنك تعلم جيدا سبب عدم وجوده حيا .
- إستمعي ، إنني أعلم كل شيء ولكنك يا آنستي تجاوزت الحدود منذ زمن بعيد ، إنك تبررين كل شيء بالبركات التي منحك الوالد إياها لحظة وفاته ولكن ذلك الذي أراده ليس بركة بل لعنة . إن ما تفعلينه لم يكن المرحوم ليوافق عليه مطلقا ولايمكن أن تكون هذه هي رغبته ومقصده ، ولكنك تذوقت حلاوة النقود فاستعبدتك واخضعتك . فتنتشرين وراء مشيئته وإسمه وتفعلين ما تشائين . ولكن تذكري ماأقوله لك .. ليس المال هو كل شيء ، وإن التاجر الذي يدفع من حياته ثمنا لما يكسبه يعد تاجرا سيئا . ولو حتى كسب مليونا فسيدفع الثمن غاليا .

ونظرت إليه الآنسة بتعال وقد إرتسم على وجهها تعبير الاحتقار المرير . ونظرت إلى هذا الرجل القصير القامة الذي تجرأ وحدثها عن المليون . اما قيسو فقد واصل حديثه بذلك الصوت الصلد الذي يصدر عن منقار القامة والضلعاء من الناس في لحظات الغضب قائلا :

« يمكنك أن تفكري كما تشائين وأن تخطيء في عملك كما أخطأت في البداية ولكني أقول لك أن عملك هذا لايصح وإنك ستندمين على كل ما تفعلينه وإنما أخشى أن يكون ندمك بعد فوات الأوان . إنك تعتقدين أنك أول من إكتشف كيف يمكن جعل القرش قرشين ، منذ القدم ياعزيزتي وهناك من يعرفون ذلك ، ولكنه من المعلوم أن مثل هذا المال لا يستمر مطلقا ، فإن آجلا وإن عاجلا يعود إلى الشيطان من حيث جاء .

وغالبا ماكانت تتكرر مثل هذه المشادات ولكن لم يكن بإمكان أي شيء أن يقنع الآنسة أو أن يضطرها إلى أن تعدل عن رأيها . وجميع أولئك الذين كانوا يطوفون بالمتاجر في سرايفو لجمع التبرعات للجمعيات الخيرية والوطنية كانوا يخرجون من محلها ومن منزلها بخفي حنين . فقد كانت ترفض في إصرار أن تمنح أي شيء لأي إنسان ولذلك هاجمتها صحف

سرايفو بتلميحات واضحة على أسلوبها في العمل . وأصدرت جريدة « الكلمة الصربية » تعليقا عن أن بعض أحفاد أولئك الذين أسسوا المؤسسات الصربية في سرايفو وكانوا يقدمون لها المساعدات - يهملون هذه العادة الجميلة ويغرقون في روح المادية والأنانية القبيحة ويتناسون واجبهم نحو الشعب والجمعيات الوطنية . وهاجمت الصحيفة « الديمقراطية الاشتراكية الحرة » الآنسة هجوما صريحا لأنها رفضت أن تتبرع للمرضى من أبناء العمال وأطلقوا عليها « شيلوك في فستان » .

وقد نبهها التاجر سيهايلو الوصي عليها والمدير باير بألا تبالغ في ذلك وأن تتبرع على الأقل بأي شيء ، لأن ذلك هو ما يفعله الآخرون كلهم وبألا تتحدى الناس على الاطلاق بهذه الكيفية وإلا تبتعد عنهم . بيد أن الآنسة ظلت مصرة على أسلوبها في الحياة ، ماضية في طريقها لاتكترث مطلقا برأي الناس ودون أن ترغب أو حتى يسمح لها الوقت بأن تفكر في ذلك .

ومرت السنون واتخذت الآنسة - قبل الأوان وبشكل متزايد - مظهر العانس الشاذة القاسية وقضت حياتها كلها فيما بين المنزل والحانوت مشغولة بالمال والعمل من أجله بلاتسلية وبلا أصدقاء ودون الحاجة إليهم .. وكانت زيارتها لقبر أبيها هي الخروج المنتظم الوحيد الذي لم يكن يمت بصلة مباشرة للعمل فهي تذهب إلى المقابر في كوشيفو كل يوم أحد قبل الظهر ، سواء أكان الجو صحوا أو سيئا ولا تسمح مطلقا لأمها بأن تذهب معها .

وقد تعود الناس على مظهرها الشاذ الذي يلفت الأنظار وخاصة عندما يكون الجو جميلا مشمسا وعندما تظهر الشوارع بمظهر رائع وهي تموج بالناس ، وتتميز بطولها ونظراتها القاتمة وخطواتها التي تشبه خطو الرجال وسلوكها وملابسها التي تختلف عن ملابس النسوة اللائي يرتدين ملابس العيد ويرحلن ويتسامرن وهن ذاهبات إلى الكنيسة أو المتنزة . أنها دائما ترتدي ذلك الرداء الرمادي الداكن الذي يشبه ملابس الرجال . وتضع على رأسها قبعة سوداء عتيقة صغيرة مضى أوانها منذ زمن وتنتعل حذاء باليا له كعب منخفض . والناس ينظرون إليها نظرات فاحصة شزرة أو نظرات واقحة فضولية حينما تسير في الشوارع بل وحتى عند وجودها في المقابر ذاتها . ولكنها لاتعيرهم أي إهتمام وكأنهم ضمن الأموات المجهولين الذين يملأون المقابر .

وبمجرد أن تجلس على المقعد بجانب قبر والدها ينغلق وراءها الباب الأخير بينها وبين الدنيا ، وهنا تختفي وتنفصل عن العالم والهدوء يكون وقد احتجبت الرؤيا امامها لان المقابر تقع في منطقة منخفضة بين تلال خضراء في سهل كوتشيغو . ومن حين لآخر يصاحب الهدوء (يصاحبه ولا يقطعه) الصوت البعيد المنساب لاجراس الكنيسة الآتي من المدينة . أما المنظر فتغيره تغيرا ضئيلا سحب الصيف الرائعة البيضاء التي تسير في السماء ببطء . ولكن الآنسة لاتلاحظ كل ذلك ولاترى إلا القبر .

وهذا القبر مزروع بالخضر ومغطى بالتراب ومحاط بالأحجار البيضاء . وفي مقدمته لوحة منخفضة من المرمر عليها صليب وبجانبها تنمو الورود وهي مغروسة مع الأصص في الأرض . ومن خلال أوراقها الخضراء تظهر حروف ذهبية على اللوحة : هنا يرقد التاجر أوبرن رادكو فيتش المتوفى في الخامسة والأربعين من عمره .

وتنظر الآنسة نظرات حادة طويلة – دون أن تطرف – إلى هذه الكتابة حتى تتوهج عيناها وتختلط جميع الحروف وتتحول إلى شرارات ذهبية مختلطة بالدموع . وحينئذ تغمض عينيها وتستغرق في نفسها إستغراقا كاملا ولا تعمل جميع حواسها ولاتتأثر بالانطباعات الخارجية . وتتحدث الآنسة مع القبر وقد فقدت إتصالها بالعالم أجمع . وتفيض من ذلك الجسد المنحني المتقلص قوة هائلة من الرقة النسائية في موجات عارمة . تفيض تلك الطاقة العجيبة المستترة المتسلطة التي تعيش بين ضلوع تلك المخلوقات الضعيفة وتخرج منها في أشكال متنوعة وتخلق وتحلل حيوات ومصائر من حولها .

وتهمس الآنسة وهي تختنق بالمشاعر المتدفقة وتتنهد تنهدا متقطعا دافنا في راحتي يديها المتقبضتين قائلة :

– أنت . أنت . أنت !

وكان في الأسلوب الذي تنغم به نبرتها . وهي تنطق بصوت مختنق بتلك الكلمة الوحيدة البسيطة . جميع معايير الرقة والألم والحزن التي تعد كل إمرأة قادرة عليها في مختلف الظروف ومختلف فترات حياتها . ولكن بعد تلك المشاعر المنهمرة المكبوتة لمدة طويلة تظهر فكرة صحيحة قوية كفولاذ بارد يمسك في يده بسيف مشتعل .

إن ذلك الشخص الذي هو الموضوع الأزلي الوحيد لكل رقتها ليس موجودا . فقد قُتل في خسة ودون عقاب لأنه لم يعرف كيف يدافع عن

أملاكه ويحققها . ولأن نقاط ضعف قلبه الرؤوف قد شغلت إنتباهه . وإحترامه لشرف وكبرياء الناس حول إنتباهه ولأنه كان يحب حبا جنونيا بشجاعة ونبل أن يعيش في مصيبة كل إنسان وأن يضع نفسه مكان الآخرين ليضيع لحظات حتى أنه لم يجد مايملكه ذات يوم وهو عائد إلى مكانه . هذا هو مصيره وهذا هو مضمون حياتها . إنهما متصلان إتصالا وثيقا بموته وبحياتها .

وعادة ماتعتدل الفتاة حينئذ وتهدأ وتتمالك أعصابها وتخمد كل شعور وهي تنظر بعيون جافة إلى الحروف الذهبية على اللوحة المرمرية وتبدأ حسابها الصامت مع القبر . وتوضح له . في أفكارها . الحساب عن كل شيء فعلته خلال هذا الأسبوع وتوضح له وتشرح ما أعدته للأسبوع القادم طالبة منه الموافقة على ماتم إنجازه ورضاءه عماتم تخطيطه .

وتنهض قبيل الظهر وتنقل عائدة إلى المدينة . وفي هذا الوقت حيث الشوارع مكتظة بالناس . يُلفت منظرها الغريب الانظار أكثر ولكنها لاتلتفت لأي إنسان وتقول لنفسها أن هؤلاء هم الأشخاص الذين يقتلون الأرقاء والشرفاء من الناس ويخدعون وينحنون للسفهاء ولغير المهذبين . وإنها تشعر . وقد منحها حديث الصباح قوة كبيرة . كيف تغمرها هذه القوة الهائلة باللامبالاة الممتزجة بالاحتقار نحو هؤلاء الأشخاص الذين لايقدرون على عمل أي شيء لها الآن والذين سيزحفون أمامها عندما تصبح في قلعتها التي تسمى المليون . وتخطو خطوات حادة ويبدو لها أنها تسمو لا بأفكارها فحسب بل وبجسدها أيضا فوق هذه الجماهير البائسة وأنها تطأ عليها وكأنها تدوس على عش النمل .

الفصـــــل الرابــــــع

لم يختلف يوم الأحد الموافق ٢٨ يونيو عام ١٩١٤ بأى شيء عن جميع أيام الأحد السابقة إلا ببعض العطاء الناعس الذى كانت الآنسة تستعد به لزيارتها المعتادة للمقابر . وخلافا للعادة وقفت فترة طويلة بجانب النافذة المفتوحة ونظرت إلى الشاطيء الآخر لنهر ميلياتسكا وإلى المنحدر الرئيسي المغطى بالخضرة وكانت السماء لاتزال بها لمعان أحمر ، ورطوبة الصباح تغلف المدينة كلها . ولكن الشاطيء المقابل للنهر وكذلك شاطيء الميناء كانا قد إنتعشا ، فقد كثر المشاة والعربات ترسل دويها وتمر السيارات بضجيجها ويرى فيها أناس يرتدون الملابس الرسمية ذات الألوان الصارخة التى تبدو وكأنها تزدهر فى أيام الصيف .

والآنسة تنظر إلى هذا كله ولكنه لايمس وعيها بأكثر مما يمسه حلم كئيب . فوعيها مفعم بمضمون آخر أكثر حيوية وبواقع حلم الليلة السابقة . وبوقوفها هكذا بجوار النافذة وهى تنظر إلى المدينة المنتعشة فى يوم ساطع من أيام الصيف تعيش وتستمتع باللذة غير المحددة لهذا الحلم الذى ليس له شكل أو إسم دائم . إنها لا تستطيع أن تحكيه ولا حتى تعرف أن تقدم حسابا عنه لنفسها ، ولكنه يغمرها تماما بينما تظل تحلم به حتى طوال الغد وخاصة فى مثل هذا الصباح حيث لاتزال إنطباعات أحلام الليل حية ولم تستطع بعد حوادث الحياة اليومية أن تمحيها وتدمرها .

ليست هذه هى أول مرة تحلم فيها حلما يتعلق بحلمها عن المليون . ففى خلال بضع السنوات الأخيرة رأت فى المنام عدة مرات بقوة متباينة وبمظاهر وأشكال مختلفة نفس الحلم ، وهو أنها قد ظفرت بالمليون وتجاوزته فى نفس اللحظة . وفى كل مرة ، كما فى الليلة السابقة ، كانت تشعر عند ذلك بذهول شامل وقوة نتيجة للاشراق القاهر الذى يغمرها تماما من الداخل ويفيض عليها من الخارج . وهنا بصدرها فى أحد الأماكن تحت الحلقوم يوجد المنبع الذى لا يجف لهذا الاشراق الذى يثير الحماس والسعادة . وعندما تضع يدها على صدرها ثم تنقلها إلى عينيها ترى أن يدها مغمورة بذلك الاشراق الذى يختلط فيه الذهب بالفضة والذى ليس سائلا ولا جسما هوائيا بل شيئا وسطا بين الاثنين ، والذى يعتبر قوة رقيقة قادرة ترفعها من على الأرض وتفصلها عن العالم وتحميها وتحجب عنها كل شر وكل إذلال يمكن أن يصيب الانسان . وإنها لا تسير ولا تطير وهى منغمسة ومغمورة بهذا الاشراق بل تحلق فى مكان يتوسط السير فى زهو والطيران العجيب . وهذه هى لحظة السعادة التامة عندما تشعر من على ارتفاع المليون الذى ظفرت به أنها لم تعد تشارك معظم الناس مصائرهم وأنها ليست مرتبطة بقوانين التساوق التى

تلوى وتختنق تحت وطأتها الجماهير غير المهذبة . وفى اليوم التالى تعيش طول اليوم تحت إنطباع ذلك الحلم ويبدو لها أنه يظهر من وقت لآخر على كل شيء على أفكارها وحساباتها وعلى الأشياء الموجودة حولها . وحتى عليها نفسها يظهر إنعكاس لاشراقه . إنعكاس خفى رائع ولكنه أقصر من أقصر بريق لدرجة أنه يرى بالحواس أكثر مما يرى بالعين .

وهذا هو صباح مماثل حيث تقف الآنسة فترة طويلة على غير العادة بجانب النافذة المفتوحة وبالرغم من أنها مستيقظة مرتدية ملابسها فإنها تجد صعوبة فى الاستيقاظ وبطئا فى العزم على أن تبدأ فى عمل ما يتطلبه اليوم منها . تماما كما تفعل النسوة والفتيات الأخريات المماثلات لها فى السن فيمضين الوقت بجانب النافذة المفتوحة وهن يستغرقن فى أفكارهن عن سعادة وعذاب الحب .

وتذكرت وهى تنظر لأولئك الناس وهم يتحركون فى حيوية على الشاطيء الآخر من النهر أنها قرأت فى هذه الأيام فى الصحف خبرا عن وصول ولى العهد ، فرانس فرديناند ، إلى البوسنة وعن الاستعدادات التى تتم لاستقباله فى سرايفو . وبعبارة أدق فهى لم تقرأ شيئا بل رأت فقط العناوين الضخمة للمقالات التى كانت تحية له على الصفحات الأولى . ذلك لأنها بعكس أغلبية الناس تمر ببصرها مرورا سطحيا على الصفحات الأولى للصحف ولاتقرأ بدقة إلا الصفحة الأخيرة التى توجد بها أخبار المزادات والقروض والبيع وتغير الأسعار فى السوق المالية وفى سوق النقد . ومن خلال تذكرها اللطيف للحلم السابق الذى جعلها تظل بلا حركة هنا بجوار النافذة مرت تلك الفكرة المتعلقة بالصحف كخط أسود . إنها لم تكن تحب الجرائد مطلقا ودائما ما كانت تتجنبها وكأنها شيء زائد خطير وفى الفترة الأخيرة أصبحت تكرهها وكما رأينا فلديها أسباب لذلك .

وأخيرا إبتعدت عن النافذة وقد تملكتها تلك الفكرة البغيضة وراحت تستعد . حينما خرجت من المنزل واتجهت نحو المقابر لمحت على الشاطيء الآخر موكبا من السيارات التى تظهر منها الألوان الحية لملابس الضباط الرسمية . وكان الموكب يتحرك بسرعة بجانب الشاطيء متجها نحو وسط المدينة . وبعد أن عبرت الجسر كانت السيارات قد إبتعدت . وفى اللحظة التى كانت تعبر فيها ذلك الشارع الضيق الذى يتوسط بنائين كبيرين للحكومة الاقليمية ويؤدى إلى طريق كوشفو ، دوت فرقعة قوية مكتومة آتية من المدينة . وظنت الآنسة أنه يمكن أن يكون ولى العهد فى ذلك الموكب من السيارات وأن هذه هى المدافع التى تطلق تحية له .

وكالعادة بقيت فى المقابر حتى قبيل الظهر . وفى طريق عودتها من المقابر بدا لها فى إحدى اللحظات أن الشوارع أكثر نشاطا وأن الناس يتحركون بسرعة نحو منازلهم . وفكرت فى ذلك لحظة ثم نسيته . وعادت من نفس الطريق إلى منزلها

وهي مستغرقة في أفكارها مطرقة البصر لاتعير أي إنتباه إلتفاتا ولا تلاحظ شيئا

وهكذا لم تلحظ وجود أعلام سوداء كبيرة ترفرف على كلتي شرفتي قصر الحكومة الإقليمية لم تكن موجودة في الصباح عندما ذهبت إلى المقابر.

وما ان انتهت من تناول طعام الغداء المتواضع ليوم الاحد مع امها حتى قرع شخص على البوابة ، وكان رافو . وادخلته إلى المنزل بلا تحية وقد فوجئت بهذه الزيارة غير المتوقعة في وقت غير مناسب ، وفوجئت اكثر بمظهر وسلوك رافو الشاذ . وقال لها منفعلا ونظراته تتجول من شيء لآخر

- إنظري يا انسة ، إنظري ما حدث !

- ماذا حدث ؟

- ماذا ؟ الا تعلمين ... الا تعلمين ؟ لقد حدثت مصيبة يا انسة ، مصيبة على العالم كله ... إغتيال ... لقد قتلوا الأرشيدوق وزوجته وإبنته وبعض الاشخاص

كان يتحدث في إنفعال ويداه ترتعشان والخوف ينعكس على عينيه من الكلمات نفسها .

- من قتلهم وكيف ومتى ؟

فقال رافو وهو يتنهد

- قتلهم احد الشبان الصرب ، قتلهم الكلاشيد والطلبة هنا على الشاطيء عند الجسر اللاتيني ... اللهم احفظنا !

وساد الصمت لحظة .

- لقد حضرت يا انسة لكي اقول لك أن تتخذي حذرك والا تذهبي إلى السوق وأن تحترسي انت ووالدتك لأن ما يقومون باعداده ليس خيرا

- إننا يارافو إمراتان فماذا سيفعلون لنا ، وليست لنا صلة بهذه الأمور ، وانت على الأقل تعلم ذلك .

فهز رافو رأسه بموزع صبر وقال :

- أعلم انه ليست لكما صلة ولكنك ترين ما يحدث ... إنه امر عظيم ، وانهم يقولون في المدينة اشياء غريبة ، أعوذ بالله !

وإنحنى رافو مقتربا واضاف وهو يهمس في جزع

- لقد ثار الناس لكي يحرقوا وينهبوا ، والقى القسيس الكاثوليكي خطابا وقال ان جميع الحوانيت الخاصة بالصرب في السوق ستتهدم ويهددون بانهم سيدمرون المنازل ... أعوذ بالله ! هذا هو ما يقولونه وإني لآسف لك وللسيدة وجئت لكي اقول لك ذلك . ومن الافضل يا انستي ان تبقي بالمنزل والا تنتقلا إلى ان يمر هذا البلاء . إبقي بالمنزل والتزمي الصمت وسارسل الخادم ليمر عليك إذا احتجت إلى اي شيء .

وهكذا خرج رافو والخوف في عينيه والصيغة على شفتيه

عندما اصبحت الانسة بمفردها شعرت بشيء من الضيق . ودون ان تقول لامها اقتربت من النافذة والقت نظرة على الضفة اخرى لنهر ميلياتسكا ل شيء في مكانه كما كان على الدوام ، وعدد الناس ليس اقل ولا اكثر من وف في ذلك الوقت من يوم الأحد . ولكن في تلك اللحظة ظهرت لها هذه للة كلها متغيرة وجديدة ، وكان هناك خوف وإرتباك في الهواء وبالمنطقة مع لا تستطيع أن تحكم عن مكان وكيفية ذلك .

كان بعد الظهر في ايام الاجازات أطول منه في ايام العمل ، ولكنه اليوم طويل ة غير عادية .

وعندما تغرب الشمس من وراء الاشجار تحت تل « هوما » وهي تذوب في ها لاتسمح الانسة باشعال الضوء في المنزل ، بل كانت تجلس مع امها بجوار فذة المفتوحة . والجو لايزال مشبعا برائحة النهار الدافيء المصحوب بغبار ، واجراس الكنائس تصدر اصواتا جنائزية كئيبة وقد طغى عليها جميعها ت الجرس الكبير الموجود بالكنيسة الكاثوليكية بصوته الحاد النحاس وكأنه وع من الصلب . وهنا إضطرت لان تتذكر لأمها ماحدث وما يهدد منازل وانيت الصرب . ونظرا لان السيدة المسنة كانت سريعة البكاء فقد إنفجرت ية كما كانت تبكي لأي امر آخر حتى لو كان اقل اهمية . وقد واستها الانسة تضاب وشرود ولكنها واصلت البكاء . وكانت الاجراس تصدر معدانيها من على عد ، من تل « بانيا » ومن « الكوباك » ، وعلى فترات قصيرة يسمع الصدى غير عتاد المعتد الذي كان يردده التل المنحدر الموجود حول سرايفو كاجابة غير قعة على تلك الموسيقى المعدنية للموت وللاضطراب . ومن حين لآخر تقطع تلك الأصوات المختلطة الموحدة للدهماء وهي تضج وتهتف بحياة شخص قوط آخر في احد الاماكن بوسط المدينة . وحل الظلام ايضا ... ظلام مفعم ر الشديد والاصوات الغريبة والهواجس المفزعة للحوادث الكبيرة المميتة

كانت الانوار مشتعلة في كل مكان بالمدينة وكلتا المرأتان تحسان السمع بجوار النافذة وقد جلستا ، إحداهما بجانب الاخرى وكأنهما تتوقعان شيئا ما .

وأطلقت الام تنهيدة جهورية مما يعد لدى النساء مقدمة لحديث محزن ، وقد أثار هذا غضب الانسة فلم تكن مستريحة لفكرة الشروع في أي حديث فقالت مها بغطرسة :

- إذهبي انت ونامي فلن يحدث اي شيء ولا تخشي شيئا

- إنني لا أعلم يابنيتي ماذا سيحدث ولكني اعلم انه عندما يقتل كبار سادتهم بهذا هو الشر

- إرقدي ونامي ياوالدتي فلا يهمنا ذلك في شيء

وبينما كانت تقول ذلك كانت تنصت إلى الاصوات الآتية من الظلام البعيد

وكأنها تتأكد بنفسها من صحة كلامها

- لاتبتئسي ، إنه يهمنا أهمية بالغة وسيتأثر بذلك الضرب التعساء .

ولم تحر الآنسة جوابا وإنقطع الحديث .

وظلت المرأتان تصغيان لفترة طويلة في تلك الليلة التي زاد هدوؤها وسكونها عما كان من قبل عندما توقف قرع الأجراس ، وسكتت تلك المظاهرات لأنه لم يصدر من أي مكان مطلقا ولو صوت ضئيل للغناء والموسيقى اللذان عادة مايدويان لفترة طويلة في ليالي الصيف . وساد في كل مكان الصمت الذي يفرضه لبعض الوقت ، عند موتهم ، الطغاة والقادرون في هذا العالم على الدائرة الضيقة أو الواسعة لأولئك الذين يظلون أحياء . وأخيرا ذهبت كلتاهما إلى النوم . وكانت الأم في الظلام تقلق قلق الأرامل العاجز وقد تملكها الخوف ، لاعلى بنى وطنها من الضرب البؤساء فحسب ، بل وعلى العالم كله بدرجة بسيطة . ولكن ذلك يحدث في سكون وبلاصوت أو حركة كما كانت تفعل وتتحمل كل شيء في الحياة ، أما إبنتها فقد ظلت تقرأ بعضا من الوقت كتابا ألمانيا عن الجغرافيا .

وكانت كتب الجغرافيا هي الكتب الوحيدة التي تشتريها وتقرأها بانتظام وتبحث فيها وتجد اشياء تتصل إتصالا قويا غير محدد بحياتها خاصة إذا ما كانت هذه الكتب تتحدث عن القارات المجهولة وإكتشافات الثروات الدفينة وعن الأسواق الجديدة .

ثم أطفأت النور وإستغرقت في النوم .

وإستيقظت قبل السحر وهي منتعشة تشعر بالبرد والراحة ومنتبهة وكأنها لم تنم على الاطلاق . ونظرت وهي راقدة على السرير مغلقة الفم متصلة الحاجبين بنظرات حادة إلى الظلام الذي بدأ يقل ويشحب حول النافذة .

وقد تعودت منذ زمن على الاستيقاظ في الفجر لكي تحل جميع مشاكلها التي لم تستطع أن تجد لها حلا خلال النهار والليل . والآن حان الوقت لكي تصفي حسابها مع ذلك الخوف الذي ادخله رافو إلى منزلهم . فالمرء في مثل هذا الوقت من السحر يبدو وكأنه مولود من جديد وروحه تبدو ثاقبة وكأنها جديدة غنية بالخبرات والتجارب . وكان العالم كله ، بقدر ما كان بامكانها أن ترى وتدرك وبالحال الذي كان بوسعها أن تراه به وهي أسيرة لحلمها ، يقف أمامها ويحدد تصرفاتها تجاه كل شيء وفي كل مجال . وكانت تشعر باقتراب احدى الأزمات التي يصعب فيها التكسب والربح ويسهل فيها الخسارة وثارت ضد ذلك بكل ما يشتمل عليه جسدها من قوة موجهة في إتجاه معين فحسب في السنين الأولى .

ماذا حدث ؟ لقد أغتيل ولي العهد . ولاريب في أن هذه صدمة كبيرة تتجاوز حدودها دائرة هذه المدينة تجاوزا بعيد المدى وتصيب مصالحا مختلفة وأكثر بكثير من مصالحها . إنها تدرك ذلك وتراه بوضوح ولكن لايمكنها أن تستسلم

فكرة أن هناك في العالم شيء لديه الجرأة والقدرة ، بدون خطة من جانبها ، لأن يمس ممتلكاتها للخطر ويعوق ويعطل خططها . فماذا يعني بوجه عام وبالنسبة لها هذا الذي يسمونه « بالأمور العامة » ، « والحوادث السياسية » ، « والمصالح القومية » ؟ إنه شيء غريب وبعيد ، ودائما ما كانت تتحاشاه بعناية . وكل ذلك يعد موجودا بالنسبة لها إلا في حالة ما إذا كان سيجلب لها نفعا أو على العكس إذا كانت ستتفاداه بلا ضرر . ومن هم وماهم أولئك الطلبة « الشبان ذوو الشعور الطويلة الذين كانت تراهم يتنزهون بجوار نهر ميلياتسكا بلا عمل ويتظاهرون بالأهمية والغموض وقد رفعوا ياقات معاطفهم الشتوية الخفيفة وأطرقوا وهم يضعون القبعات السوداء الضخمة على رؤوسهم .

وماذا يعني كل هذا بالنسبة لها ؟ ومن أين ظهر الآن ذلك إذا ربطنا بينه برباط مشترك : ولي العهد والسياسة والطلبة . ولابد أن ذلك يعني بالنسبة لها الخسارة والأخطار أو على الأقل يعني كسادا في أعمالها التي لم تكن لها مطلقا أي صلة بتلك الأمور . إن كل هذا لايهمها في شيء ، وإنها لترفضه كله وما عليها إلا أن ترى كيف تتجاوزه وتتجنبه كما فعلت بالنسبة لكل عائق في طريقها . وإنها لاتحتمل فكرة أن أعمالها ومصالحها يمكن أن تكون لها صلة بذلك الأمر ، وإنها يمكن أن تتوقف على شيء خارج نطاق سلطانها تماما أو أنها لابد أن تقتسم الحظ السيء مع بعض الناس . « أسألني أنا بالطلبة الصرب » ... طرحت هذا السؤال على ذلك الظلام الشاحب الذي كان واقفا أمامها . وهاجت في نفسها إرادة ثائرة بأن تتخلص تخلصا كاملا وإلى الأبد من جميع العلاقات والاعتبارات بحيث لايكون لأي شخص حق في طلب أي شيء منها . كما لم تشعر من قبل بأنها مرتبطة بأي إنسان ولم تطلب مطلقا أي شيء تحت إسم هذه العلاقات .

وفجأة إعتدلت في سريرها . لا . إنها لن تسمح أبدا ولا في أية ظروف بأن تكون في الجانب الذي يخسر ، وإنها ستفعل كل شيء ولكنها لن تسمح بذلك على الاطلاق . وهمست بصوت عال : « لن يحدث ذلك مطلقا ! » وخلال ذلك ضربت بيدها البيتي الحاشية وكأنها تضغط لقرارها .

وفكرت الآنسة في أن تذهب بعد الساعة التاسعة الى البنك وأن تطلب مقابلة المدير باير لكي تتأكد منه عن مقدار صحة مخاوف رافو ولكي تسأله النصيحة عما يجب أن تفعل وكيف تتصرف حتى تتجنب كل خسارة وكل كارثة . ولكنها لم تقدر على الانتظار بل نهضت قبل الساعة التاسعة وخرجت إلى الشارع وتبعتها الأم بنظراتها دون أن تجرؤ على أن تقول شيئا . أما هي فقد أثارت تلك النظرات الدامعة الجزعة غضبها وتحديها لدرجة أنها صفقت الباب وراءها في حدة .

لم تذهب عن طريق شاطيء نهر ميلياتسكا بل عن طريق الجانب الداخلي الأيسر ، في ذلك الشارع الطويل الهادىء على الدوام وكأنه نائم ، المسمى

تيرازيا . وهنا لم يكن بمقدورها ان تلاحظ شيئا غير عادى على العابرين القلائل
والصباح فى سرايفو - حتى خلال الأوقات الشديدة الحرارة . له رائحة رطوبة
الصباح فى الجبال وفيه يسهل التنفس ويحسن السير . وهكذا وصلت بسرعة
إلى جسر ، تشوموريا » . وراء المبنى الابيض الكبير لبنك اوسيون على الضفة
الاخرى للنهر حينما وصل إلى اسماعها من هناك ، من تشموريا ، صياح السوقة
المشابه لما حدث بالأمس . وظهرت الصفوف الأولى المتظاهرين على الشاطئ ،
واختفت الانسة وراء إحدى الأشجار واستعدت للعودة إذا تحركت الجماهير
نحوها عن طريق الجسر او لمواصلة سيرها إلى البنك إذا توجهت بجانب
الشاطئ او بمحاذاته .

وكان لابد من حلول مثل هذه الايام حتى تخرج كل ما يعيش فى هذه
المدينة المبعثرة كمفقة من الحبوب - جزء منها على الجوانب المائلة المنحدرة
للتلال المحيطة وجزء اخر فى السهول الموجودة حول النهر - وكان لابد ان يحدث
شيء كهذا الذى حدث بالأمس او ربما يجرى حادث اقل ضخامة حتى ينكشف
كل ما يختفى بداخل هؤلاء الناس الذين يعملون او يضيعون الوقت . يبذرون او
يشعرون بالفقر فى الشوارع الملتوية المنحدرة التى تشبه الاخاديد وسرايفو
مثلها مثل كل مدينة شرقية لها فقراؤها . والمقصود بهم فى هذه الحالة رعاعها .
الذين يعيشون منذ عشرات السنين فى إنطواء وإنتشار والفة واضحة . ولكنهم
فى مثل هذه الظروف وحسب قوانين احد علوم الكيمياء الاجتماعية المجهولة
يتحدون فجأة ويثورون كبركان خامد وهم يلفظون لهيب ووحل احط الغوايات
والمطالب العليلة . إن هذه الكتلة من الصعاليك والمواطنين البسطاء الجائعين
يشكلها اناس يختلفون فى عقائدهم وعاداتهم وطريقة ملبسهم ولكنهم يتفقون فى
الخشونة التى تنطوى على خسة داخلية فطرية وحشية ويتفقون فى دناءة
غرائزهم . إن اتباع الأديان الثلاثة الرئيسية يكرهون بعضهم البعض من المهد
الى اللحد كراهية طائشة عميقة وينقلون هذه الكراهية الى عالم الاخرة الذى
يعدونه عظمة ونصرا لهم وهزيمة وعارا لجيرانهم من الاديان الأخرى ... إنهم
يولدون ويترعرعون ويموتون فى هذه الكراهية ... ذلك البغض الحقيقى الطبيعى
تجاه جاره المختلف عنه فى الدين . وغالبا ما يمر العمر كله ولا تسمح لهم الفرصة
للتعبير عن هذا البغض بصورته وفظاعته . ولكن يضطرب النظام الثابت للأمور
ويتوقف العقل والقانون لعدة ساعات او لعدة ايام نتيجة لاحدى ضخام الحوادث ،
عند ذلك يتدفق هؤلاء الغوغاء او جزء منهم - وقد وجدوا اخيرا الدافع المناسب -
على هذه المدينة المشهورة بمجاملتها المهذبة فى الحياة الاجتماعية وبالكلمات
المعسولة فى الحديث . وكل ذلك الحقد المكبوت لفترة طويلة والرغبات الخفية
للهدم والعنف الذى كان حتى هذا الحين يسيطر على المشاعر والافكار - كل ذلك

يظهر حينئذ على السطح ويسود كالنار التى بحثت طويلا ووجدت اخيرا طعامها
فى الشوارع . ويلفظ ويلدغ ويحطم كل شيء إلى ان تكبح جماحه قوة اخرى
تخصمه ، او الى ان يحترق وتنهك قواه نتيجة لهياجه . ثم ينسحب كامن اوى
تحت الذيل ويتسلل إلى الارواح والمنازل والشوارع حيث يعيش مرة اخرى
مختفيا ولايظهر إلا فى النظرات الشريرة والاقوال البذيئة والحركات القبيحة
إن الكراهية الغاضبة التى نرعاها منذ الاف السنين فى سرايفو مختلف
المؤسسات الدينية والتى تناسبها الظروف الاجتماعية والمناخية ويعضدها
التطور التاريخى . هذه الكراهية ظهرت الان وإنصبت على شوارع الجزء الحديث
من المدينة . الشوارع التى تم تشييدها لاغراض اخرى ومن اجل نظام اخر فى
التصرف والسلوك .

وقد يكون عدد الدهماء المتظاهرين مائتين من المسلمين والكاثوليك ومعظمهم
يرتدون ملابس رثة ويبدو عليهم سوء التغذية واثر البؤس او فساد الخلق فى
المظهر والسلوك . وكانوا يهتفون بلا نظام . ويسقط ' بعيش ' حسب توجيهات
شخص يرتدى ملابس افضل منهم قليلا ويتقدمهم ويشبه الى حد كبير احد رجال
البوليس الذين يرتدون الزى المدنى . وقد حاولوا ايضا ان يغنوا النشيد الوطنى ،
الكن غناء الاصوات الخشنة غير المدربة تشابك وتقطع . وكان هناك فى المقدمة
رجلان يحملان صورة الامبراطور ، فرانس جوزيف ، . وهى إحدى الصور الحلوة
المؤطرة التى من الواضح انها مأخوذة من احدى المصالح . وكان هذان الرجلان
يرتديان ملابس ممزقة وليهما جبهة ضيقة ونظرات مكتئبة . وبحكم تعودهما على
العيش والعمل فى إحدى الضواحى فى ظلال البؤس كان يتملكهما الاضطراب
والتفاخر الوقح لانهما يحملان صورة الامبراطور خلال الشوارع الرئيسية للمدينة
ونتيجة للعجلة والارتباك مَلّا الصورة فجعلا راسها متجهة إلى اسفل . ولكن
بحكم تعودهما على اعمال اخرى كان يمسكانها مقلوبة بايديهما الضخمة كما يفعل
الزوج بحبيبته . وهكذا كانا يسيران فى بطء كانهما فى موكب وهما يلقيان
النظرات الخشبية من تحت القبعات المتقلصة وقد إرتسم على وجهيهما تعبير
الوقاحة الفجة وكانهما شخصان يعلمان علم اليقين من هما وماهما . ولكنهما
يعرفان كذلك انه ماعاد لاحد يستطيع الآن ان يفعل شيئا . إن منظر الرجل المتقدم
فى السن ذى السوالف البيضاء والصلعة التى تجعل ارتفاع الجبهة يمتد إلى مالا
نهاية . وهو يرتدى رداء ابيض به ازرار ذهبية وشرائط حمراء وعليه اخر من
النجوم والاوسمة ووجهه مريح وروعة . كان يتميز بصورة غريبة من كل واحد من
هذين المتشردين البائسين من اهالى سرايفو ذوى المظهر والسلوك البائس وكانا
يحملان هذه الصورة وقد إلتصقا بجانب إلتصاقا شديدا كانهما اطار اخر من
الاحياء .

وبعد قليل من التردد والفوضى التي نتج خلالهما أحد الأشخاص هذين الشخصين إلى أن يديرا الصورة كما ينبغي ـ تحرك الموكب بمحاذاة الشاطئ ، وانتظرت الآنسة حتى ابتعدوا كثيرا خلف مدرستها القديمة ثم توجهت عبر الجسر إلى البنك .

والمبنى الأبيض الذي يتسم بحسن الذوق الخاص ببنك أوبيون والموجود على ناصية جسر تشوموريا تحمل واجهته ثمانية عشر مترا . وفي الدور الأرضي توجد المكاتب التي تم اليوم إسدال جميع ستائرها . ويوجد فوقه طابقا بهما شقتان كبيرتان تعدان من أعلى المساكن في سراييفو ، ويسكن بهما منذ عدة سنوات أحد المحامين وأحد الأطباء . ويوجد مكتب المدير داخل المبنى وله مدخل خاص في شارع قصير ضيق من الخلف . ولم يكن يدخل الى المقهى من الباب الرئيسي بجوار النافذة إلا الغرباء والزوار الجدد . أما جميع الأصدقاء والمعارف فكانوا يدخلون من الباب الفرعي من هذا الشارع الصغير الذي ليس له إسم . ثم يدخلون من الردهة الضيقة مباشرة إلى مكتب المدير الواسع الذي تقل فيه الإضاءة ويشعر المرء فيه بقليل من البرودة ويشتعل فيه الضوء طوال اليوم . إلا أن باير أعطى هذا المكان الضخم مظهرا بهيجا خاصا كما كان يفعل مع كل ما يتصل به مهما صغر شأنه . وعلى الجدران كانت توجد بعض لوحات ذات ألوان حية تبين مناظر طبيعية من الغابات ومناظر للصيد . وجميع الصور متساوية في الحجم ويبدو أنها قد رسمت بمعرفة رسام واحد . وكان الجو اللطيف يسود هذا المكان في الصيف أما في الشتاء فقد كانت القطع الكبيرة من خشب الزان تشتعل في المدفأة الخزفية الضخمة . وكانت الأرض كلها مغطاة ببساط رمادي مثبت بالمسامير وتنتشر عليه قطع السجاد البوسنوية عند المدخل وقطع السجاد الفارسية بالداخل حول المكتب الواسع الذي لم يكن تسوده الفوضى أو الخلو البارد من الأثاث كمكاتب رجال البنوك . فهناك صورة فوتوغرافية لزوجته وهي إمرأة سوداء الماقي ويجسدها نمش . وهناك صورة لابنهما وهو غلام جميل يرتدي زي مدرسته الداخلية . ثم علاوة على التمثال البرونزي لوعل توجد زهرية من الزجاج الأخضر يكاد تتواجد طوال العام زهور ونباتات خضراء . وفي الخلف على الأرفف الفاخرة كانت تلمع الأربطة الذهبية للكتب المصطفة في صفوف مديدة .

والجو في المكتب رطب معتم كأنه كنيسة . وذبلت الزهور الموجودة في زهرية خضراء ولم يتم تغييرها . والبنك مغلق اليوم مثل جميع المصالح والمحال الأخرى إعلانا للحداد . ولم يحضر المدير إلا ليضع لحظات قبل أن يذهب إلى الكنيسة حيث تقام صلاة جنائزية على ضحايا إغتيال الأمس وكان واقفا في وضع الشخص الذي يستعد للخروج ويرتدي « ردنجوتا » أسود . وأعطته الباقة

البيضاء الكبيرة والشريط الأسود مظهرا رائعا غير مألوف وبحركات ودية تتميز بها مظهره هذا عرض عليها الجلوس وظل مستندا على المكتب وقد شبك يديه إلى صدره . وقالت له الآنسة في إقتضاب ما سمعته من راقو وأضافت اليه دينها على المنزل والأملاك قائلة

ـ إنك تعلم انه لم تكن لي أية صلة مطلقا بهذه الأمور ودائما ما كنت بعيدة . سجلت الجمعيات الصربية إسمي في القائمة السوداء وهاجمتني الصحف أيضا

وعض باير شفته العليا مما يعد أكبر علامة يمكن ملاحظتها لديها على فروغ صبره .

ـ وقد جئت الآن لكي أسأل سيادتك ماذا ينبغي أن أفعل ! إنني مستعدة لعمل أي شيء وإذا إحتاج الأمر أن أنشر بيانا أو شيئا من هذا القبيل أو أن أقدم إعانة خيرية ... إنني شخصيا لا أعلم ..

وهنا أنزل باير يديه ودنا منها خطوة وإنحنى على المقعد الذي تجلس عليه قائلا

ـ إسمعي يا آنسة .. في وقت من الأوقات كان يدعوها بإسمها الرسمي . ولكن فيما بعد ذلك حينما إضطر بسبب تصرفاتها العنيدة وأعمالها المتعلقة بالربا لأن يؤنبها كان يخاطبها بقوله « يا آنسة » ولم تلحظ انه في السنوات الأخيرة لم يكن يدعوها إلا بهذا الاسم وقد عمتها غوايتها التي لم تسمح لها بأن ترى أشياء أخرى أكثر ضخامة . وواصل باير حديثه قائلا

ـ إسمعي يا آنسة . يبدو لي أن كونفوزتي هذا قد أخافك أكثر مما ينبغي . إنني أعلم أن كل هذا الذي يحدث عسير وليس لطيفا وستشتد صعوبته على الناس أجمعين وخاصة على الصرب . ولكن لماذا تكونين أنت الضحية وتنفصلين عن بني وطنك ولم يطلب منك أحد ذلك . ولو حتى طلب منك ذلك . فأنت إبنة التاجر أوبرن ولاينبغي أن تفعلي ذلك كما أنه هو أيضا بالتأكيد لم يكن ليفعل لو كان حيا . إنك صربية وليس من العار أن تكوني كذلك بل على العكس ونصيحتي لك ألا تظهري شيئا ولا حتى ولاءك . ولا تجعلي هؤلاء الرعاع يشيرون جزعك واضطرابك حتى تفعلي ما قد تضطرين الى الخجل منه والندم عليه بعد ذلك ، ولن يستمر هؤلاء في هياجهم بالأزقة إلى الأبد . إبق هذه الأيام في منزلك وإذا إحتجت إلى شيء فتعالي وإستدعيني فنتشاور في الأمر .

كان باير يتكلم بصوت منخفض وكانت عيناه تطرفان في إرتباك بسيط .
وخرجت الآنسة غير راضية في خطوات غير ثابتة وإتجهت إلى متجرها . ولم يكن من عادتها أن تتأمل الشارع والناس حولها وأن تضع في إعتبارها ملاحظته ، ويبدو أنها في هذه المرة كانت تراقب كل شيء بدقة بالغة ... المحال مغلقة . إلا أن ذلك لم يعط الشوارع مظهر الأعياد وكان عدد العابرين قليلا للغاية

والهدوء كبيرا ، وبدت الشوارع وكأنما قامت خلال الليل إحدى العواصف الغربية بتنظيفها ومسحها وتركت وراءها فراغا وخوفا من إعصار جديد . وهناك اعلام سوداء جديدة تتدلى من الأسطح والنوافذ ولم يمس حانوتها الموجود في أول سوق الفرو الكبير . والباب الحديدي الضخم مغلق كما في المحال الأخرى وعليه قضيبان حديديان على شكل صليب . وعلى الفور واصلت سيرها في أزقة فقيرة تقريبا متجهة إلى المدينة ، ووجدت فيسو في الفناء الضيق المنحدر الذي كانت تفوح منه رائحة الزهور ويتلألأ من نظافة الرصيف وجدران المنازل البيضاء وتوجد في نهاية الفناء على الرصيف مكرونة منتشرة على مفارش بيضاء . وكان فيسو يرتدي ثيابا كاملة فيما عدا أنه كان يلبس في قدميه جوربا أبيض وخفا مسطحا ويجلس على حجر وفي يده عصا يلاحظ عدم إقتراب الدجاج من المكرونة المنثورة . وقد أثار غضب الأنسة هدوء هذه الحياة الوادعة التي لم يكن بها الآن همومها ومخاوفها . قالت له :

- لقد حضرت يافيسو لكي نتشاور ونتفق عما سنفعل وكيف سنتصرف بخصوص المتجر .

- إنني أيضا كنت أستعد للحضور إليك لكي أسأل عنك وقد أغلقت الحانوت حسب الأوامر كما فعل الآخرون أيضا . ولنرى بعد ذلك ماذا سيحدث !

- كيف لنرى ؟ ألا ترى أن الغوغاء قد هبوا لكي يدمروا منازل وحوانيت الصرب ؟ لابد من أن نفعل شيئا .

- ماذا في مقدورنا أن نفعله ؟

- يمكننا أن نضع بيرقا أسود . فإني أرى أنهم يضعون أعلاما سوداء على الدكاكين الأخرى .

فقال فيسو مترددا :

- يمكننا ذلك ...

- يمكننا ويجب علينا .

- فلننتظر لنرى ماذا سيفعل الصرب الآخرون والتجار ونتصرف بناء على ذلك

- فيما يعنيني الآخرون ؟ إن الآخرين يمكنهم إذا شاؤوا أن يغامروا كما أرادوا . أما أنا فلن أسمح بأن يحرقوا دكاني وأن ينهبوا منزلي .

- هدئي من روعك يارايكا فليس دكاننا هو الوحيد . إننا سنفعل ما يفعله الناس وما سيحدث للآخرين سيحدث لنا أيضا .

- أي ناس تقصد ؟ إنني لا أعيش من هذا الكون أو من هؤلاء الناس . بل أعيش من عملي وعندما أهلك فلن يحضر ليسألني عن حالي وعن مقدرتي .

كانت تتكلم بسرعة وفي غضب مستعر مكبوت .

- أنني يارايكا لن أكون بمعزل عن الناس بل سأفعل ما سيفعله الآخرون .

نظرت إليه حتى تراه بطريقة أفضل وهي مندهشة . كان قصير القامة منقبض الوجه كما كان دائما وكان ينتعل خفا مسطحا ويمسك بعصا في يده ولكن علاوة على ذلك فقد بدا على شيء من الهدوء الرزين والعزيمة القوية . كان يقف معتدلا أكثر من المعتاد وكأنه يرتدي هيكلا حديديا على هذا الجسم الضعيف القصير .

وانتابها إضطراب وغضب نتيجة لرباطة الجأش المفاجئة من جانب هذا الرجل الضعيف ونتيجة لعدم مبالاته العنيدة . وتدفقت الكلمات الحادة الغاضبة على فمها واوقفت كل منها الأخرى نتيجة لتصادمها ، وفي نفس الوقت الذي أرادت فيه أن تقول له في حزم أنها ستتصرف حسبما يتراءى لها وبوحي من مصالحها وأنه لايهمها سلوك التجار الصرب على الاطلاق . سمعت من أعلى المنزل صوتا نسائيا حادا يقول :

- هش ، قتلكم الله ! هش ، اللهم أهلكهم ! أتعسك الله يافيسو ألا ترى أن الدجاج قد أكل المكرونة . هش ، هش !

كانت ستوكا ، زوجة فيسو ، تقف على باب المنزل وهي قصيرة القامة مثله وقد تحزمت بمريلة بيضاء وعلا الغبار يديها ولكنها كانت فيما عدا ذلك نظيفة وملابسها منسقة . وراحت تدفع الدجاج الذي إستغل بالفعل حديث فيسو فاقترب وشرع يلتقط المكرونة من على المفرش وهي تلوح بكلتي يديها . وعلى الفور لوح فيسو أيضا عدة مرات بعصاه فيزول الدجاج وراء المنزل واقتربت ستوكا لكي تصافح وتكلم رايكا . وبهذا الاضطراب البسيط في شئون المنزل الصغير الخاص بالزوجين القصيرين انتهى بوجه عام حديث الأنسة وفيسو . فودعت باقتضاب وفي شرود وقد عزمت وقررت ألا تنتظر من هذا الرجل شيئا في الظروف الحاضرة وأن تفعل كل شيء بمفردها وبمقدرتها وعقلها .

وعندما تتحرك إمرأة مثلها في عصبية وعناد في إتجاه ما فليس هناك شيء يصعب عليها أو يستحيل بالنسبة لها ، وبالرغم من أن جميع المحال كانت مغلقة والناس في إضطراب وإنتشار فإن الأنسة وجدت كل مايحتاج إليه حتى وقت الظهيرة وتم تعليق الأعلام السوداء على منزلها وعلى متجرها . إنها لم تكن أول من علقها ولكنها ستكون آخر من يخلعها .

الفصـــــل الخامـــــس

فى حياة كل إنسان توجد أمور كثيرة تصمت عنها ذكرياته فى أغلب الأحيان أو لا تتكلم عنها إلا كلاما موجزا ، ومثل هذا الأمر كانت تمثله فى حياة رافيكا هذه السنوات الأربع للحرب . فقد كانت هذه السنوات الأربع تشبه الحلم الغريب النابض مصحوبا بمشاعر للانطلاق والفزع وأصبح فى النهاية مظلما نتيجة للصعاب والخسائر والمرارة البالغة التى لن تتركها إلى الأبد .

فقد تم فى إحتفال مهيب نقل ولى العهد المقتول وزوجته إلى محطة السكة الحديدية . وتم إعتقال الكثيرين وجرت مختلف أعمال العنف ، ودوت الصحف المحلية فى طبعات خاصة وعناوين ضخمة وأرعدت مواكب المتحمسين أو الذين ليسوا فى وعيهم بصيحات وهتافات لم يكونوا هم أنفسهم يفهمونها فهما جيدا . وبعد تلك الأيام الحرجة غير المألوفة ظهر فجأة فى كل مكان وفى كل شىء هدوء عجيب كذلك الهدوء الذى يأتى بعد الانفجار الشديد . ولم يكن ذلك إنقطاعا عاديا للهرج والحوادث المدوية المثيرة والحركات الصاخبة للجماهير بل كان هدوءا إيجابيا يصيخ الناس فيه السمع بانتباه بالغ وهم ينتظرون ويتوقعون إنفجارات جديدة بينما لم يتلاش من آذانهم صدى الانفجارات السابقة تلاشيا تاما . لقد كان هذا هدوءا مدبرا يحتاج إليه أحد الأشخاص .. هدوءا لم يصدقه أى إنسان صدقا تاما بل كان كل شخص ينصت وهو يجتهد فى أن يخمن نهايته من الأصوات الخافتة التى تختفى هناك تحته .

وقد وجدت الآنسة فى هذا الهدوء ما يناسب طبيعتها وميولها ولم تفكر فيما يخفى ، ولم تتساءل عما ينتظر المدينة والشعب والعالم كله فى نهاية . فأهم شىء لديها هو أنه قد إختفت الضوضاء والفوضى والاضطرابات العنيفة غير المنظمة من جانب الجماهير . والمهم أيضا أنه فى مقدورها أن تفكر فى أعمالها وأن تحسب وترتب وتسوى الأعمال الجارية وأن تعد خطة للأعمال المقبلة . وفى الحقيقة تملك التجار القلق وساد البنوك التحفظ والتجمد والصمت وكأنهم يقيمون الطقوس الدينية باستمرار . وعلى وجه العموم ساد الجميع القلق والاضطراب . وكنت لاترى إلا وجوها متجهمة [illegible] باكية ، وكانت تلك هى وجوه وعيون الحرب . ولكن الآنسة لم تكن [illegible] ذلك ولاتضع فى إعتبارها شيئا منه . إنها تعلم أنه لم يعد هناك

رصاص يطلق ولم يعد هناك صياح فى الشوارع ولم تعد تدمر المنازل أو المتاجر ولم يتحقق أى خوف من مخاوفها فلم يمس منزلها أو متجرها سوء ولم يعنفها أحد وهذا يكفيها . وكل ماعدا ذلك لايهمها من قريب أو بعيد ، ولايثير حنقها إلا أنه لايمكنها أن تجد أحدا يشاركها مشاركة كاملة ذلك الرضى والسرور وعدم المبالاة والرغبة فى العمل . فالجميع نظراتهم شاردة وكلماتهم بطيئة ، وحتى رافو كونفورتى لم يفق بعد . فكلما سألته عن شىء أجاب عليها إجابة غير محددة وكلما اقترحت عليه أمرا أجله فى كلمات مبهمة قائلا

- حسنا يا آنسة ولكن لننتظر قليلا حتى يهدأ هذا ولنرى ماذا سيحدث ..

ومن البين أنه كان يقصد قصدا آخر .

وهكذا مضى شهر على وجه التقريب . ثم تحطم هذا الهدوء فعلا كما يحدث فى الفرقة الموسيقية الضخمة وتحول إلى حركة عامة وجلبة عظيمة شديدة . إبتدأت الصحف مرعدة ثم تحركت الغوغاء والحوادث بطريقة لم يسبق لها مثيل حتى ذلك الحين وبأشكال جديدة وفى أحجام منقطعة النظير وقرعت الأجراس ودوى صوت الموسيقى العسكرية وانطلقت المدافع وماقتىء الهواء يرتعش لسبب من الأسباب . واتحد هذا الارتياح مع القلق الذى كان يشمل بشكل خفى أو صريح جميع أهالى هذه المدينة التعسة الحظ . وبدأ من جديد صدور طبعات خاصة من الصحف يكاد يصل حجم أحرفها إلى حجم أصبع الابهام .

ولم تتوال الأحداث بل تصادمت وتقاقزت . فإنذار موجه إلى صربيا وإعلان للحرب ثم دخول جميع القوى الكبرى فى أوروبا - تقريبا - الحرب ، الواحدة تلو الأخرى . وجنبا إلى جنب مع كل هذا زاد ذلك الارتعاش للجو والاضطراب العام فى نفوس الناس لأسباب متنوعة .

ولم تستطع الآنسة وهى فى حيرة من أمرها أن تحسن التصرف أو أن تتمالك نفسها فذهبت إلى « رافو كونفورتى » . ولدهشتها وجدته مبتهجا موفور النشاط حسن التصرف . إنه لم ينتظر ليرى ماذا سيحدث . فما كان ينبغى أن يحدث حدث بالفعل . وليس لديه إلا نصيحة واحدة وشعار واحد وهو الشراء . فمن اشترى بأسرع مايكون وباع بأبطء مايمكن فقد فهم هذا الزمان . ومثل ذلك الشخص يربح ويظل محتفظا بمركزه فى جميع التغيرات . .

وقالت متسائلة بصوت ضعيف وهي تنظر في خوف إلى رافو الذي كان قد نما واصبح شخصا قادرا جديدا :

- ماذا أشتري ؟

- إشتري كل شيء يا آنسة . تبتاعين اليوم قرميدا وليبق لديك شهرا او شهرين ثم تبيعينه مع ربح يبلغ ثمانين في المائة .

وكان رافو يشتري فعلا . ومن بين ما كان يشتريه القرميد ومالذات من مصنع إليشا في كوشيفو الموجود بجانب المدافن مباشرة . واشتركت الآنسة إشتراكا متواضعا مستترا مع رافو في بعض الأعمال البسيطة . وبالتدريج اصبحت اكثر تحررا وجراة . وكان التربص بالأعمال وإصدار القرارات في بطء ومشقة وإعادة البيع والخوف الذي يصاحب جميع أعمال التهريب ويتساوى مقداره عند الخسارة وعند الكسب . كل هذا كان يملا وقتها ويشغل إنتباهها باكمله . وكانت لا تلاحظ الأحداث الضخمة والتغيرات الكبيرة التي تحدث في كل مكان بالعالم - وهذا ايضا امام عينيها - إلا ملاحظة سطحية غير واضحة وكانها تراها خلال النوم .

وكان العالم يرتعد من الحركات الضخمة للجماهير ومن الاشتباكات العسكرية الأولى ومن أخبار الصحف التي كانت اشبه بالصيحات . ومن التهديدات التي لا تحقق والانتصارات غير المتوقعة . وهنا في سراييفو نفسها وبجوارها كانت تحدث أمور منقطعة النظير لم تحدث من قبل . كانت الحياة تجري سريعة وفيرة والموت يحدث في الخفاء والعلن . وكانت المدينة مكتظة بالجنود الاحتياط ، بعضهم يرتدي حللا قروية والآخرون غارقون في العرق وقد ارتدوا ازياءهم العسكرية الزرقاء والرمادية واحذيتهم العسكرية الجديدة . كانت هناك مشاجرات واغاني بلا سرور حقيقي وصياح وشتائم وعرقي ودخان ورغبة في أن ينسى الإنسان نفسه . وكانت هناك فواكه وتنور مطبخ قد وطاها الناس ، وتبذير وبخل في كل شيء في جميع النواحي وجنبا الى جنب مع ذلك كانت هناك إحتياجات ضخمة ومعاناة من كل نوع . وتم إعتقال الصرب في كل مكان مرة أخرى وقادوهم إلى سجون الميت على وجه السرعة . وفي الوقت الحالي لم يفعلوا ذلك بالشباب والطلبة فحسب بل وباعيان التجار وبالهادئين من موظفي الحكومة . ولم يكن ذلك عدلا بمقتضى قانون يمكن إدراكه وفهمه بل كان يتم بالعنف وبلا تمييز وبالحظ كانه عدوى .

وكل هذا الذي اخاف الناس واقلقهم وصل اخيرا إلى الآنسة ايضا

واوقعها في إضطراب للحظات ، وطرد من راسها الأفكار الخاصة بالأعمال ثم تلاشى مرة ثانية بعد إنصافه إلى نهاية وعيها بفعل جهد إرادتها . وكل ماكان بالنسبة للآخرين جوهر ومضمون الحياة لم يكن بالنسبة لها إلا عوائق للحياة الهادئة او العمل المنظم . وكانت الأخبار والأحاديث الخاصة بالاعتقالات ومطاردات الصرب ، التي لم تنقطع مطلقا ، تثير غضبها بشكل خاص . وكان ذلك يطاردها حتى في المنزل . وكانت والدتها ايضا تحدثها حديثا لا ينقطع عنه وقد إحمرت مقلتاها وتورمت شفتاها من البكاء لانه حتى منازل اقرب اقربائها لم تسلم من الأضرار ، فهناك منازل قد تم إعتقال جميع رجالها الكبار . وتذهب الام لتقديم العزاء لهم وتعود محطمة وكانها عائدة من جنازة دفن وتقص التفاصيل الخاصة بتصرفات رجال البوليس عند إجراء التفتيش والاعتقال ، فبعضهم كان على شيء من الوقاحة والقسوة والبعض الآخر كان على شيء من الأدب والمجاملة والرزانة . وتحكي لها اقوالهم وإجاباتهم على اسئلتهم وما حمله المعتقل معه وما قاله عند رحيله إلى السجن .

وكانت الآنسة تستمع إلى امها في نفور وضجر وتتمنى في نفسها ان تسكت او ان تغير موضوع الحديث ولكن حياء داخليا ونوعا من الحيرة والذهول كان يمنعها من ان تقاطعها . اما العجوز فكانت تهمس من خلال بكائها ولايمكنها ان تتوقف عن الرواية التي اصبحت ضرورة مؤلمة لامفر منها . فمثلا تعود من الزيارة التي قامت بها الى جارتهم ليشا ارملة السيد لوكا بالفوفتيش فلا تقدر على تمالك اعصابها لفترة طويلة بل تجلس هكذا بملابسها وتتدفق الكلمات والدموع من تلقاء نفسها :

- اه . يالتعاستك ياليشا . اهذا هو جزاؤها .. (اللهم احفظنا !) حتى ياخذ الأعداء وحيدها وتحزن عليه وقد تقدم بها العمر . اه . يالتعاستها ! قصت على كل ماحدث وكيف حدث . قالت لى انها رافقته حتى باب الفناء وعندما اصبح عند الباب إستدار وقال لها : لاتبك ياامي حتى لايفرح الأعداء ولاتستجدي اى إنسان او تستعطفي احدا ، إنني اعلم انني سستقيم ولن يحدث لي شيء .. وقالت ان قلبها إنقبض وارادت ان تبتسم حتى يتذكرها بهذه الصورة ونظرت اليه فلم تره ، وعندما اخذوه بدا لها انه لايزال يقف على العتبة وهو يبتسم ويحدثها بشيء .

وكانت الآنسة تنهض في فروغ صبر وتذهب وكانها متجهة إلى عمل من الأعمال . ومع كل يوم يتزايد بغضها لهذه القصص عن الآلام والبطولات

ويظهر لها كل شيء مبالغا فيه ومملا ومضرا . ولكن ليست لديها الشجاعة لأن تقول بصراحة . ولم يكن هذا يحدث إلا نادرا . ففي جميع الأمور الأخرى كانت لاتحسب لأمها أى حساب ولكن فى هذه الحالة . كما حدث أيضا فى موضوع الشمادين فى حينه ، لم تجرؤ على معارضتها معارضة صريحة ودبرت ألا تكون موجودة بالمنزل عندما تزورها النسوة اللاتى لهن شخص مقبوض عليه لأنه حينئذ لن تكون هناك نهاية لهذه الأحاديث المفعمة بالبكاء والتنهدات التى كانت تعدها مضيعة للوقت وغير لائقة . وكانت هذه الأمور تثير لديها مشاعر غريبة مختلطة للاحتقار والملل والاثم وذلك لأنها كانت تكره كرها خالصا ذلك الذى تسميه « بالأحاديث الجوفاء » . وكانت تبغض أكثر القهوة والعرقى اللذين يقدمان بانتظام خلال تلك الأحاديث ، وأشد ما كانت تكرهه هى تلك المشاعر المتدفقة الرائعة المتحمسة التى لم يكن بمقدورها أن تشترك فيها .

وفى مثل هذه الظروف الاستثنائية كان من المستحيل منع هذه الزيارات وإغلاق باب المنزل فى وجوههم ، ولم تجد الآنسة حتى المقدرة على أن تفعل ذلك خاصة حين كان الأمر يتعلق بنسوة من أقرب العائلات لها .

وغالبا ما كانت تزورهم وتختلف إليهم « ديقنا » . وهى إمرأة شابة من أقرب قريباتها وتماثلها فى السن . ومتزوجة من الطبيب المعروف « يوسفوفيتش » . وقد إعتقلوا زوجها وأشبينها . وكانت نحيفة على الدوام . وفى خلال هذه الأسابيع العدة يبست وذبلت وأصبحت تتحرك وكأنها شخصية من شخصيات المآسى . بشعرها الأسود الثقيل المهمل فوق عينيها المحمرتين وردائها الأسود ، لأنها لاتزال حزينة على أمها . وكانت تلقى بالتحية على رايكا وكأنها لاترى إلى حد ما وتجلس بجانب والدتها دون أن تتحدث معها كثيرا وتفيض عبراتها فحسب بلا إنقطاع وهى تمسحها . ومن حين لآخر تدير رأسها جانبا . وفكرت فى جميع الوسائل الممكنة لكى تواسيها وتهدىء من روعها ، أما الآنسة فكانت تتألم فى نفسها لأنها لاتقدر على أن تجد كلمة أو ابتسامة .

وعندما تنصرف « ديقنا » لاتنطق إلا ببضع كلمات جافة وتحاول أن تدير الحديث وتحوله إلى أمر آخر فتقول فى برود وعدم مهارة

– إننى لم أر فى حياتى أحدا يذرف كل هذه الدموع

– يابنيتى إنها تبكى على إثنين ، على رجلها وعلى أشبينها الذى كان رجلا رائعا .

وتحتار الآنسة ولاتجد الكلمات وكان الحديث يدور بلغة أجنبية .

وما أن ترحل « ديقنا » حتى تحضر الخالة « جوسباقا » ويتم ثانية إعداد القهوة ويبدأ مرة أخرى الحديث عن الاعتقالات والمآسى . ولكن الخالة جوسباقا ليست إلا تناقضا حقيقيا مع ديقنا . فهى لاتبكى ولاتحزن وهى على هذا النحو من القوة والحزم . ولكنها تتحدث وتتكلم بصوت عال بدون مبالاة . وقد تم فى اليوم الأول بعد الاغتيال إعتقال ابنها الذى يدرس الصيدلة فى مدينة براغ والذى برز بعمله بين الشباب القومى الثورى ، وبعد ذلك بقليل اعتقل زوجها أيضا ـ وهو موظف حكومى كبير ـ من منصبه رغم أنه كان غاية فى الهدوء والانطواء ولا أهمية له ، وهو الآن ملازم المنزل ميتا أكثر منه حيا . ولايمكنها مطلقا أن تدرك كيف أمكن حدوث ذلك له هو الذى لم يتدخل فى أى شىء على الاطلاق

والخالة جوسباقا شجاعة إلى حد التهور وتفخر أن إبنها فى السجن وتقول لكل إنسان يريد أن يسمعها أن الشعب الصربى ليس لقمة حتى يأكلها أحد كطعام إفطاره ، وهى حزينة على زوجها وتشكوه لأنه واهى العزيمة ويجلس باستمرار فى المنزل وعندما يتجرأ ويخرج ، ويسير مطرق الرأس وكأنه بائس .

وهاهى صباح اليوم تقول له : لماذا تجلس . فلتك الله . فى المنزل كالمرأة . أخرج بين الرجال . ولكن أرجو لاتمش بهذا الوجه فى الزقاق . فما أن يراك هؤلاء الدهماء بوجهك الشاحب المكتئب حتى يفهموا ويدركوا أنك تخاف لأنك صربى وستلقى حتفك . بل إرفع رأسك واجعل وجهك باسما وامض فى حرية بين هؤلاء الرعاع !

وتطيل الخالة جوسباقا حديثها السريع الحاد وتذكر فيه أيضا السلطات النمساوية والصرب الخاملين . أما الآنسة فتختلق عذرا وتخرج إلى المدينة . وعلى العموم فالخالة جوسباقا لاتخاطبها ولاتكلمها ولاتنظر إليها . ولكنها تشعر أن كل حديث بينهما لابد أن يتطور تطورا غير لطيف (فالخالة جوسباقا تقول عندما يجرى حديث عن رايكا وعن أعمالها . لقد تملك الشيطان منها .)

ومثل هذه المضايقات كانت توجد فى الشارع أيضا . فمهما كان الانسان شارد الذهن ومهما كانت أفكاره مشغولة بالأعمال وعيناه مثبتتين فى الأرض فإنه يستطيع أن يرى أحد أولئك الذين يمضون فى الشارع وقد تم القبض عليه ، وإذا لم تره أنت فإنه يراك . لقد حدث ذلك للآنسة ، فما أن

خرجت من المنزل وعبرت الجسر وتوجهت إلى الرصيف الواسع نحو وسط المدينة . حتى برزت من وراء احدى النواصي مجموعة من عشرة مواطنين يقودهم احد الحراس وإثنان من الجنود الاحتياط يرتديان ازياء عسكرية جديدة . فاسرعت الآنسة الخطى وادارت رأسها إلى الجهة الاخرى حتى لا تلمح احدا تعرفه من بين المعتقلين ، ومرت المواكب الصغيرة ولكن فجأة هدر من الصف الأخير صوت شاب مرح قائلا :

– سلام عليك ياراييكا !

فنظرت اليه شزرا . كان يصيح بهذا قريبها قسطنطين يوسفوفيتش الطالب الاشقر الطويل الساقين الذى يدرس الهندسة بانفه المقطب ورأسه العارية وقد فتح قميصه وظهرت رقبته الملفوحة . إنه شاب ساخر تتذكره جيدا وهو لايزال فى المدرسة الثانوية وكان مشهورا بانه احسن رياضى ويعرف الرياضيات معرفة ممتازة . ولم تنظر الا إلى وجهه الباسم وإستدارت بسرعة إلى الجهة الاخرى ولكن دوى صوته وراءها مرة أخرى ساخرا ضاحكا :

– سلام عليك ، سلام عليك !

مثل هذه الأشياء تفسد على الانسان حياته فى كل خطوة وتعوق اعماله .

هكذا كانت الآنسة تفكر – وفى نفس الوقت بلا ارتباط بكل فكرة من افكارها – يسرى ببدنها خوف بارد من السلطات ومن العقاب لاشتراكها إشتراكا سيئا فى أعمال إجرامية غامضة . وكانت تفكر فى اقاربها من عائلة يوسفوفيتش الذين يبدو وكأنهم قد اقسموا ان يذهبوا جميعا الى الأشغال الشاقة وان يجروا معهم الآخرين . وتفكر فى كل تلك الاعتقالات والمحن التى يتابعها البعض بالدموع والآخرون بالابتسامات . واطرقت رأسها وخطت خطوات نشيطة إلى أول شارع على اليسار حتى لاترى ولا تسمع احدا وحتى لاتستجيب لأحد والا تسمح بأن تفسد حياتها وتعرقل أعمالها الأحداث والناس الذين لم يكن ولن يكون لهم صلة مشتركة بها ولكن إصدار مثل هذا القرار اسهل من تنفيذه . وتتابعت حولها فى كل تلك الاعتقالات لبنى وطنها ومعارفها واقاربها وتلك الدموع التى ترافقها ، وكانت تدافع عن نفسها منها ومن كل صلة بها كانت تهرب وتختفى وتجتهد أن تتجنب المقابلات والاحاديث الغريبة أو كانت تواجهها بصمت لا إكتراث فيه . وحينما لم يكن ذلك ممكنا كانت تتصرف فى صراحة وترفض فى جفاء كل صلة وكل مساعدة ولو حتى لأقرب أقربائها .

وفى خريف عام ١٩١٤ حينما بدأ الجيش الصربى يقترب من سرايفو صدرت الاوامر بتهجير وإخلاء هذه المدينة المحصنة وتم نقل معظم المواطنين إلى الريف ، ولم يقدر على البقاء فى المدينة إلا اولئك الذين كانوا يعملون فى المصالح الحكومية او فى اعمال يحتاج اليها الجيش ، وافلحت الآنسة فى ان تظل بسرايفو مع امها .

وبمجرد أن طلبت الحكومة أول قرض حربى سجلت الآنسة بإسمها مبلغا كبيرا من المال بصورة ملفتة للانظار ، وابرزت الصحافة المحلية بشكل خاص إسمها لكى تقدم مثلا للآخرين . واستغلت صحيفة ، اليوميات الكرواتية ، الفرصة لأن تؤكد انه علاوة على المثقفين الصرب المضللين المغرر بهم يوجد ايضا امثال هؤلاء المواطنين الاوفياء الذين يتبعون العقيدة اليونانية الشرقية . ولكن لم يكتب فى اى مكان ان الآنسة تخلصت على الفور بطريقة غاية فى المهارة من مستندات القرض المسجل وبشروط مناسبة للغاية .

وفيما عدا ذلك ، كانت تنتهز كل فرصة لأن تظهر على الملأ ولاءها فتشترى الاعلام الصغيرة والعلامات المختلفة للقوى المركزية وتبرزها على منزلها ، وتشترى صور حكامهم وقواد جيوشهم مراعية الا يكون ذلك غالى الثمن وان يكون ملفتا للانظار .

وفى نفس الوقت تشعبت أعمالها ونمت . فقد مضت الشهور الاولى للإرتباك والاضطرابات الضخمة التى كان المرء يعيش فيها بلا حدود وبلاحساب . ومرت فترة طويلة منذ عام ١٩١٤ وإتضح الآن لكل إنسان ان الحرب لن تكون يسيرة أو قصيرة أو مرحة هكذا . كما بدأ التعقل فى الايام الاولى . وبدأت الحياة الاقتصادية تتكيف وتتناسب وفقا لهذا . وكان التفوق العظيم على الآخرين من نصيب الشخص الذى ادرك هذا الأمر قبل غيره . وكان احد هؤلاء هو رافو كونفورتى . فبالتدريج صرف النظر عن جميع الأعمال التى لا تتصل إتصالا مباشرا باحتياجات الجيش والحرب . وعندما جاء الدور على جيله فى اداء الخدمة العسكرية تخلص منها إلى الابد باعتبار ان العمل فى حاجة شديدة إليه . ومن قبل إختفت اطعمة كبيرة من التجار الصرب من السوق وفى الوقت الحالى جر التجنيد ايضا التجار ذوى الديانات والجنسيات الاخرى . وكانت المنافسة ضعيفة امام كونفورتى

والسوق حرا ، وحصلت تجارته على حجم المليون من التراخيص . وكانت الآنسة تعمل وتكسب في ظله .

ودائما ما تكون بداية الشتاء معتمة ومحزنة في هذه المدينة الجبلية التي تقع على إرتفاع خمسمائة متر فوق سطح البحر وفي دغل من ادغال الجبال العالية . وفي بداية السنة الثانية للحرب تضاعفت قسوة الشتاء مائة مرة ، وكان ينصرم شهر من شهور نوفمبر بقسوته وحزنه التي يرتعد منها كل إنسان ويرتعش الفقراء امامها كما تفعل سنابل القمح امام المنجل . وكان شهر نوفمبر هذا يبدو كئيبا وباردا ، يكاد يتألف من ليل لاينجلي إلا لبضع ساعات أشبه ببعد الظهر الذي يكثر ضبابه وكانت برودته تبلغ برودة شتاء كامل . وقد تم تجهيز نصف اهل المدينة ولذلك فالشوارع مكتظة بالجنود من جميع انواع الأسلحة وتتحرك مواكب الاسرى من الصرب والروس او المعتقلين والرهائن من المواطنين ، والسلاح الابيض يلمع فوق جميع الرؤوس وكأنه علامة صامتة واضحة للزمن .

وبعد ان تسللت الحرب ودخلت جميع المنازل وكل المؤسسات والأعمال البشرية ألقت بقناعها واظهرت في هذه الأيام الكئيبة وجهها الحقيقي الذي لم يعد هو تلك الحركة الثملة للجماهير وتلك النشوة للتدمير التي تشبه نشوة الخلق ، بل بؤس وهلاك لكل ماهو حي وميت ايضا ، وهلاك للانسان في الغالب . وهؤلاء الذين كانوا في وقت ما يبتهجون مدفوعين بغرائز البغض والحنق اصبحوا الآن اولة وقل عددهم . ومع هذا الشتاء دخلت الحرب عامها الثاني وتزايد انتشارها كأنها عدوى ليست لها نهاية . وكان يتم إستدعاء جيل بعد جيل وضمه إلى الجيش . وإبتلع ميدان القتال في جاليتسيا والوكرانيا جميع الفرق البوسنوية وظهر الفقر والفاقة ورأى الناس البؤس والجوع الساري في تلك الاجراءات دون أن يألفوا التقييدات او يقدرون على فهم التوزيع . وتملكت الهموم اولئك الذين يملكون واولئك الذين لايملكون وتملكت من يهلكون ومن لم يحل دورهم بعد .

كانت الآنسة تسير في شوارع سرايفو خلال الايام القصيرة الشهباء من شهر نوفمبر هذا وقد بهت لونها وانتابها شحوب وصمت . وكانت ترتدي معطفا أسود أغلقت أزراره حتى الرقبة وتضع قبعة سوداء على شاكلة قبعات الرجال . وبهذه الملابس بدت ملامح وجهها المحددة الرقيقة وكأنه قد تم إعدادها منذ القدم لمثل هذه الايام وهذا الزمان . ولكن المظهر الخارجي في هذه الحالة كان يؤدي إلى إستنتاج خاطىء . ففيما عدا

مظهرها الخارجي الذي كان منذ زمن على هذا النحو لم تكن للآنسة صلة بالفترة العصيبة والمدنية المعتمة . إنها لم تشترك على الاطلاق ولو بأفكارها في مصير اهالي وطنها او مصير اولئك الذين تعرضوا منذ اليوم الأول بسبب اصلهم الصربي او معتقداتهم لمختلف انواع الاضطهاد . ولم تشترك ايضا في مصائر اولئك الآخرين الذين كانوا في صف السلطات الحكومية بشكل صريح او خفي والذين ادركوا الآن أن هذا الولاء لايدفع بالبيانات والمظاهرات الصاخبة فحسب بل يتطلب ايضا تضحيات في الدم والمال والأملاك . وبوجه عام فبالنسبة للآنسة كان كل مايحدث هنا وفي العالم الكبير غريبا بعيدا غير حقيقي . وبالنسبة لها كانت الصدامات والأحداث السياسية ذات الأهمية العامة والمعارك الضخمة في شرق وغرب اوربا ليست إلا عناوين ضخمة في الصفحات الأولى للجرائد اليومية ، وقد ظل كل هذا بمنأى عنها كأنه كتل قاتمة غامضة كانت هي تختار في برود وحذر من بينها الممرات وتكتشف السبل لمصالحها . ولم يكن هناك في أي وقت مضى مثل هذا العدد الكبير من الممرات . وبهذه السبل لم يتم إحراز تقدم السرع او اسهل مما تحرزه الآن حيث الأغلبية العظمى من الناس تشغلهم الأحداث وتعزلهم ، اما هي فحرة لا يعوقها شيء والطريق مفتوح امامها ولديها صلات طيبة وظروف مناسبة للغاية . وكانت الآنسة لاتتقدم إلا إلى الأمام نحو مصالحها واعمالها التجارية الصغيرة والكبيرة بحدة وعزم كما تتقدم خلال ايام نوفمبر في الشوارع دون أن تنظر إلى اليمين أو اليسار ودون أن تسأل عن المكان الذي أتى منه كل هذا وكيف ولماذا أتى ؟ ، وإلى متى سيستمر وكيف سينتهي ؟ ولم يعق الآنسة اعاقة كبيرة الفقر العام الذي تحول سريعا لدى عدد متزايد من العائلات إلى بؤس . وكانت تنظر بسرور خفي حقود إلى المرح الصاخب في المقاهي والشوارع الذي يقل باستمرار ، وإلى إنخفاض الاستمتاع والبريق والضحك في المنازل . وتنظر إلى هذه الفاقة التي تغمر كل شيء وكأنها نوع من الإقتصاد الإجباري ، وتنظر إلى المدينة والناس الذين يتملكهم الصمت والاكتئاب ويلائمون إرادتها وذوقها اكثر فاكثر . وإذا كان لكلمة السعادة معنى في حياتها فيمكن القول أنها كانت في هذه الأيام غاية في السعادة . سعادة حيوان الخلد الذي يحفر في عمى خلال الظلام والسكون . الأرض اللينة التي يوجد بها كثير من الطعام ولاتوجد امامه اية عوائق او مخاطر .

وفي هذا الجو الحالك الكئيب الذي لايبتهج فيه أحد ولاينفق ويبذر بينما

فى تكسب وتوفر وكانها فى عمل عام كبير ليست له نهاية معينة مرتبة كانت الآنسة تتحرك وتحيا فى بيئة توائم طبيعتها وميولها . وكانت تتجنب كل ما يمكنه ان يفيقها من هذا الهدوء التام الشامل وكانه شئ مقوت غير لطيف . ومع ذلك لم يكن من الممكن تجنب ذلك على الدوام .

وعندما مرت فى احد تلك الأيام المعتمة من ايام شهر نوفمبر بالمتجر لم تجد فيسو فى مكانه المعتاد . بل فى أقصى زاوية بين الخزانة وصوان عتيق . وابصرت فى الضوء الخافت ذلك الرجل الضعيف يبكى فى هدوء وبلا صوت .

الدموع مرة اخرى .. وهنا فى المكان الذى يفور ان تتمنى وجودها به فسألته فى جفاف وصلابة بقولها

- ماذا بك يافيسو ؟

فاستمر الرجل فى نحيبه بدون أن ينطق أو يتحرك

وسألته الآنسة بفروغ صبر

- ماذا بك ، لماذا تبكى ؟

ولم يتفوه فيسو بشئ بل اشار بيده إلى صحف المساء الموجودة أمامه والتى تعلن بعناوين ضخمة انه تم سحق الجيش الصربى الذى - نتيجة للهجوم عليه من الشمال ومن الجنوب الشرقى بواسطة الألمان والنمساويين والبلغار - إنسحب إلى الجبال الوعرة تاركا وراءه سلاحه وجرحاه ومرضاه . وكان مسطرا باول الجريدة بحروف كبيرة « لم تعد هناك قوة عسكرية للصرب » .

- دعك من هذا يافيسو . فلا يعيش المرء من النواح .

وفجأة إبتدأ الرجل القصير - الذى لم يكن يعرب عن إنفعاله واضطرابه إلا بنارهات قاسية قصيرة - الكلام بمرارة وقد ضم اسنانه وكان فى صوته صلابة

- كيف لا أبك ! لو كان لديك حظ لبكيت انت ايضا ولابد لنا جميعا ان نبكى ولو اغلقنا عيوننا فى البكاء لكان ذلك بسيطا .

وشعرت أن هذا الفلاح القصير الذى يبكى ويتلفظ هنا فى متجرها بالفاظ خطيرة ضخمة يثير غضبها وشعرت بذهاب كل توقير عنها . فأجابته بحدة وحنق

- إذا كانت لديك رغبة فى البكاء فإنطلق إلى منزلك وإنتحب . ولاتبك هنا المتجر حيث يتوافد الناس وحيث يجوز لأى إنسان أن يراك .

- لو كان فى إمكانى لبكيت وسط السوق ايضا .

- إنك حيثما شئت ولكنى لن اسمح بأن اكون محل شك وان يكون لى صلة برجال الشرطة . لن أسمح ، اتفهم ذلك ؟

فأجابها الرجل القصير فى مرارة وإحتقار وهو ينظر إليها شزرا وكأنما يطل عليها من مكان عال .

- لاتخافى ولا تجزعى ، فإن البكاء ليس ممنوعا ولو حتى كان محرما فأنا الذى ابكى ولست أنت . لن يحدث لك شئ . إنهم يعلمون انك لن تذرفى العبرات على أى إنسان .

- هذا شأنى أنا ، وأنت لو كان لديك عقل لما بكيت .

- إننى ابكى حينما تبكى عين كل صربى ولا استحى من ذلك ، وسترى إلى أى مدى سيقودك عقلك هذا . وانا اليوم أحب أن تقولى لى اننى ضعيف ومعتوه لاننى انتحب هنا . أفضل من ان اكون شاذا لو خلقنا كالمعدن .

ويعلم الله إلى متى كانت ستستمر هذه المشادة الخافتة فى الركن المظلم من المتجر وماذا كان سيقول كل منهما للاخر لو لم يدخل احد الأشخاص من الشارع ويقاطعهما .

واشتد التوتر الذى كان موجودا بالفعل حتى ذلك الحين بينها وبين فيسو ، ولكن هذا التوتر كان طبيعيا للغاية وصادقا للنهاية من كلا الجانبين حتى انهما لم يشعرا بأنه عبء خاص لأن كل منهما كان يعمل كيفما ينبغى وبالطريقة الوحيدة الممكنة .

بيد ان شخصية رافو كونفورتى تتميز بين كل سلسلة المسائل والشخصيات الخاصة بهذه الفترة التى تتضح لها حتى اليوم بتفاصيلها وظلت بالفعل غامضة جميعها على الدوام .

ففى نهاية عام ١٩١٤ طرا على كونفورتى تغير فى عمله وحديثه وتصرفاته وما إتفق يتغير بمضى الوقت . وانها بنفسها لايمكنها ان تقول متى حدثت تلك التغيرات او كيف تطورت . ولكنها رات رؤية واضحة وشعرت جيدا ان الرجل يتبدل . اولا جاء الصعود . فقد إرتفع رافو إرتفاعا سريعا . ولكن بعكس القوانين الطبيعية وإتفاقا مع قوانين المجتمع لم يصبح صغيرا بل اصبح كبيرا فى عيون من يحيطون به . وكانت هذه التحولات على درجة كبيرة من السرعة والعمق حتى ان الآنسة لم تعد تستطيع - ولو حتى فى ذاكرتها - ان تتذكر كونفورتى هذا الذى كان

موجودا قبل الحرب . لقد أصبح الرجل ثقيلا هادئا وثابتا فى جميع تصرفاته مقتصدا فى كلماته بطيئا فى حركاته . وليس هناك أى أثر للعيون المتوهجة واليدين المرتعشتين أو تلك الجلبة والأيمان الغليظة فى كلامه . إنه يتحدث معها بلطف وعناية ولكنه يعيد غريب شارد الفكر وكأنه فى نفس الوقت ينظر ويستمع ويفكر فى شىء آخر أكثر أهمية . إنه يستطيع أن يقدم لك كل شىء فيما عدا إنتباهه . وظلت علاقاته التجارية القديمة وكل أعمال الربا الصغيرة وراءه بمسافة بعيدة . كما لم يعد متجره الطويل بشارع « فرهاديا » الا واحدا من المخازن العديدة لبضاعته . وكان كونفورتى نفسه يجلس فى حانوت جديد تماما أكثر بهاء لشركة « القماش . س . م » ويجلس به فى الوقت الذى لم يكن يسافر فيه بسبب الاتصالات والمؤتمرات إلى فيينا أو براغ أو بودابست . وفى كل مرة يعود فيها من تلك الأسفار كان يبدو بالنسبة للآنسة أكثر إبتعادا وشرودا . وفى صيف عام ١٩١٦ سافر مع زوجته إلى « كارلسباد » وعاد من هناك أشد هدوءا وروعة وكأنه قد إغتسل وإنطلى باللون الأبيض .

وشاهدت الآنسة بعينيها كيف يتكون المليون الأول وكيف تأتى وراءه الملايين الأخرى . وتملكتها الدهشة لأن كل ذلك لايماثل حلمها الذى تحلم به عن المليون ولا يشبهه ولو من قريب . لقد شاهدت كل شىء ولكنها مع ذلك لم تر ولم تفهم أشياء كثيرة . وقبل أن أصبح بوسعها أن تدرك أى شىء حل الهبوط والانهيار . ومثلما لم تبصر كيف صعد التاجر رافو لم تلحظ أيضا العلامات الأولى لانهياره .

وأتى ربيع عام ١٩١٧ وهو ربيع طويل قاس حين لم يكن بالبوسنة إلا منزلا واحدا من بين مائة منزل يشبع أهله من الطعام . ولم يكن بأى بيت منها كل مايحتاج إليه . وفى أحد أيام شهر مارس . أحد الأيام الذى كان به شحوب وجوع منذ بزوغه إلى غروبه . إستقبل كونفورتى الآنسة لكى تحادثه حديثا قصيرا . فقد جاءت تسأله النصح وتطلب منه العون بمناسبة القرض العسكرى الرابع الذى تم الاعلان عنه فى هذه الأيام . ذلك لأنها رغبت فى أن تقدم هذه المرة أيضا مبلغا كبيرا وأن تتخلص من سندات الدين بدون خسارة جسيمة وبأسرع ما يكون . وكان هذا غاية فى العسر فى الوقت الحالى .

ولم تكن قد رأته شهرا كاملا . وكان يجلس على مقعد ضخم وقد ألقى رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه التى إنتشرت حولهما دوائر صفراء وزرقاء

، وقد إنتبه واعتدل فى جلسته على المقعد وانصت فى جهد مبالغ إلى ما كانت تقوله عن أعمالها التجارية الصغيرة التى جاءت من أجلها . ونهض من على الكرسى دون أن ينتظر إنتهاء رايكا من حديثها قائلا :

ـ حسنا . حسنا يا آنسة سنرتب ذلك فى سهولة . حسنا سيكون الأمر كما تشائين .

ثم مد يديه وانطلق يتمشى فى الغرفة وهو يتحدث بصوت جهورى وبكلام لايتصل بالموضوع قائلا :

ـ آه . سيتم ترتيب كل شىء . سيكون كل شىء سهلا وإنما لابد أن يجد الشعب طعامه ! الأمر يسير بالنسبة للملابس . فيمكن للمرء أن يرتقها ويقلبها ولكن ليس بوسعه أن يعيش بلا غذاء . إنظرى يا آنسة . إن أسوأ شىء أن يشعر الشعب بالجوع فلا يمكنه أن يحارب وأن يعيش فى هدوء . فى تلك الحالة ولا توجد أعمال ولا توجد حياة . إنه الهلاك !

كانت الآنسة تصغى إليه وتتابعه بعينيها من أحد أطراف الغرفة إلى الطرف الآخر . وكان حديثه المضطرب وحركاته السريعة تتناقض مع مظهره وسلوكه الحالى . وكأنه ظهر فجأة رافو كونفورتى القديم صاحب المتجر الموجود بشارع فرهاديا المستتر تحت القناع الوقور للرأسمالى الكبير . ولم تقدر على فهم هذا الانفجار المفاجىء للاستياء أو على إدراك علاقتها هى رايكا وعلاقة عملها بمسألة جوع الشعب وشبعه . إنها لم تفكر فى ذلك مطلقا . وتساءلت هل ينبغى أن تقول هى الأخرى شيئا . بيد أن كونفورتى لم يتوقع اشتراكها فى الحديث فاستمر يتمشى فى الغرفة ويتحدث فى حرارة وكأنه يخاطب إنسانا بعيدا قائلا :

ـ العقل يقول لك أن الشعب لابد أولا أن يأكل . ثم بعد ذلك يأتى كل شىء آخر . فماذا تريدين من رجل جائع . فلو حتى أخذت منه نفسه لايفيد ذلك بشىء .

وظل كذلك حينا من الوقت يتمشى فى الغرفة ذهابا وإيابا ثم توقف فجأة وتمالك أعصابه وودع الآنسة وقد عاد مرة أخرى إلى هدوئه وشروده كما كان حتى ذلك الحين . ولكن منذ هذا اليوم والآنسة تنظر إليه نظرة مختلفة .

ومنذ ذلك اليوم راحت هى الأخرى بنفسها تتابع بعناية وتلاحظ بطريقة أفضل حولها أمارات الجوع والفاقة وعدم الرضى والانهيار على الناس وفى المصالح وفى المجال التجارية . وكانت هذه الأمارات أكثر مما كانت تريد .

ولم يكن بمقدورها او فى نطاق إدراكها ان تربط بينها وان تتغلغل فى أسبابها العميقة . ولكنها كانت تلاحظها فى كل مكان وقد جعلها هذا تدرك أن الحرب ليست إلا عملا هائلا .. مشروعا لاترى له حدود وله حساباته ونتائجه النهائية القاسية التى تتعلق بالمكسب والخسارة مثل اى عمل . وقد أكثرت من تفكيرها فى نهاية تلك الحرب وفى عواقبها ونتائجها التى قد تصيبها وتصيب مصالحها ؟ وإتضح لها ان « عصرها الذهبى » قد إقترب من نهايته وان الامور حولها بدأت تتحرك وتتبدل وان هاتين السنتين اللتين كانتا بالنسبة للعالم اجمع صاعقتين قاسيتين وبالنسبة لها هادئتين طيبتين - لايمكن ان تعودا ... تلك الزمن الذى لم تكن تكتب فيه الصحف إلا عن المعارك فحسب . وليس للناس من شاغل إلا مشاغل الحرب حينما لم يكن احد يلتفت إلى رجال التجارة القلائل او إلى تجارتهم التى كانت تزدهر فى حرية وخفية ، بيد انها الان ترى وتشعر فى كل خطوة بحلول نهاية كل ذلك وبالعودة المفاجئة العارمة للحياة القديمة وكل قلاقلها التى بدت لها انها قد زالت إلى الابد . وبمقتضى الامارات الصغيرة الاكيدة ترى الآن رؤية واضحة عدم الثقة والنكران اللذين يقابلها بهما اقرب اقربائها .

وكان يتوافد عند قيسو فى المتجر شباب من الرجال الذين افلحوا فى الهروب من الخدمة العسكرية ويتحدثون معه احاديثا طويلة خافتة . وما ان تظهر الانسة على الابواب حتى يتوقف الحديث على الفور توقفا تاما او يصبح حديثا متكلفا غير صادق . وفى الوقت الحالى كان يحضر لزيارة امها القريبات اللاتى اعتقل اقرب اقربائهن . ولكنهن لم يعدن يبكين فى يأس ورقة كما كن يفعلن من قبل بل يتبسمن إبتسامة لها معنى وتلمع عيونهن . واصبحت ديفنا اكثر نحافة وصلابة من قبل وخلعت ملابس السواد وكفت عن ذرف الدموع . وزوجها وإشبينها موجودان الآن فى روسيا ، وبعد أن قضيا الشهور الاولى للحرب فى سجن « أراد » تمت تعبئتهما كضباط إحتياط ثم إرسالهما إلى الجبهة الروسية حيث إنتهزا اول فرصة سانحة وهربا فى نفس الوقت تقريبا إلى الخطوط الروسية . وهما فى الوقت الحالى فى الفرقة اليوغسلافية للمتطوعين . وقد قامت سلطات البوليس والجيش بالقبض على ديفنا وعلى باقى افراد العائلة فى وقت من الاوقات وإجراء التحقيق معهم ونهب ممتلكات الهاربين من الخدمة العسكرية ، ولكن كل هذا لم يجعلها تعدل عن هدوئها الصلب . وحين يسألونها عن مكان زوجها وإشبينها تجيب عليهم قائلة :

- إنهما هناك حيث ينبغى ان يكونا .

اما الخالة جوسباڤا التى كانت حتى فى السنوات الاولى القاسية للحرب حادة الطبع عديمة المبالاة تتكلم الان فى جرأة وصراحة كاملتين . فقد حكم على إبنها بالسجن سبع سنوات ويقضيها بالسجن فى زينيتا . وهى تقول لكل شخص انها غاية فى الهدوء لأنها تعلم أنه لن يقضى بالسجن أكثر من نصف العقوبة . وما أن تحضر ، وقبل ان تجلس ، تحكى بصوتها كيف جاء عندها بالامس بعض السيدات اللاتى يجمعن تبرعات للصليب الأحمر فاجابتهن بانها لن تعطيهن مليما واحدا لان لها صليبها فى سجن زينيتا .

والآنسة تبتعد كلما أمكن عن هذه اللقاءات وتتحاشاها . ولكنها الآن تفعل ذلك مع شعورها بالخوف والاشمئزاز وقلق بالنفس لم تألفه من قبل . وتتجمع الامارات فى بلاغة ووضوح متزايد .

وحدث فى خريف عام ١٩١٧ ان اتى إلى سرايفو جيش كبير العدد بحيث ان الضباط إضطروا إلى الاقامة فى المنازل الخاصة كما حدث فى بداية الحرب عام ١٩١٤ . وهكذا اقام احد الضباط فى منزل عائلة راداكوفيتش التى لم يمسها اى سوء حتى ذلك الحين . وكان الضابط الذى إضطرت الآنسة لقبوله فى مسكنها طبيبا عسكريا شابا من كرواتيا واصله من منطقة سلافونيا ، وهو غاية فى البدانة بالنسبة لعمره وعلى قدر من الطيبة والعقل والسماحة ويدعى دكتور روكنيتش . وكان هادئا منتظما لم يطلب اية خدمات مما عزى الآنسة قليلا فى غضبها نتيجة للازعاج . ولكن كان له فى رأيها جانب بغيض . فقد كان يحب أن يتحدث عن كل شىء وخاصة عن السياسة . وكانت الآنسة تعتبر كل حديث بعيد عن نطاق اعمالها حديثا كريها شاقا ، وكانت تهرب من السياسة فى مقت وفزع خرافى . وكانت تستمع فى ذهول لهذا الرجل الذى يرتدى زى ضابط نمساوى وهو يتحدث بتملقه السلافونى المرفه الذى يخلو من القلق موجها كلامه إلى والدتها :

إننى سعيد ياسيدتى لأننى اقمت فى منزل صربى . إننى اعلم من انتما ، إنكما من الصرب البوسنويين وتحملتما وقاسيتما وتقاسيان حتى الآن . ولكنى أرجوكى الا تنظرى إلى هذا الزى العسكرى الذى ارتديه رغما عنى ، وارجوكى الا تعديننى ضابطا نمساويا .

وتبتسم السيدة المسنة بتلك الابتسامة الهادئة التى يحملها معهم معظم

افراد عائلة حاج فاسيتش فى اللحظة التى يفتحون فيها لأول مرة عيونهم ، وتملك الآنسة إندهاش وذهول بالغ لدرجة انها إستدارت بسرعة ودخلت غرفتها

ولكن لم تكن تلك إلا بداية . فقد كان الطبيب يحضر اليهما فى ساعات الفراغ والراحة بلاميرلك ويبدأ فى هدوء وبشكل طبيعى الحديث عن كل شىء . وبمجرد ان يتحول الحديث إلى الحرب والسياسة تشرع الآنسة فى التقطيب والتململ والبحث عن عذر مناسب لأن تبتعد . وكانت تحاول ان تعارضه مؤكدة أمها هى ومنزلها ليست لهما اية صلة بالمعارك السياسية والمشاق التى يلاقيها الصرب وما شابه ذلك من امور ، وانها راضية بالحالة والحياة الحاضرة . فينظر إليها الطبيب بعينيه الصافيتين الشقراويتين من وراء النظارات التى ليس لها إطار قائلا

- استمعى إلى يا آنسة ، ليست بك حاجة إلى ان تتحدثى امامى بهذه الطريقة وإنني متأكد أن هذا ليس رأيك ، وإذا كان هذا هو رأيك فعلا فانك حقا تشذين وتسيرين فى طريق غاية فى الخطر . لأن كل رجل عاقل اليوم يرى ان القوى المركزية لايمكنها ان تكسب هذه الحرب وانها مضطرة لخسارتها ، وانه لحسن أن يحدث ذلك ... حسن بالنسبة للانسانية جمعاء وإنقاذ وحظ سعيد لجميع السلوفينيين الجنوبيين لانه خلافا لذلك ستنمحى من على وجه البسيطة .

وكان الطبيب الشاب يقص كل ما شاهده فى الجبهة الروسية حيث قضى عام ١٩١٥ باكمله وما راه فى الجبهة الايطالية التى جاء منها مباشرة . وحكى كل ما يعرفه عن الحالة فى العالم وعن عمل ونشاط الحكومة الصربية فى كرفا وعن عمل المجلس اليوغسلافى . وكان يتحدث عن إنتصار قوات الحلفاء وهزيمة المانيا والنمسا وكأنه امر منته وعن توحيد جميع السلوفينيين الجنوبيين كنتيجة طبيعية لذلك . وكان يسرد ويتلو حديث نواب مجلس الأمة اليوغسلافى فى فيينا .

كل هذه الامور كانت بالنسبة للآنسة امور جديدة وفظيعة لم تحيها على الاطلاق ولم تفكر فيها فضلا عن أن تتحدث عنها . وتملكها الغضب من الطبيب الثرثار ولعنت اللحظة التى ارسلوه فيها إلى المنزل . فهى الآن مضطرة إلى التفكير فى ذلك ايضا ، واضطرت لأن تعترف لنفسها بخشيتها من نهاية الحرب وعدم رغبتها فى أن تكون هذه النهاية بالكيفية التى يبينها بها الطبيب . وغالبا ما تتسلل قبل النوم إلى افكارها الخاصة بالمال

والأعمال - تتسلل كنوع من الخوف - فكرة إحتمال إفساد كل شىء فعلا وعودة فترة الحياة العامة القلقة المضطربة ونقد الصحافة والتلاميذ ذوى الشعور الطويلة الذين لايفكرون فى الخير لأنفسهم او للآخرين . وتنجح فى الاستغراق فى النوم عندما تمتنع عن التفكير بجهود جازمة .

وترك الطبيب البدين الثرثار مع وحدته العسكرية سرايفو بعد خمسة عشر يوما . ولكن الآنسة لم يعد بوسعها الا تفكر فى نهاية وتطور الحرب . وبدت لها فظاعة هذا اليوم حينما يتحطم هذا السكون المصطنع حولها وعندما يعود جميع الرجال من الخنادق ومن السجون والمعتقلات إلى منازلهم ويحملون إتهاماتهم وحساباتهم ويحاولون احتلال اماكنهم القديمة . ولم يكن بامكانها حقا ان تفكر كيف سيبدو ذلك . بيد انها شعرت ان هذا سيربك الحياة إرباكا شديدا وسيطالب كل شخص . وستطالب هى ايضا ، بتضحيات خاصة ومسئوليات جسام . وكل ما كانت تشاهده وتسمعه حولها يؤكد فقط افكارها تلك ومخاوفها المتعددة وحساباتها المؤلمة وتوقعاتها السيئة .

كان عام ١٩١٨ عاما غاية فى السوء ، فقد كان العالم منهك القوى متعبا بسبب الشتاء الطويل وضعف الغذاء وبدت الحرب فى نفس الوقت ضائعة لانهاية لها ، ولم تعد الاعمال تشبه ما كانت عليه من قبل . وكان العمل الذى يجرى فى هذا الوقت عبارة عن تلاعب جنونى بالارقام وسباق طائش فى سبيل البضائع المخبأة او الجلود او الأصواف وعبارة عن هروب جزع من الأوراق النقدية وتأمين وإعادة تأمين مستمرة فى حالة ازلية من عدم الأمان . وكل من كان يحتاج إلى المال ولديه طباع نهمة وساقان سليمان ومنكبان شديدان كان ينقض ويقتنص نصيبه من الرزق من قطار البضائع التى يجرى البحث عنها فى هذه اللحظات وينسحب بمكسب منتظرا فرصة جديدة . وكل شخص كان يشترك فى الأعمال . الجنود والنقل والقساوسة والطلبة الذين لم ينهو تعليمهم بحيث ان رجال الاعمال الحقيقيين لم يعد بمقدرتهم ان يحسنوا التصرف وان يصمدوا فى هذا الهرج والمرج .

وكان رافو كرنفورتي الذى لم تتركه الآنسة فى الوقت الحالى بعيدا عن أنظارها تجسيدا لكل تلك التغيرات السيئة ، وكان هو بكل ضخامته يحترق حبا إلى حتف مع هذه الحرب . فقد هبطت وتعقدت أعماله خفية وبسرعة كما نمت فى وقت من الاوقات واضطرب كل شىء وتحلل من نفسه . وتدهورت صحة رافو ايضا فى سرعة وبشكل ظاهر ، وما فتئت تزداد غرابة

الامارات التي كانت ملحوظة عليه ويقل الشبه بينه وبين رافو كونفورتي الذي كان موجودا في سنوات الحرب الطيبة . وعندما يستقبلها تلحظ على الفور مقدار الزيادة في نحافته وشرود ذهنه مما كان عليه في المرة الاخيرة التي راته فيها . ويلزمها حاليا جهد بالغ لكي تدفعه لان يركز تفكيره ويتمالك نفسه ويتهيأ لحديث حقيقي عن العمل الفعلي الذي جاءت من اجله . وقد تبين أن لديه حاجة لامرد لها لان يتحدث عن جوع وفاقة جماهير الشعب الواسعة ويتحدث عن العواقب الوخيمة التي لابد أن تنتج عن ذلك للدولة والاقتصاد والافراد . ومهما يبدا الكلام عن اي موضوع من الموضوعات ففي النهاية ينتهي الحديث عن ذلك . وكان من البين ان هذه الفكرة تسيطر عليه لا هو الذي يسيطر عليها وانها تطارده وتنهكه باستمرار وبقسوة وعندما لايتحدث عنها يتملكه صمت كئيب وينظر في ذهول إلى نقطة أمامه

ومانفك تزداد الاحيان التي تذكر فيها الصحف اليومية ان السيد رافو كونفورتي اهدى إلى مطابخ الشعب او إلى دار البؤساء براميلا من العسل او عربة مملوءة بالكرنب . وفي الفترة الاخيرة بدا يشتري بنفسه البضائع لا لشيء إلا لكي يمكنه بيعها للشعب بثمن بخس للغاية . وإنتعش متجره القديم الموجود بشارع فرهاديا وتجمع امامه الناس في صفوف مديدة منتظرين أن يصلوا إلى القليل من الطعام وفقا لاسعار رافو . وكان عمال المتجر يبيعون ويوقفون بسلسلة بالغة الجماهير المضطربة الجائعة . اما كونفورتي فقد كان يتصل تليفونيا عدة مرات من مكتبه بشركة القماش ويستفسر عن عدد الناس وعن كيفية سير التوزيع . وكان يحدث أن يترك مكتبه المطل الداخلي - بعد أن يفقد صبره - ويهرع كالمطارد إلى التأكد بنفسه من كل شيء ويوزع باقي الطعام بالمجان على افقر البؤساء .

ولم يكن واضحا بالنسبة للانسة ما يحدث لكونفورتي ولكنها رأت انه لم يعد في الامكان إنتظار اي شيء منه . سواء اكانت مساعدة او نصيحة او حديث عاقل عن العمل . ولم تتصور مطلقا من قبل انه يمكن لهذا الرجل المفعم بالقوة والخفة ان يضيع بهذه الطريقة . واحست بعزلة ووحدة لم تشعر بها ولم تحدث لها ابدا حتى ذلك الحين . وإلتفتت حولها بالغريزة ولاول مرة في حياتها راحت تبحث عن مخلوق بشري يمكنها ان تتحدث وتتشاور معه ويمكنها ان تجد لديه الفهم والعون

وكانت الحال بينها وبين فيسو سيئة . في الحقيقة كان لايزال على نفس طبيعته متواضعا ومخلصا وفيا لمنزله ولمتجره إلى مالا نهاية . ولكنه ايضا

قاس وصريح في التعبير عن نفوذه من الآنسة ومن سلوكها وتصرفاتها خلال الحرب . ويوجه علم كرس فيسو نفسه تماما في الفترة الاخيرة لتلك الاحاديث والتهامس مع شباب السوق الصربي . وإنها لتلاحظ ذلك في خوف وإرتياب عميق ولكنها لاتجرؤ على ان تساله عن اي شيء . ولاول مرة منذ فقهت الحياة تشعر بانها ضعيفة وتابعا لهذا الرجل القصير . ولم تكن تعتمد كثيرا على كفاءته وقدراته اوعلى ارائه . بيد انها تشعر الان بوجود شيء لديه يجعله أكبر واقوى منها . وكانت تنظر إليه في إستغراب وهو يتمشى في هدوء وثقة بالنفس في المتجر وبعينيه بريق وعلى مؤخرة راسه الشقراء تلك الخصلة من الشعر الرقيق اللين التي تبدو كالعرف العنيد للديك . إن فيسو الذي ترعرع في منزلها يقف امامها الآن كشخص غريب ليست بينهما الفة او فهم حقيقي وكانه قاض

وإنها لا ترى ولاتقابل اباها في العماد التاجر ميهايلو إلا في اعياد الميلاد واعياد القديس . وهو حاليا يرقد منذ نصف سنة ميتا اكثر منه حيا ولايصلح للعمل او للتشاور

وفكرت في المدير باير الذي لم تكن الآنسة في حاجة إلى خدماته خلال سنوات الحرب ونادرا ما كانت تراه وقليلا ماتتحدث معه ولم تلحظ ما يتكون بينهما من فراغ وبعد . ذهبت إليه من أجل بعض سنداتها التي كانت مودعة في بنك اونيون . وفي الحقيقة كانت ترغب في ان تتحدث معه عن الاعمال والمال بوجه عام وأن تسمع منه عن كل التغيرات التي يمكن أن تظهر وما ينبغي عمله إذا وصل الحال فعلا إلى تلك الحال الذي يتهامس عنه الجميع ولايتحدث احد معها عنه في وضوح وصراحة .

لقد كان باير لايتغير على الدوام . ومن العسير القول ماذا كان ينبغي أن يحدث حتى يتغير سلوكه وعلاقته تجاه الناس . ولم يعرف هو ايضا ذلك الشيء الرئيسي الذي جاءت من اجله ولم يرغب في أن يقوله لها . وخلال الحديث مع باير تصبح كل الاشياء واضحة وضوح الهواء وسهلة نظيفة وتضيع كل المصاعب في الضباب الذي يقتلع بمجرد أن يخرج المرء من مكتبه . وعندما خرجت الانسة لم تكن معلوماتها او هدوءها قد زاد . بل على العكس تساءلت في دهشة وعدم فهم لماذا يتصرف باير مثل فيسو ويتوقف في حذر عندما يتحدث معها ؟ . ولماذا لاتوضح الفاظهما اي شيء ويشعر الانسان من صمتهما بعدم ثقة صماء وتوبيخ غامض ؟ ولماذا يحرك جميع الناس الذين تخاطبهم عيونهم بطريقة غير محددة وينظرون إليها في

غموض ويتذكرون لها كل ماليست له أية أهمية بالنسبة لها في برود وتحفظ لدرجة أنها هي نفسها تحتار وتتملكها الجمود ولاتعرف كيف تسألهم عما هي في حاجة إليه ؟ وكانت تسأل ولاتجد الجواب لأنها كما حدث من قبل لم تقدر على أن تفكر في نفسها في الوقت الحالي أو أن تري وتستفسر عن نفسها بعيون الآخرين ولم تشعر إلا بشدة وطأة الوحدة والاستقلال اللذين تعيش فيهما .

ولم تفكر في أنها كشخص يمكن التحدث والتشاور معه في أي شيء - يبقى فحسب ذلك القبر الموجود في كوشيلو . ولكن حتى القبر أيضا أصبح ، أبكما بطريقة ما . ولم تعد هي الأخرى تجد له الكلمات السابقة أو الهمس الحار . ومع ذلك تحضر إليه كل أسبوع وهي على قدر من التصلب والتجهم - من نفس الطريق وفي دقة بالغة في نفس الساعة على الدوام . وتجلس بجانب القبر ولكنها لاتقدر على أن تقول له - كما كانت تفعل في سابق الأوان - خططها وحساباتها الواضحة ، بل لاتذكر له إلا مخاوفها المضطربة وتوقعاتها الكئيبة غير المحددة . وعندما يمر الوقت المألوف تعود إلى منزلها مطرقة البصر بخطوات سريعة تعرفها المدينة بأكملها وقد زاد تصلبها وعبسها لأنها لم تجد الراحة التي تطلبها .

وبدا لها صيف عام ١٩١٨ صيفا لانهاية له وكأنه لم يعد أحد فصول السنة المستمرة ، بل كأن الزمن قد توقف منتظرا الأحداث . فالشعب هائج متحمس ، ومن الواضح أن الحرب تقترب من نهايتها والانتصارات تختلط بالثورات . والآمال المبهمة تمتزج بالمخاوف غير الواضحة والآنسة من بين أولئك الذين تملكهم الخوف . وكما حدث أيضا في صيف عام ١٩١٤ لم يكن بمقدورها أن تنام من التفكير ومن الحسابات والمخاوف ولكنها في ذلك الحين كانت تخشى خطرا معينا . أما الآن فهي تخاف من كل شيء وهذا أصعب بكثير . لأن من يخاف دون أن يعرف بالضبط ممايخاف فإن خوفه يكون مضاعفا . وفي ذلك الحين أيضا كانت جميع أفكارها وكل قوتها موجهة في إتجاه واحد وهو الاتكون مع الجانب الذي يخسر ويعاني ، لعلها الاتكون مطلقا في ذلك الجانب ؟ ولكن كيف تخمن الجانب السليم وكيف تؤمن نفسها وكل شيء في هذه الدنيا يتحرك ويتغير ويتردد ؟ كيف ينبغي للإنسان لكي يمكنه أن يعيش ويرتزق دون أن يعوقه عائق ودون أن يضطر إلى أن يتقاسم رزقه مع أي إنسان ؟ وعلام يعتقد المرء طالما أن تلك القوة الكبرى وتلك السلطة العظمى لاتستمر لفترة طويلة ولا تقدمان الحماية

الكافية ؟

وكونت الآنسة إستنتاجات غاية في التضاد وعدم الدقة بدون أقل فهم وبلا معرفة سليمة بالعالم وبالقوى الكبرى التي تتحرك وتتدافع وتتصادم فيه . فحينا كانت تقول لنفسها أنها هي وحياتها وأعمالها ليست لهم أية صلة مشتركة بجميع هذه الأمور . وحينا آخر كانت تربط شخصيتها ومصالحها بكل ما يحدث . وبعد أن استيقظت في عجلة وألم وقلبها يدق في حدة وبعدم إنتظام ، أفاقت وهي تجد نفسها في هذا الليل تائهة جاهلة وعاجزة كما لم يحدث من قبل وقد ابتعدت تماما عن الطريق الحالي للحياة وعن أسلوب التفكير بحيث أنه لايمكنها أن تدرك العالم الموجود حولها أو أن تفهم نفسها فيه . وكانت ترتجف من تفكيرها في الأزمان التي قد تجيء وتعرض للخطر كل ما كسبته ووصلت إليه وتقلقل كل ما اعتبرته ثابتا مضمونا . وإن هذا ليبدو غريبا وغير قابل للتصديق إذا نظرنا إليه من الزاوية التي اعتادت أن تنظر منها إلى تلك الحرب منذ بدايتها . إنها لاتعرف بالضبط ماذا يحدث في العالم ولم يثر ذلك اهتمامها ، ولكن هنا حيث تعيش وتعمل يتبغى أن يحدث شيء فظيع مستحيل . إذ لابد أن ينهزم الطرف الذي يمسك بالحكم والمال الذي يضمن النظام والأمان . أي العمل والمكسب . أي حياة الناس الذين يريدون أن يحيوا ويعملوا ، وأن ينتصر الطرف الذي يبشر بالدمار ويجلبه . أي يجلب الاضطراب والبطالة والحيرة أو بعبارة أصح - الهلاك الأكيد . إنه لايمكنها أن تدرك مثل هذا الخوف أو أن ترضى به .

وفي إحدى تلك الليالي رأت في المنام حلما فظيعا عن النقود . استيقظت الآنسة وكان هذا استيقاظا خاصا من نوم عميق وإغماء خامد إلى يوم أبيض رحيب ليس له شروق أو غروب بل يرقد على الأرض وكأنه متصلب . استيقظت وأرادت أن تنهي بعض الأعمال والأمور الصباحية المألوفة البسيطة ولكنها إرتبكت في خطواتها الأولى . إن كل شيء يسير في صعوبة سيرا معكوسا ويعذبها شعورها بأنها نامت أكثر مما ينبغي وتركت أعمالا هامة . لقد ضيعت وقتا بلا مقابل . وتساءلت الآنسة عن طبيعة يومها هذا ! فقد اشرقت الشمس منذ فترة وينبغي أن تسرع وكل حركة بطيئة ومضنية وكأن الإنسان يجر نفسه خلال الماء وكل خطوة تبدو عسيرة كما يحدث في الأحلام . فهل هذا استيقاظ فعلي ؟

هناك مثل هذه الأيام التي تبدأ بداية سيئة كئيبة متأخرة وكل شيء

يمضى طول اليوم كما لا ينبغى . هناك مثل هذه الأيام ، ولكن هذا اليوم مختلف ، سيحدث فيه شىء أو حدث فيه شىء فعلا .

نعم حدث أمر ما ، ولكنها لاتستطيع هى بنفسها أن تحدد اللحظة التى عرفت فيها ذلك لأنها لم تفطن إلى الأمر دفعة واحدة بل بالتدريج مع كل خطوة وكل كلمة وكل نظرة قليلا .

وكان أول رجل قابلته عند خروجها من المنزل هو حامل البريد ، وكان لايحمل إلا خطابا رقيقا لاقيمة له . فسألته بطريقة آلية

- ألا توجد حوالات مالية ؟

- لا يوجد يا آنسة ، لم تعد هناك حوالات .

فنظرت إلى وجه حامل البريد وهو الوجه المتقدم فى السن المجعد المنهك الذى تعرفه معرفة جيدة . انظر ، إن هذا الوجه يبتسم اليوم ابتسامة ماكرة والعينان الصفراوان تطرف طرفات وقحة ذات معنى . وهكذا بذلك . فأدارت له ظهرها واتجهت إلى المدينة .

ولكنها قابلت فى الشارع أيضا وجوها غريبة . وإنها لاتستطيع أن تقول بالضبط ماهى طبيعة تلك الوجوه ولكنها متغيرة . وكانت تتهجى معنى هذا اليوم الغريب من رجل لآخر . كأن كل وجه يمثل حرفا إلى أن تكشفت أمامها أخيرا كل الحقيقة الخاطفة التى لا تحتمل التصديق . فقد اختفت النقود ولم يعد لها وجود ولايسرى مفعولها فى أى مكان أو تحت أى شكل .

وشعرت الآنسة من داخلها بضربة قوية على أم رأسها لدرجة أن بصرها زاغ وفغرت فمها وتوقفت وسط الشارع ، ثم هرولت مندفعة إلى الأمام بعد أن تذكرت فجأة خزانة نقودها ودفاترها وحساباتها .

واقتحمت متجرها وكأنها تخترق النار وفتحت الخزانة بيدين مرتعشتين . ومرت بيدها وقد عقدت بصرها على الجيوب الفارغة والجدران الصلبة العارية ونادت على فيسو كاتب الحسابات ولكن دون جدوى ، فهو لايتواجد حينما ينبغى أن يكون موجودا ، أم أن كاتب الحسابات قد اختفى أيضا مع النقود ومع كل شىء يرتبط بها ؟

وهرعت إلى الخارج وراحت تنادى فيسو ورجال البوليس وأى إنسان حى حتى تسأله فحسب عما حدث لها وللعالم الموجود حولها . كانت تصيح وتضرب بقبضة يدها على جبهتها وعلى صدرها وكأن هذا ليس بجسدها وإنما جسد شخص آخر . ولم يجبها أحد جوابا أو اهتم بها . فتحركت لكى

تبحث عن الناس .

ومضت من حانوت إلى آخر فوجدت فى كل مكان نفس الحال ، فلا أحد يبيع أو يشترى شيئا بالنقود والجميع ينظرون إليها بابتسامة يصحبها غمز وكأنها امرأة شاذة مجنونة لاتعرف مايعرفه العالم منذ فترة . ومع كل خطوة وكل سؤال وجواب تصبح الحقيقة أكثر وضوحا وقسوة . لم تعد هناك نقود . أجل لقد هجرت النقود العالم باعتبارها شىء غير ضرورى لاقيمة له ، ولم يعد هناك مليم واحد على وجه الأرض . بل وهى ليست فى حاجة إلى نقود ، فالناس يعيشون ويعملون ويتاجرون ولكن بلا نقود .

وقالت الآنسة متعلثمة متسائلة

- كيف حدث ذلك . كيف ؟

فأجابها التاجر من وراء الحاجز ببرود وإهمال كما كان يقول فى وقت من الأوقات « إن الأسعار عندنا محددة يا آنسة » . قال :

- هكذا حدث !

- وماذا يفعل من كان يعمل بالنقود ولايتاجر إلا بها ؟

ولكن بمجرد أن تحاول بهذه الطريقة أن تعلم المزيد وتطلب إيضاحا لهذه الظواهر العجيبة التى تشبه الحلم الخرافى - يتغامزون كلهم عليها ويبتسمون وينصرفون إلى أعمالهم . ولكن تاجرا قصيرا قال لها وهو لا يعيرها أى إلتفات ويرتب البضائع على الرفوف .

- كانت هناك نقود ولم تعد موجودة . إنصرفى لعملك !

ولم يقل ذلك أى حديث

فتساءلت الآنسة من خلال الدموع وهى تقف فى مفترق الطرق وكأنها طفل ضائع بقولها

- أى عمل يمكن أن يكون بلا نقود ؟

وهاهى الأخرى قد تحققت الآن تلك الحقيقة المريعة غير المعقولة . أجل لقد اختفت النقود من على وجه البسيطة . لقد سلبوا الأرض ، لا إنهم لم يسرقوها . لقد حدث شىء أكثر غرابة وسوءا ، لقد اختفى أى مفهوم للنقود وفقدت هذه الكلمة معناها . وأصبحت الدنيورات تشبه العملات التذكارية وذهبت الأوراق النقدية إلى أكوام القمامة كتلك القصاصات الإعلانية التى توزع على المارين ويلقون بها على الفور وتم إلقاء الأسهم مع الصحف المصورة القديمة . وأصبحت الكمبيالات تشبه رسائل الموتى المجهولين من حيث عدم أهميتها وضآلة قيمتها . وظلت الدفاتر المالية فى أماكنها

الأخيرة ، وهى حاليا ترقد بلا حراك كأحجار منقوشة باللغة الهيروغليفية الغامضة .

واستمرت الآنسة وهى تتعثر خلال هذا اليوم المعدنى الناصع البياض من ناحية إلى أخرى ومن شارع إلى آخر ، وكل شىء يؤكد لها هذه الحقيقة : بأن النقود قد هجرت الأرض وأن العالم - فى رأيها - أصبح كجسد بلا روح وبلا حياة وبلاقوة تحركه ، والشىء الذى يصعب تصديقه أن الناس يبدو أنهم قد ألفوا ذلك ورضوا به وأنهم فى خستهم التى ليس لها حدود قد إرتضوا أن يعيشوا بلا نقود وأن يتعاونوا ويتكيفوا على نحو ما .

ماهذا ؟ لقد أصبحت الحياة شيئا تافها ، أصبحت صحراء ، وينبغى أن يواصل الناس معيشتهم .. كانت هناك نقود ولم تعد موجودة ؟ إن هذه خدعة وسرقة عامة أو كذبة من أكاذيب ابريل قالها الغافلون والأشرار . ما معنى هذا إذا كان هناك من يعرف الله ! وأين الحكومة وأين البوليس ، وأين القضاء والكنيسة ؟

وصاحت الآنسة بأعلى صوتها والتفت إليها العابرون فى دهشة تمتزج بالبرود ، ودنامنها أحد رجال الشرطة ونبهها بألا تعكر صفو النظام والأمن وإلا فسيضطر إلى إقتيادها إلى السجن .

إذن فالأمر كذلك ! فحتى الحكومة قد تم خداعها والغدر بها ! وواصلت الآنسة هرولتها فى ذهول . أين على الأقل هؤلاء القساوسة والشيوخ والرهبان ؟ هل هناك عدالة أو قانون فى أى مكان من الأرض ؟

كان القساوسة بالكنائس والمكاتب وكلهم تقريبا فى أماكنهم ، وجميعهم بالتقريب يقوم بنفس الحركات ، يفرك يديه كالمعتاد ويجيب نفس الإجابات بأن كل شىء فى هذه الدنيا منحة من الله ولابد من قبول أوامر الله فى هدوء وأن هدفهم على العموم هو الحياة الخالدة وأنهم يتكيفون مع مطالب الزمن فيما يتعلق بشئون هذا العالم .

كانت تهرب من هؤلاء إلى أولئك وقد تملكها الاشمئزاز وضعفت عزيمتها تماما إلى أن وجدت نفسها فى الميدان أمام الكنيسة والساعة الموجودة على البرج تدق التاسعة ، انها لم تدق إلا ثلاث عشرة دقة فحسب ، وهاهى الساعة أيضا تواصل عملها ودقاتها أى أنه مايزال يجرى قياس وإحصاء الوقت . ولكن بماذا سيفيدهم هذا كله بينما لاتوجد نقود ؟ ماذا سيقيسون ويحصون ؟ ألم يفقد كتاب الحساب سبب وجوده ؟ أم أنها أيضا قد واءمت بين نفسها وبين الحالة الجديدة كما حدث لكل شىء آخر ؟

وتمنت الآنسة أن يزداد طولها حتى يصل إلى إرتفاع البرج وأن تبصق على هذه الساعة وعلى كل أرقامها ، وأحست أنه بسبب تلك الرغبة المحمومة تنفتح فى نفسها خزانات من غضب مجهول وأن هذا الغضب يغمرها انغمارا شاملا ، فصاحت بكل ماأوتيت من قوة ، ولكنها سمعت صيحتها وكأنها همسة بالنسبة لقوة وشدة الغضب الذى أرادت أن تعبر عنه .

- آه . أيها الأنذال ! آه . أيها الجبناء !

كانت تحس بعزلتها وانهزامها وهى تصيح بهذه الكلمات فى وجه الزمن والعالم أجمع ، ولكنها فى نفس الوقت كانت تشعر بكبريائها وتفخر بحبها الذى لايلين تجاه المال وتحس بشجاعتها اليائسة الأخيرة وباحتقارها لكل شىء . وفكرت الآنسة : أجل . ليس هناك الآن أحد من المدعوين يحرك إصبعا لكى يحمى ويفتقد النقود المقدسة مع أنهم كانوا يحبون تلك النقود حبا جما وكانوا يشتهونها بشدة .. يشتهونها ويحبونها إلى درجة كبيرة ! إنها أفضل من تعرف ذلك لأنها شاهدتهم آلاف المرات فى حالات وظروف مبهجة ومحزنة لايمكن تصديقها . لقد كانت النقود بالنسبة لهم حرمة مقدسة فوق كل الحرمات ، وكانوا يبيعون كل شىء من أجل النقود وفى سبيلها كانوا مستعدين لأن يفعلوا أى شىء . وهاهم الآن فى غضون الليل وقد غدروا بها ونبذوها . تلك هى حالة ذلك الحيوان الموجود حاليا والمسمى بالإنسان ، إنه سيبيع كل شىء .. كل شىء .. لاشىء إلا لكى يستطيع أن يعيش دائما على الأرض وتحت الشمس وفى الشكل الذى ألقى نفسه عليه .

وتصادمت واختلطت بداخلها كل هذه الخواطر السوداء المتقلبة والمشاعر العنيفة للحقد والمرارة والعزلة والدمار الكامل ، ونتيجة لذلك غشيت بصرها ظلمة وخمد صوتها وخارت قدماها وجعلها هذا تخر صريعة على الأرض حيث بقيت وكأنها كومة صغيرة من الملابس النسائية وسط الميدان الموصوف .

وفى هذه اللحظة استيقظت الآنسة ، استيقظت بالفعل ، وتبدد أيضا حلمها المعقد تعقيدا جنونيا مؤلما على الضوء الضعيف لبداية الغسق ، ولم يكن هذا الاستيقاظ الحقيقى أقل عذابا من ذلك الذى كان فى الحلم وتحسست لفترة طويلة براحة يدها الباردة الحاشية الدافئة الموجودة تحتها ، وكانت لاتزال تستشعر فى كل جسدها برجفة الغضب وتحس

بالصلابة القارسة البرد لتلك القطع الحجرية الموجودة بالميدان الواقع أمام الكنيسة . وظل كل شيء حولها يهتز ويختلط لبرهة أخرى حتى إنتصر الواقع وحصلت حجرتها على شكلها الهادىء المعروف . وفي هذه اللحظة كانت الآنسة تقف على قدميها .

وهرعت دون أن تغير ثيابها إلى المكتب وفتحت الدرج الأوسط ذا المغلاق الأمريكي وأخرجت منه حقيبتها الجلدية ونفضت منها كل النقود الصغيرة على المكتب . وكانت هناك ست أوراق من فئة العشرين كرونا وقليل من النقود الصغيرة ، وألقت عليها نظرات وهي تلهث ثم أعادتها إلى الحقيبة .

- هاهو كل شيء على ما يرام ، وكما وجدت تلك الأوراق الستة في مكانها ، فجميع النقود الأخرى فى العالم موجودة فى أماكنها . لم يكن هذا حقا إلا حلما أخرقا فظيعا . لقد كان حلما ثم مضى ، كيف يجوز على الإطلاق مثل هذا الحلم ؟ وأى علاقة توجد بين الاستيقاظ والمنام .

وشعرت نتيجة لهذه الأفكار بخدر بسيط كالثقل ولكنها لم تفكر في ذلك ، وأحست ببرودة فعادت إلى السرير الذى كان لايزال دافئا وقلبها يدق فى قوة وعدم إنتظام وأنفاسها تتلاحق ، ولكن دفء السرير والأمان الطيب للواقع أسرعا فى تهدئتها . وسبلت عينيها بشدة وإستغرقت فى النوم مرة أخرى وهي تهمس بكلمات لوم حالمة غير واضحة وكأنها تهتهه .

وأفاقت من النوم كالعادة قبيل الساعة السابعة بقليل . وأخذت عدتها وتناولت افطارها ثم إتجهت إلى المتجر . وخلال الطريق ظل يصحبها شعور بالنفور والضيق نتيجة لحلم ليلة الأمس . ويدور بخلدها فى بعض الأحيان شك فى الواقع كظل سريع .

وعقب وصولها إلى متجرها ألفت على الباب ذاته حامل البريد الذي كان يحمل فعلا بعض الحوالات المالية . وأحست النقود في إضطراب مرة ومرتين حيث خامر ذهنها ثانية ريبة في الواقع كظل شديد السرعة . حينئذ فحسب وقعت على الحوالات ورفعت رأسها وهي تمسك بالأوراق النقدية ملتصقة بها ورمقت حامل البريد بنظرات مباشرة فاحصة . لقد كان هذا هو الوجه المعروف المحمر المنهك القديم (وكأنه يقول : إن العمل ليس صعبا ولكن الراتب ضئيل والأولاد كثيرون والحياة مضنية على الدوام .) ولم يكن هناك أى أثر لتلك الابتسامة الوقحة وذلك الغمز الخبيث الذى رأته في المنام - أى أن الحالة جيدة ولم يتملكها الهدوء التام إلا الآن فحسب .

فوضعت كلتا يديها على المكتب القديم الصغير وضغطت بشدة براحتي يديها على القماش الأخضر المتخضب بالحبر وتنهدت .

أما حامل البريد فقد توقف لحظة وتملكته رعشة بعد أن خرج من المتجر البارد القليل الضوء إلى شمس الصباح ونفض عن نفسه إنطباع هاتين العينين المفتوحتين الجزعتين النفاذتين وقد تملكه قلق داخلي سريع . ثم واصل سيره وهمس إلى نفسه دون أن يصدر صوتا وهو يتخذ الجانب الذى تغمره الشمس :

- إن رأيكا هذه لها نظرات قطيعة ! لافائدة ياأخى من كل ثروتها . أيها الناس . إن لها نظرات مريعة !

وهكذا تتعذب الآنسة في الليالي الدافئة وتتعذب كذلك بسبب الأرق ، والصيف لا يتحرك ، وشهر أكتوبر لايزال مفعما بالدفء والخضرة ، والأيام والأسابيع تبدو طويلة طولا لانهاية له لأن الحوادث تتتابع وتتجمع وتتوتر كما يحدث لنهاية الأصوات الموسيقية فى السيمفونية التي يبدو كل صوت منها أنه الأخير وبعد كل منها يأتي صوت جديد في إصرار وبلا توقع . ومع ذلك فقد حل اليوم الأخير .

فقد حدث للآنسة - كما يحدث دائما لمثل هؤلاء الناس - أنها لم تلحظ متى تحقق ما كانت تخشاه أيما خشية والذى توقعته عدة مرات وتصورته في أفكاره بتفاصيله الدقيقة .

وفى هذا المكان تتلعثم ذكرياتها ، إنها لا تنطفيء ولاتتوه تماما و إنما تشبه الفيلم المتقطع ، فهو يعمل ويتحرك ولكنه لايقول ولايبين شيئا سوى خطوطا وبقعا قاتمة مضطربة .

ففي يوم من أيام شهر أكتوبر . يوم يشبه جميع الأيام الأخرى لم يقل فيه وحشها ولم يزد أملها ولم تتوقع شيئا أكثر من المألوف أشرقت على المنازل أول الأعلام ذات الألوان الثلاثة (هو علم الدولة المستقلة الجديدة فى صربيا) . وراح الشعب يقبل بعضه البعض ويتعانق فى الشوارع باكيا من الفرحة . هاهي الدموع مرة أخرى !! ولم يحضر فيسو فى ذلك اليوم ولم يفتح المتجر . وسارت الآنسة خلال المدينة كشخص أجنبي بائس ، ولم يعانقها ولم يصافحها أحد . ومع ذلك فقد تملكتها رجفة نتيجة لكراهيتها الفطرية تجاه التقبيل ونتيجة للضيق الذى تثيره فيها تلك الدموع الأزلية والانفعالات الكبيرة والمشاعر الجمهورية المتدفقة وجميع الأحاديث والكلام بوجه عام .

كانت تجلس فى المتجر البارد وقد توقف شعرها وحالت بخلدها مروضها

واستفزازاتها المعتبرة . إن هذا الأمر لايمكن أن يمضى بلا خسارة جسيمة . لقد أصبح ذلك جليا . ولم تكن تفكر إلا فى تقليل الخسارة إلى أقصى حد ممكن . وأعملت الفكر بسرعة وكان عليها أن تنقذ من النار أو من مصيبة أثمن الأشياء لديها وأكثرها تعرضا للأخطار وليس أمامها إلا دقيقة أو دقيقتان من الزمن . وأفاقت من هذه الأفكار على خطوات حادة وأصوات منفعلة . ووصل فيسو فى صحبة بعض الشباب وكان بعضهم يحمل سلاحا ويتحدثون وهم يتحركون فى حيوية . وظنت أنهم شالى وأرادت أن تتحدث مع فيسو ولكنهم لم يمكنوها من الكلام . وكانوا جميعا ينظرون إليها شزرا وهم يقطبون وجوههم ويطرقون وكأنه ليس بمقدورهم أن يروها رؤية جيدة وأن يتعرفوا عليها بسبب صغرها . ولم يكن فيسو بحالة أفضل منهم . إنها لم تره مطلقا - قبل أو بعد ذلك - على هذا الحال من الانفعال . فهو يلوح بيده فحسب وتنهمر من فمه جمل لا إرتباط بينها .

- دعى هذا الآن ياأريكا . من يهتم بذلك فى الوقت الحالى . لو مات المرء لما حزن مادام قد شاهد ماحدث اليوم . إذهبى إلى منزلك . ألا ترين مبلغ سعادتنا .

ولم تكن ترى شيئا . وكانت عيناه ملتمعتين ووجهه النحيف الأسود يشرق ويحمر .

ولكن بعد ذلك لم يمض كل شىء كما كانت عليه تلك البداية الطبيعية ففى المتجر والشارع بل وفى منزلها طفق المعارف وغير المعارف والمدعوون وغير المدعوين يسخرون منها ويستهزئون بها بملاحظات تهكمية وبدأ بعضهم يعنفونها بصراحة وفظاظة بسبب سلوكها أثناء الحرب . إنها لا تتذكر ولاتريد أن تتذكر كل ما إضطرت إلى معاناته فى ذلك الحين . فقد كان كله أسوأ وأقسى مما كان بامكانها أن تتصوره قبل ذلك . وحسب سلوك وكلام أولئك الذين كانوا يتهكمون عليها فى تشف أو يهاجمونها بصراحة خمنت المقدار الذى لابد أن يكون عليه إثمها فى عيونهم . ولكن مهما إجتهدت وأمعنت الفكر فلا يمكنها أن ترى أخطاءها ، ولاترى إلا بغضهم المبهم وسعيهم إلى أن يعيدوها إلى الوراء وأن يصيبوها بأضرار وأن يضعوا لها العوائق فى كل عمل . وعندما تقرأ فى الصحف المقالات والخطب التى توصف فيها المطاردات والمشاق التى

حدثت فى سنوات الحرب السابقة فإنها تتساءل هل يجوز أن كل هذا قد حدث فعلا فى نفس البلد ونفس المدينة التى تعيش هى فيها ؟ وفى بعض الأحيان يبدو لها أن جميع هؤلاء الناس قد فقدوا رشدهم فجأة عندما عداها لذا ينظرون إليها شزرا بهذه الطريقة ويشتمونها بلا رحمة .

وبالنسبة للأشخاص أمثال الآنسة فانه لابد وأن الدنيا فى معظم الأحوال تبدو لهم جحيما . ولم يمكنها فعلا أن تفطن إلى العلاقة السببية بين ما يحدث لها وما كانت تفعله وتشاهده وتسمعه فى عامى ١٩٦٤ و ١٩٦٦ نظرا لعدم إحساسها بسلسلة كاملة من القوانين الاجتماعية والمشاعر والانعكاسات الخلقية للانسان ولعدم قدرتها على ملاحظة وجودها فضلا عن إدراكها للنظام وتأثيره الوئيد العنيد . وتجد فى هذا الأمر المشقة الأساسية لعذابها وآلامها الحالية . إنها لم تكن تعرف أن العنف والظلم يثيران الانتقام وأن الانتقام أعمى ودائما مايتعملونه عن يقضى عليهم كأشد أنواع الظلم سوءا . ولم تكن تعرف كذلك أن الحسد والشر الانسانى الغريزى ينضمان على الدوام إلى أكثر العقوبات ظلما ، ولم تكن تعلم شيئا على الاطلاق عن الطغيان والظلم وعن العقاب والانتقام ولكنها رأت فى جلاء أنها تقف مع الجانب الذى تساء معاملته ويتكبد الخسارة . وإنها فعلا تتكبد الخسارة وفى كل يوم يهددها خسران جديد جسيم . ولاتجرؤ على الظهور مطالبة بتسديد الديون ولايفيدها أن تظهر فالأعمال متوقفة والمحاكم خالية والبنوك معطلة بالفعل ، والآجال لاتلتزم والأسهم والسندات ترقد ميتة لاقيمة لها ، وجميع الجهات تطلب منها تبرعات ولايدفع أحد الديون وكأن نهاية العالم ستكون غدا . أما الصحف فتكتب عن ضرائب لصالح الحرب وعن مصادرة الأملاك وعن خطط صغيرة وعظيمة لابد - بمقتضاها - أن يؤخذ من أولئك الذين يملكون المليارات لصالح الذين لايملكون شيئا . يبدو للآنسة أن جميع الدول والشعوب قد عزمت على إنهاء حياتها بالانتحار فى عربدة صاخبة ، وعزمت كذلك على الأكل والشرب وفقدان رشدها والانفاق إلى أن يترك المليم الأخير جيب آخر إنسان .

لقد تحرك كل شىء ضدها .

وفى بداية شهر أكتوبر وفى أحد أيامه قدر لها أن ترى بعينيها الانهيار الكامل التام لرافو فقد مرت ذات صباح من شارع فرهاديا لكى تتجنب

الشوارع الرئيسية التي تغص بأفراد الشعب المنفعل المتحمس . ورأت أمام حانوت رافو القديم حشداً من الناس وسمعت صيحات عالية وموجات من الضحك الصاخب . والتفتت في هلع ولمحت وراء الحاجز التاجر رافو وهو يقلب بيدين قاتمتي اللون بعض الخضروات الذابلة . وكان قد أصبح غاية في النحافة ، مصفر الوجه كئيباً ، عاري الرأس ولايرتدي رابطة عنق ، والحلة التي يرتديها ليست نظيفة ولامهندمة . وكان يدير عينيه في وجل ويتحدث بشيء لم يكن بإمكانها فهمه بسبب المقاطعات المستمرة والضحك الجمهوري للمحتشدين . ولاتسمع بعضاً من كلماته إلا عندما يرفع صوته قائلاً :

ـ هاهو الطعام بالمجان ! لابد أن يأكل الشعب ... إنني أعلم إذا لم يكن الآخرون يعلمون ... لابد من الأكل ... هاهو !

أما الشعب فكأنه فجأة لم يعد يشعر بالجوع فراح يسخر من هذا العليل وينظر إليه بحب استطلاع لارحمة فيه كحب الاستطلاع الذي يشاهد به الناس أكثر المناظر حزناً بمجرد أن يشعروا بعدائهم الكبير .

وكان البعض على قدر من الخشونة والتشف ، يقولون له :

ـ احمل هذا إلى منزلك يارافو وكله بمفردك .

ـ هل تركت لك المرحومة النمسا ... هذا أمانة لديك .

ـ اتخفي الملايين العديدة وتقدم للشعب الآن الكرنب لكي يأكله .

وكان البعض الآخر على قدر من دماثة الخلق ويتقبلون الأمر من جانبه المرح ويلقون عليه اللوم في أنه قد أصبح تاجراً تقدم به العمر وأن هذا ليس إلا نهاية . أما رافو كونفورتي فقد وضع يده على صدره كما كان يفعل في وقت من الأوقات منذ سنين عدة . وأخذ يتبسم ويمدح بضاعته ويجتهد في أن يرد على كل ملاحظة مؤكداً وهو يبكي أن شغله الشاغل هو ألا يتضور الشعب جوعاً . بيد أنه في ذلك الحين كان على قدر من الصحة والابتهاج والنشاط كالنحلة . أما الآن فإنه يرتبك بشكل محزن ويخلط الكلمات الحصحوبة بحركات عاجزة لامعنى لها .

وأدارت رأسها وأسرعت في السير حتى لاترى بؤس وانهيار الرجل الذي من الممكن أن تقول عنه أنه كان صديقاً لها ، إذا ما كان هذا المفهوم موجوداً في وعيها .

وفي نفس اليوم أخذوا التاجر رافو الى مستشفى الأمراض العقلية . وتقضت الأيام والأسابيع ولم يتوقف الانفعال والسرور والفوضى في

المدينة ، بل على العكس بدا لها أن الحياة برمتها ستتبدل تبدلاً جذرياً . لقد دخلت الفرق الأولى للجيش الصربي سراييفو ، وتوالت الاستعراضات والاحتفالات والولائم وصلوات الشكر ، ووصلت الوفود وظهرت الصحف الجديدة وتغيرت أسماء الشوارع والمؤسسات . وتجلى للآنسة أن هذا ليست إحدى المعجزات التي تستمر ثلاث أيام فحسب .

وفي العام الجديد بدأت تصدر جريدة يومية جديدة باسم « العلم الصربي » . وكان الواجب الأساسي لهذه الجريدة اليومية للغاية أن تعين وتفضح جميع أولئك الذين ارتكبوا خلال الحرب السابقة أخطاء في حق شرف الشعب ومصالحه . وكان يتم توجيه هجوم حاد الى الأفراد والمؤسسات في باب خاص يبدأ بالكلمات الآتية : « باسم النظام والعدالة والأمن نطالب ... » وهنا جرى في إحدى المرات ذكر الآنسة أيضاً . وفي الحقيقة لم يكن ذكرها بالاسم ولكن في تورية واضحة بينة . وقد ذهب أحد أقربائها إلى رئيس الصحيفة الذي يعرفه معرفة جيدة وأقنع في أن يوقف الهجمات التالية .

ولكن ما أمكن الوصول اليه لدى صحيفة واحدة لم يمكن بلوغه لدى الصحف الأخرى . فقد هاجمت صحيفة « صوت الأمة » ، التي صدرت مؤخراً ، في باب المحليات جميعاً مرابي الحرب مثل « رافو كونفورتي » ومن شابهه » . وهنا جرى ذكر اسم رايكا راداكوفيتش عرضاً ولكن بشكل صريح . وقد انضمت اليها الصحيفة الديمقراطية الاشتراكية « الحرية » التي بدأت تصدر مرة أخرى وذكرت هنا الفوائد الفاحشة والأعمال التي لاتطيق النور والعناكب التي لاترحم وتصيب المجتمع والشعب بالضرر . وفي هذه المقالات تمت مطالبة الحكومة بأن تقوم لجنة خاصة بالتحقيق في عمل ومكاسب جميع مرابي الحرب . وتنبأت الصحف أن « مجتمعنا سيلفظ من وسطه الى الأبد بأي حال من الأحوال مثل هؤلاء الأفراد غير المحترمين المضرين بغض النظر عن صلاتهم ومراكزهم العائلية » .

وفي ذلك الحين بدت تلك التهديدات جادة وخطيرة بالفعل . وكان الجميع يقرأون كل ذلك ويعيدون روايته وتفسيره في المدينة وفي العائلة وحتى في منزل رايكا .

ونظراً لعدم رؤيتها لأي شخص لم يكن بوسعها أن تعلم على وجه الدقة جميع ما يقلنه الناس بها ويقولونه عنها . وقد تكشف لها هذا على فترات

وبالصدفة . ففي احد ليالي الخريف استيقظت فجأة وهي تشعر بان هناك من يخنق عنقها وان قلبها يمنعها من التنفس . (وهذا كثيرا ما يحدث لها في الفترة الاخيرة) ونهضت في عجلة وفتحت النافذة مجتهدة في ان تتنسم الهواء الليلي اللطيف باسرع وباكثر ما يمكن . وقد سمعت . وهي تقف لاهثة عالية في الجزع بجوار النافذة المفتوحة ، بعض السكارى في الشارع بجوار نهر ميلياتسكا ينادون بعضهم بصوت عال ، وانطلقوا مع الصياح والسب والضحك . وتوقف إثنان منهما واستندا بجوار منزلها ، وبظلا الجدار الموجود تحت نافذتها مباشرة وهما يلقيان السباب وقد تملكهما الفواق . واستمعت إلى حديثهما الثمل المفكك خلسة ، فقال السكران الاول متشاكيا

- لقد اصابني البرد بسهولة وليس بغريب لان نعل حذائي ملئ بالثقوب . وهاهو اليوم عيد القديس ارانجيل ولا املك بعد معطفا شتويا ولا ادري كيف ساحصل عليه .

- العرقي المدمر لايسمح لك !

- ليس هذا ياأخي - ليس والله ! فاليوم لو لم يكن الاحتفال لما تعرفته .

وتحرك احد الثملين ودقق النظر حوله في حماقة وهو مزرر البنطلون مستغرقا فترة طويلة .

- اتعرف ان هذا هو منزل رايكا راداكوفيتش ؟

ونعتها الاخر وهو يقف بجوار الحائط باسم فظيع وسبها بشيء قبيح لم تسمع به الانسة من قبل ولم تفكر بانه يمكن ان تشتم به ... سبها باحدى تلك السبابات التي ترتبط فيها الارض بالسماء في فكرة وحيدة مذنبة .

- يقال انها تاجرت مع النمساويين خلال الحرب .

- اثناء الحرب وقبل الحرب ايضا ، فمنذ عدة سنوات وهي تقرض النقود بالربا . لقد سمعت هذا والناس يقولونه في الحانة . ولايوجد مثيل لها بين المرابين في البوسنة كلها . وهي تفعل كل ذلك خفية وسرا وتتظاهر بان كل شيء بامانة وحسب القانون . اقول لك انها وحش شرس ولم تتنسك لاحد من اي شيء . إنها لاتعرف الروح او الصليب وتقوم فحسب بجمع القرش على القرش ولم ير احد منها ابدا ولو قليلا من الخير ، بل ولاتقدم البخور إلى الله .

- ان من الثواب قتلها ؟

- وانه لقليل عليها القتل . اود ان احرق هذه المخلوقة البدينة كما يغنون

ي الاغاني . فاقودها إلى مفترق الطرق والبسها قميصا مخضبا بالقار اشعل النار فيها حتى تحترق كالشمعة . تماما كالشمعة .

وانطلق كلاهما وهما يسبان ويتعثران وراء رفاقهما الذين كانوا ينادون عليهما من الظلام .

واسرعت الانسة باغلاق النافذة ورقدت بسرعة . لقد كانت تعلم على وجه التقريب ماذا يظن بها اقاربها وجميع من يسمون باقرباء ، الطبقة الممتازة ، . اما الآن فقد سمعت باذنيها ايضا الشعب والمساكين الذين يجوز انهم لم يروها مطلقا في حياتهم . وانهم جميعا مع بعضهم يشكلون دائرة ثابتة مشبعة من الكراهية تضيق حولها اكثر فاكثر . وراحت تفكر والقلق يتملك قلبها وهي شاردة الفكر في كيفية الهروب والى اين تختفي من هؤلاء الناس الذين لايملكون حتى معطفا شتويا يرتدونه ويتدفئون بالحقد والعرقي ولديهم متسع من الوقت لان يحصوا مكاسب الاخرين ولديهم الخيال لكي يعدوا للاخرين قميصا مخضبا بالقطران واكثر وسائل الموت بشاعة .

وفي شهور الشتاء تلك حدث لاول مرة في حياتها ان توقفت عن زيارتها الاسبوعية لقبر والديها . ومكثت بالمنزل وهي تفكر في ذلك القبر ولكن لم تكن لديها الشجاعة لان تخرج في الشارع . فالخوف من مقابلة الناس كان اقوى من كل شيء اخر . والآن ترتعد من تفكيرها في العابرين وفي نظراتهم او تعليقاتهم وهي التي لم تهتم مطلقا بالناس بل لم تكن تعيرهم التفاتا . وإنقطعت عن الذهاب إلى المتجر . ولم يعد بامكانها ان تفكر في اي مكسب . كانت جميع الابواب مغلقة امامها . وقد نصحها فيسو بان تعتزل الناس لبعض الوقت .

كانت مديدة وقبيحة تلك الشهور التي إضطرت فيها لان تختفي في غرفتها حتى عن اقرب اقربائها ، وكان الهجوم عليها فيها شديدا للغاية لدرجة انها إضطرت لان يتملكها الخجل بالرغم من انها نفسها لم تكن تعرف مما تخجل لان احساسها باحد الذنوب لم يتغلغل ابدا إلى نفسها ولو للحظة .

ولم تكن تعتقد قبل عدة شهور انه يوجد اى شيء في العالم يمكن ان يكون اقوى من إرادتها وان يبعدها بعدا كاملا عن النضال . وهي الآن ترى انها بالفعل مبعدة وضائعة ومهزومة . دون ان تعرف بنفسها كيف ومتى حدث ذلك ؟ . بواسطة قوة خفية لا تسمح بان تعبر الارقام عنها او ان تقدم

لديها رشوة نقدية ولايمكن عمل أي شيء ضدها . وتساءلت دون جدوى عن مدى تأثير قوتها الباردة واحتقارها الكئيب لكل شيء . وفي الوقت الحالي ليست لديها قوة ، والاحتقار يعود إليها وقد تضاعف ثلاث مرات . وأدركت وهي تجلس كالسجين في منزلها ـ انها لن تقدر على التحمل مالم يحدث وما لم يقصيها الزمان والمكان ويبعدانها عن سرايفو هذه ، وهو المكان الذي حدثت فيه هزيمتها . ولكن الزمان يبهجها بلا رحمة وليس لدى أعقل أو أغنى إنسان القدرة على أن يختصره أو يطيله ثانية واحدة . يبقى المكان إن الرحيل وعدم البقاء هنا يعني إمكانية أن يعيش المرء من جديد بآمال وقوى جديدة . هذا الرحيل يكاد يكون مثل أن تنسى وأن تكون منسيا ، أي تجد الخلاص . والرحيل شاق ومؤلم ولكنه ليس بمستحيل .

واتفق جميع الأقارب على أنه من الأفضل بالنسبة لها ولسمعة العائلة كلها أن ترحل عن سرايفو لبعض الوقت على الأقل . واقترح عليها البعض إقامة قصيرة في دوبروفنيك ، والبعض الآخر اقترح الانتقال إلى بلغراد . ولأول مرة في حياتها أعلنت رأيها ، لأنه بالفعل لم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه . وبمرور الوقت قد يهدأ الأمر ويتم نسيانه لو كانت لديها الرغبة في السكون هكذا بالمنزل نصف سنة أو سنة كاملة في عزلة تامة لاتتحدث ولاتعمل شيئا . ولكن ذات الفكرة بأنها بعد كل الاضطرابات والخسائر التي تكبدتها في الفترة الأخيرة ـ لابد أن تبقى بلا عمل وأن تعيش من رأس المال دون أن تستثمر أو تكسب شيئا ـ تجعل قلبها يتوقف وتدفع الدماء إلى رأسها وتقطع أنفاسها . وتصورت مقدما كيف ستنفق وتنحسر وتقع أخيرا فريسة للفقر والبؤس . وأصابها الاختناق نتيجة لهذه الفكرة . إنها ستذهب لا إلى بلغراد بل إلى المستعمرات البرية القاصية ولكنها لاتستطيع أن تطيق ذلك .

وخلال الصيف تقرر أن تنتقل مع أمها إلى بلغراد حيث يقيم خالها جورج حاج فاسيتش منذ زمن . وقد وافقت الأم ، كما كانت على الدوام توافق على كل شيء ، وهي تطرف بعينيها وتذرف العبرات . وأخذ فيسو على عاتقه إدارة المتجر والعناية بمنزلهم الذي سيؤجره

الفصل السادس

في عام ١٩١٩ تركت الآنسة مع والدتها سرايفو وحملا معهما عدة صناديق وحقائب وحزما الأثاث الضروري جدا ، وعهد إلى فيسو بإرساله عن طريق السكة الحديدية عندما يبلغانه أنهما عثرا على مسكن في بلغراد .

وكان هذا السفر طويلا متعبا مكدرا من جميع النواحي . وكانت القطارات تسير في تؤدة وبلانظام ، والعربات بدون زجاج على النوافذ ومقاعدها مقلوبة وجلدها أو قماشها ممزق . وكان هجوم الناس شديدا لدرجة أن الرشقاء والمتهورين كانوا يدخلون من نوافذ العربات . وكان هؤلاء الناس الذين يتدافعون تدافعا خانقا حول المدخل ويجلس كل منهم على ركبتي الآخر أو يلقون في الممرات ـ على قدر من القذارة في الغالب ويرتدون ملابس رثة وتفوح منهم رائحة البصل والعرق ويتصرفون في خشونة بل وتكاد تكون تصرفاتهم سوقية . وكانت حالة المحطات التي كانوا يمرون عليها أشبه بالحالة بعد فيضان لامثيل له فالجدران بدون طلاء والأسوار محطمة والمزروعات موطوءة . والموظف الذي يرتدي القبعة الحمراء وينتظر القطار يبدو كالمجرم والبائس . ولأول مرة تجلت للآنسة الحرب بمعناها الحقيقي . بالدمار الذي تنشره والآثار العميقة التي تحفرها بسرعة وتمحوها ببطء . وترى الآن أنها لم تعرف الحرب معرفة جيدة في تلك السنين الأربع وهي تعمل وتكسب وتهرب من كل شيء شاق وخطير ، وبدون أن تشترك بأي شيء تقريبا في العصبية والمحنة العامة وهي تعيش في منزلها من مالها وكما كانت تعيش في وقت السلم بنفس الأسلوب تقريبا من جميع النواحي . وحينما انطلقت بعد أن ضاعت أموالها إلى هذا السفر الطويل المتعب والمحير بدا لها أن كل ماحدث في الشهور الأخيرة لم يكن من العسير عدم احتماله وأنها أخطأت برحيلها عن سرايفو . ونسيت بسرعة كل ماكان يطاردها في سرايفو ، وباستمرار كانت تظهر أمام عينيها جميع الخسائر التي يحملها هذا الرحيل . وكانت تلك المجاهيل وكل كلماتها وحركاتها تهددها وتحرك مشاعرها وكذلك كان يطل ضعفها الداخلي وترددها ولكن بدرجة أكبر . إن كل شيء يعوقها ويشغلها وخاصة أمها بجنونها الثابت وابتسامتها الوادعة وإخلاصها التام تجاه كل شيء . وكانت تشعر وكأنها ذاهبة إلى المنفى أو أنها هاربة إلى مكان لاتعرفه هي

وفي مدينة «سلافونسكي برود» لبثا في الليلة الباردة الممطرة خمس ساعات كاملة لكي يغيرا القطار . وبالرغم من بذلها أكبر قدر ممكن من الانتباه فقد سرقت منها إحدى الحقائب . وقد جاوز ذلك الحد فوقفت الآنسة تصرخ وكأنهم يبترون عضوا من أعضائها على الرصيف في الضوء الضعيف بجوار القطار الكبير الذي كان يخرج بخارا أبيض . وراحت تستغيث بالله وبالناس ضد هذا الاغتصاب الخسيس ولكن الناس حولها كانوا يتحركون ويتدافعون ويتعثرون في حقائبها . وما من أحد يرد عليها أو يواسيها أو يساعدها . وبمشقة بالغة نجحتا في أن تصلا إلى قطار بلغراد الذي كان يئنوء بالركاب أيضا مثل ذلك القطار الخاص بالبوسنة وكانا يقفان في الممر وسط تيار الهواء والآنسة تتحسس ما حولها وتعد الحقائب . وبدا لها أن قطعة لحم من جسمها قد قطعت وأنها لن تصل مطلقا إلى المكان الذي تقصده وأن مدينة بلغراد تلك ليست إلا خدعة ووهما في هذا الليل الذي تسرق فيه قوى خفية وتخطف بلا دفاع أو عقاب .

ولم تصلا إلا قبيل ظهيرة اليوم التالي إلى حي زيمون . وكان الجو باردا شاحبا . ولم يواصل القطار سيره بسبب تهدم جسر سافا . وركبتا مركبا مكتظا للغاية دون أن يبلغا وقد تملكهما العطش وعلاهما الغبار والهباب وهما تسيران في الوحل العميق وراء الحمالين . وانتقلتا إلى بلغراد ووصلتا مع الغروب إلى منزل حاج فاسيتش بشارع سميليانيتش .

وكان الاستقبال الذي لاقته المرأتان في هذا المنزل مناقضا تماما كما وكيفا لكل ما حدث لهما في الطريق لدرجة أنهما بقيتا لأول وهلة في حيرة وتسمر بجوار الحاجيات المتراكمة . وكان المنزل المريح الواسع يتلألأ من النظافة وتتضوع منه رائحة النظام والثراء . واستقبلتهما استقبالا حارا ودياربة المنزل ، السيدة ميرسا المشهورة في العائلة وفي المدينة باسم سيكا . وابنتاها الكبيرتان دانكا ودارينكا . وقدمن لهما الفواكه المسكرة والماء ، القهوة وذهبن بهما إلى حجرة دافئة من حجرات الفناء لم تكن كبيرة وكان بها سريران عليهما وسادتان كبيرتان غاية في البياض وحاشيتان من الحرير الأصفر . وبينما كانتا تغتسلان وتستعدان وصل رب الدار بنفسه . وكانت هناك عبرات وعناق وتلك اللحظات الاستثنائية التي ينفصل فيها المرء عن حياته اليومية ويعيش لبضع ساعات حياة أخرى

قوية أكثر ثراء . وحتى الآنسة لم تستطع أن تتخلص من شعور الراحة المؤقتة وانعدام الهموم .

وأثناء تناول طعام العشاء في حجرة الطعام المضيئة حيث اجتمعت العائلة كلها تعرف الأقارب على بعضهم معرفة أفضل .

منذ حوالي أربعين عاما ترك جورج حاج فاسيتش وهو تلميذ مدينة سرايفو ولم يعد إليها بعد ذلك مطلقا . وقد ترعرع في مدينة بلغراد عند عمه حاج بيتار حاج فاسيتش . وهو تاجر معروف وعضو في عديد من الجمعيات الخيرية . وورث عنه المتجر الموجود بشارع الأمير ميهايلو وتزوج مؤخرا من بيرسا الأرملة الشابة التي لم تعش مع التاجر إيراكليديس إلا سنة واحدة . وكانت في الأصل من بيت غني لتاجر حديديات يدعى ستانيكوفيتش من منطقة نهر السافا . وفي السنوات الثلاث الأولى أنجبت ثلاثة أطفال ، أولهما ولد ثم فتاتان . وفي عام ١٩١٥ هرب التاجر جورج إلى فرنسا وكان ابنهما الوحيد مجندا في الجيش . وعندما تم تسريحه ذهب هو أيضا إلى فرنسا حيث أنهى دراسة الحقوق في مونبلي . وظلت سيكا مع الفتاتين في بلغراد وبفضل علاقاتها العائلية وبفضل حزمها وتدبيرها حفظت منزلها وأنشأت البنتين نشأة حسنة . ويعمل التاجر جورج الآن لتجديد تجارته والتحق مبدئيا بالبنك المركزي وتبحث سيكا عن عريسين لفتاتيها اللتين بلغتا سن الزواج .

والتاجر جورج الآن سيد حسن على قدر من الصحة والنظافة والأناقة يقترب من الستين أكثر من اقترابه من الخمسين . وله مثل والدة رايكا نفس العيون الشقراء الصافية ذات النظرات الرقيقة الموجودة بعائلة حاج فاسيتش . (كل منهما في هذه الليلة لا يستطيع أن يطيل النظر للآخر وبمجرد أن تتلاقى نظراتهما تطرف عيونهما وتذرف عيناه الدمع أمامي فلتتحسر) . وعيناه الشقراوتان تنسجم انسجاما غير عادي مع شاربه المهذب وشعره الأشيب كله . وهو من جميع النواحي من طراز تجار بلغراد القدامى المتعلمين . الطراز الذي كان يحتفظ في تصرفاته تجاه الناس بالاحترام والتحفظ وأصبحت تلك الرقة المحترفة البالغة من طباعه . وهو يمشي في هدوء ويسير سيرا وئيدا ويتكلم قليلا ولا يفشي ما يفكر فيه بأي شيء (وحتى جهده في التفكير لا يبدو على وجهه) . إنه فحسب ينظر إلى المرء مباشرة ، ومثل جميع أفراد عائلة حاج فاسيتش يطرف بعينيه طرفا يسيرا تصعب ملاحظته . ويكون هذا على درجة من اللطف والسرور بحيث

أن كل جليس معه يشعر أن تلك علامة لميل خاص وثقة شخصية نحوه.

ويرتبط التاجر جورج بالسيدة بيرسا زواج عادي، غاية في السعادة والنجاح. وهي إمرأة قوية بدينة أكثر من اللازم، بشرتها بنية اللون وكلماتها حية وعيونها سوداء متوهجة، ووجهها يوحي بالصفاء والمهارة ويؤكد ذلك شعرها الغزير ومايعلو فمها من شعر خفيف أسود. ولم يضعف الجهد الذي تبذله في تربية بنتيها وإدارة منزلها إدارة حكيمة أثناء فترة الاحتلال النمساوي - من قوتها ولم يقلل من رغبتها في الحياة.

وكبرى البنتين تشبه أمها والصغرى تشبه والدها. فهكذا تشابه أمها، فوق شفتيها شعر خفيف وإمتلاء جسدها ينذر بالبدانة، ويبرق عينيها الزرقاوين الذي به قليل من الوجل يوحي بنفس السرور والحزم في الحياة. أما داريتكا فهي من طراز حاج فاسيتش، فهي هيفاء شقراء العينين لها نظرات هادئة متأملة لايختفي وراءهما حزن أوهم.

وميشا شاب حسن النمو يبلغ من العمر ٢٥ عاما، أشقر العينين كوالده، حسن التربية ويهتم بأناقته، متكلف في حديثه وحركاته أكثر من اللازم بالنسبة إلى عمره. ومن المؤكد أن هذا الشاب لن يتحقق ويدرك مطلقا النظام الجديد لاقتصاد الدولة، ولكنه بالتأكيد أيضا لن يخطيء في تطبيق النظام الموجود حاليا. كل شيء يرتديه منسق وكل شيء يلمع بسبب الأشياء الذهبية العديدة التي يرتديها فهناك خاتم ذهبي بختم في يده اليمنى وصندوق سجائر ذهبي وقلم ذهبي في سلسلة ذهبية وساعة ذهبية مثبتة في أسورة ذهبية حول معصم يده اليسرى. وعند كل حركة ينعكس بريق أحد هذه الأشياء لمعانا قصيرا لاتكلف فيه.

هذا هو حال العائلة التي استقبلت الآنسة ووالدتها استقبالا وديا يليق بالأقرباء. وكانت السيدة رادويكا في منتهى السعادة، ولأول مرة بعد سنتين عديدة رفعت رأسها في تلك الحياة العائلية الأليفة وشعرت هي الأخرى أنها تعيش كشخصية حرة مستقلة متلحمة، ومع كل يوم تزداد حيويتها وسرورها وكأنما قد تناولوها من البدروم المظلم الخانق إلى الشمس.

وأحست الآنسة في الأيام الأولى بالراحة والدعة، فلا يسألها أحد عن حياتها في سراييفو، وكل شيء يبدو بعيدا منسيا، وبلغراد مدينة كبيرة وكل مافيها مجهول بالنسبة لها وهي تعد غير معروفة للجميع، ولكن عقب إستشعارها بلطف أول راحة أصبحت مكتئبة منطوية كما كانت على

الدوام، وما انفكت تقترب وتنطوي على نفسها. ولم تعجبها مطلقا هذه الحياة البسيطة الرحيبة المرحة في منزل خالها مع الفتاتين البالغتين بهذه الحرية والسخاء في كل شيء، في الضحك وفي الكلمات وفي المال، التي تبعدها وتقصيها وتهينها. وبدت لها حياتهم كلها لاقيمة ولاخطة لها، حياة عديمة المبالاة محفوفة بالمخاطر لدرجة أنها تحيرها وتقطع عليها أفكارها المعتادة وتعوق خططها. ولما رأت أنها لاتستطيع تغييرها أو أن تفرض عليهم مفاهيمها تمنت أن تتواجد بأسرع مايكون في منزلها بعيدا عن هؤلاء الفتيات المرحات من قريباتها وبعيداً عن ذلك الوسط الصاخب النشيط. وإنتظرت بفروغ صبر أن يصل اثاثها الذي كان قيصر قد أرسله، وأثناء ذلك الوقت كانت تبحث دون كلل لشراء منزل بأحد الشوارع القاصية حيث الأسعار لم تقفز بعد بدرجة كبيرة كما حدث في وسط المدينة. وقد وجد لها التاجر جورج بفضل علاقاته منزلا صغيرا في شارع ستيشكا، ثم وجد لها كذلك عدة عروض مماثلة وتجرى حولها في الوقت الحالي مفاوضات عديدة شاقة.

وتشعر الآنسة بمشقة خاصة من كثرة الزوار الذين تستقبلهم سيكا المشهورة بإكرامها الضيوف وتريد أن تقدم لكل ضيف أخت جورج الآتية من البوسنة مع إبنتها وكان يوم الثلاثاء، وهو يوم الزيارة الأسبوعي لدى سيكا أبغض يوم في الأسبوع بالنسبة للآنسة.

وكان منزل حاج فاسيتش يعد من المنازل الحسنة في هذه المنطقة قبل الحرب. فهو منزل أرضي بسيط ولكنه واسع، وقد تم ترميمه وطلاؤه بعد الحرب، وله فناء منظم وحديقة واسعة مليئة بأشجار الفواكه وأشجار الصنوبر القصيرة الكثيفة. وكان يختلف عن معظم المنازل المجاورة بإضافة مكان خاص للمطبخ إليه من الخلف في الفناء، وبهذه الطريقة ظل المنزل كله للاقامة ولم تفح من الحجرات رائحة المطبخ أو رائحة الدخان التي توجد بالمخزن وكانت الردهة الواسعة التي يتم دخول الحجرات الأخرى منها، معدة لاستقبال الزوار وكان الأثاث على نمط معين وهذا يعني أنه من صنع أحد العمال المهرة من سكان الضفة الغربية وهو أقرب لطراز لويس الخامس عشر، فالمقاعد تطاولها أحمر قاتم أما المناضد والمائدة المزخرفة، التي تستند إلى الحائط ولها سيقان غاية في النحافة، فهي مثقلة بأواني الزينة وقطع الخزف الصغيرة التي لاقيمة لها وبصور العائلة والأرض مفروشة ببساط «بيروتي» من طراز قديم جيد، وعلى

الجدران توجد صورة مكبرة ومزخرفة للأجداد وهم يرتدون الطرابيش والجدات وهن يرتدين الملابس التركية ، علاوة على إحدى اللوحات المنقولة عن لوحة بكلن التي تمثل منظرا طبيعيا فيه أشجار سرو حجمها خيالي وبحيرة بارية قاتمة .

وفي هذا المكان كانت السيدة بيوسا تستقبل الضيوف كل يوم ثلاثاء بعد أن فتحت المنزل كما فعل الكثير من العائلات الأخرى الغنية المحترمة التي بها بنات في سن النضوج وفي ذلك الحين أيضا ـ خصيصا للشبيبة ـ فتح الحجرة المجاورة الكبيرة حيث كانوا يرقصون على انغام جهاز الاسطوانات بينما يتحدث بصوت عال في حجرة الاستقبال كبار السيدات ومن عمر السيدة بيوسا نظرا لصعوبة تعودهن على الموسيقى الصاخبة الجديدة بعد الحرب ، ويتساءلن في أنفسهن عما سيبتدعه هذا الشباب قبل أن يتزوج بناتهن وينتقل الهم إلى الآخرين .

وفي ذلك الحين بدأت فعلا منازل كثير من العائلات في بلغراد تنفتح للخير والشر لكل ريح ولكل ضيف وفي أغلب الأحيان لضيوف لايؤمن لهم . والمجتمع الجديد الذي تكون من أهالي مدينة بلغراد ومن عدد متزايد من الدخلاء ، والذي كان ينوء بهم ذلك اللسان الضيق المرتفع من الأرض بين نهر الساڤا ونهر الدونا وميوله المنحدرة ، لم يكن له بعد أي من الخصائص الأساسية للمجتمع الحقيقي أو للتقاليد المشتركة أو النظرات الواحدة تجاه الحياة أو السبل المتجانسة أو الصيغ الثابتة في السلوك . لقد كان المجتمع الجديد عبارة عن هجوم عنيف لجماهير متنوعة اجتمعت هنا لكي تستغل بالاشتراك مع أفاضل الناس في بلغراد الاقتران النادر : هزة سياسية واجتماعية كبيرة مع انتصار من أكبر الانتصارات العسكرية في التاريخ . ومن المؤكد أن في التاريخ الطويل لمدينة بلغراد لم يحدث به مطلقا أن تواجد بمثل هذا المكان الضيق عدد غفير من الناس تربطهم المصالح ويضعف الاتصال بينهم ويقل التجانس من حيث الجوهر . هؤلاء الناس الذين ولدوا وتربوا في مختلف بيئات البلقان ووسط أوروبا والذين ينتمون لمختلف العقائد والأجناس والمهن ـ كانت الحرب العالمية التي استمرت أربع سنوات قد شتتهم وحملتهم موجة النصر الضخم إلى هنا . ولذا فالجميع يجتهدون في أن يعوضوا أنفسهم عن الخسائر وعن الجهد الذي كابدوه في جميع جيوش العالم وتحت مختلف الظروف في القارات الأربع . وكان مجتمع بلغراد القديم البسيط القليل العدد يمتزج مع هذا

الحشد من العالم الجديد ، ولم يكن بإمكانه أن يستوعبه ولم يشأ أن يتحد معه . ونتيجة لوضع هذا المجتمع في الامتحان القاسي للسعادة والنجاح فهو يشعر الآن بحالة من النشوة الخطيرة بعد الآلام والجهود العظيمة التي كانت فوق طاقته ، ولم يكن بوسعه أن يتكيف ويتنبه وسط هذا الغزو للناس وللعادات والأفكار أو أن يفصل الطيب والمفيد من المضر والتافه ، بل طفق يحسب بقوته ويصعب التعرف عليه . وكان من الطبيعي في مثل هذه الظروف ألا تتضح أو تفهم مقاصد أي إنسان ، ولم يكن من الممكن تقدير خدمات أي شخص تقديرا سليما أو إستشفاف خدعه بسهولة ، أو وضع مطامعه منعا تاما أو تأكيد حقه تأكيدا يوثق به ، أو إستمرار إحترام هذا الحق . فليس هناك على الإطلاق زمن أفضل ولا أرض أنسب للخلل وخداع النفس .

وكانت الآنسة تهرب من هذه الحفلات كلما أمكنها وبقدر مايمكنها ، فكانت تجد على الدوام بعض الأعمال التي تقوم بها في المدينة في يوم الثلاثاء بعد الظهر أو كانت تختفي في حجرتها لأنها ترى أن هذا الشباب الذي يرقص يبدو مجنونا ، وكبار السيدات اللاتي يجلسن في حجرة الاستقبال بلا عقل . ولكن الحفلات لم تظل يوم الثلاثاء فحسب ، فقد انتشرت في منازل الأثرياء تلك الرغبة في التسلية والمرح التي فيما بعد ستشمل بلغراد بأكملها . وأخذوا يطلقون العنان لرغبة عارمة في مجتمع شديد التنوع كثير الجلبة وفي أماكن ضعيفة الضوء غاصة بالجماهير وبالأجساد البشرية الملتصقة . وفي الأعياد الكبيرة أو في كل مناسبة أخرى ملائمة يجتمع الأصدقاء في منزل حاج فاسيلتش بعد العشاء أيضا ، ويدور الرقص على أنغام جهاز الاسطوانات وكانوا يمزحون ويغنون ، ويجري أيضا حديث عن السياسة والمال وعن الماضي القريب الذي بدا كأنه مأساة سامية نهايتها سعيدة ، وحديث عن المستقبل الذي يعد موضوعا فياضا . وكانت الآنسة أثناء ذلك تجلس في كآبة مكدرة لنفسها وللآخرين . ويتملكها السرور إذا تواجد هنا أحد الأشخاص المتقدمين في السن مثل آباء الشباب الذين يرقصون أو يتناقشون ، وتتحدث معهم بصوت خافت وفي حذر مستفسرة عن الإجراءات التي يتم إعدادها لوسم الأوراق النقدية الملكية أو عن أسعار المنازل والأراضي . وكان يبعدها عن الشباب كل شيء : طريقتهم في الرقص والتسلية وأحاديثهم ومناقشاتهم . وكل مايمكن سماعه ورؤيته من هذا الشباب كان يبعدها ويفهمها

شعور خاص من الضيق كان فيه إحتقار وحنق ووجل أيضا . وحاولت أن تتابع على الأقل أحاديثهم الجادة .

في إحدى الأمسيات أعلنت دانكا وداريتكا في تفاخر وإنفعال أنه سيحضر لأول مرة بعد العشاء مع الآخرين من الشباب ستيكوفيتش وبيتار بوديتيروفيتش وهذا من شعراء البوسنة ولهما سمعة طيبة في الأدب الحديث الذي ليس له تاريخ مسطر أو إعتراف رسمي ولكنه يسطو إلى قلوب الشباب والنساء من مختلف الأعمار . وعلاوة على ذلك كان هذان الشاعران مشتركين في حركة الشباب الثوري القومي البوسنوي وقضيا سنوات الحرب الأربعة الماضية في المعتقلات النمساوية . وكانا يتمتعان في العاصمة بسمعة لاتتجزأ من جانب المجتمع والرأي العام باعتبارهما من الشعراء الشباب ومن المناضلين والمكافحين الوطنيين وعلاوة على هذين الضيفين الجديدين سيحضر أيضا الضيوف المنتظمون ، وهذا يعني جميع أصدقاء ميشا . ومعظمهم اشترك في الحرب والبعض درس دراسته النظامية في فرنسا وهم شباب مرح طموح . وبعضهم يعملون بالوظائف الحكومية ويدفعهم جميعا شعور بأنه تنفتح أمامهم حياة مليئة بامكانيات ليس لها حدود . ولكنهم لا يتفقون على الأسلوب والغرض الذي ينبغي أن يستغلوا فيه هذه الامكانيات . وهم يختلفون من ناحية الطباع والميول والمفاهيم إختلافا شديدا . وغالبا مايضيعون ساعات وليال طويلة في مناقشات حية مع إحتساء القهوة والسجائر والخمر العتيقة . وهذا لايمنعهم من أن تكون علاقتهم كأصدقاء طيبة . وذلك إذا كانت العقائد والأفكار تفرقهم فالصداقة تربطهم برباط غاية في الشدة والقوة بنفس المقدار . وجميعهم في سنوات العمر التي تعد فيها هذه المجادلات الحية ضرورة عقلية وهم يحبونها كما يحب الأطفال اللعب . ولم تشرع الحياة في تصفيتهم وتعريفهم بشكل جاد .

وعدد منهم يبتعد تماما عن جميع المذاهب ولايهتمون بصراعاتها أو إحتكاكاتها . وقد قرروا الاتجاه إلى الأعمال العملية في الاقتصاد والمال وهؤلاء شباب على درجة من الجدية المبكرة والهدوء والثبات وجدوا مهنتهم وطريقهم ولم يترددوا إلا بين العمل في البنك المركزي أو في المؤسسات الاقتصادية الجديدة التي يجرى إنشاؤها . ولاينتظرون الاعودة العائلات التجارية المهاجرة حتى ينتقوا لأنفسهم زوجات من أغنى هذه العائلات وأكثرها نفوذا . ويقع ضمنهم صاحب الدار ميشا . ولكن كبرت الحرية

والكثافة في أفكار الشباب الآخرين وفي الأسلوب الذي يعبرون به عنها .

وهناك المدرسان الشابان رانكوفيتش وميلنكوفيتش . أولهما مدرس للأدب العربي . ويرأس قائمة مجموعة من الشباب الديمقراطي لها اتجاه يساري جمهوري وهو متحدث ماهر وراقص ومطرب ممتاز ، أما الثاني فمن الاشتراكيين وهو رجل قوي الارادة عنيد يعرف المؤلفات الماركسية بأدق تفصيلاتها ويحب الجدل ويعشق البحث في الاختلافات الدقيقة بين المذاهب . وكلاهما يعد زعيما وكل منهما له من يشاركونه أفكاره وله أتباعه بين الأصدقاء الذين يجتمعون هنا .

والمجموعة الثالثة الضئيلة من المحافظين يمثلها ميلي أداموفيتش المدعو أراسون وهو محام تحت التمرين يحمل على الدوام إحدى العلامات في عروة سترته . وفي أحد الأيام تكون هذه العلامة هي إشارة الصليب الأحمر وفي يوم آخر تكون شارة إحدى الفرق الغنائية ، وذلك لأنه عضو في اللجنة الفرعية للصليب الأحمر وعضو في عديد من الفرق الرياضية والثقافية والغنائية . وهو سمين ضخم على قدر من النضوج المبكر وتعابير محياه ساخرة وكلمات مقتضبة حادة . وهو طويل القامة قوي البنية له وجه روماني مستقيم هادئ، وله عينان كبيرتان ذات نظرات طويلة وصوت عميق وحركات ثابتة متزنة . (وهذا النوع الذي يبدو في الظاهر هادئا قويا وفي الحقيقة هو شخص تافه غير منتج وليس بالنادر وجوده عندنا أو في منطقة البلقان كلها) وكان أداسون يستطيع أن يحير كل شخص ولا يتحير هو مطلقا ويسخر من الآخرين دون أن يضحك لدرجة أن أسنانه لم يرها أحد مطلقا وتحبه النساء ويخشاه معظم الشباب وكلامه مليء بالعبارات التركية والكلمات القديمة والمصطلحات والتعبيرات الشعبية الجريئة ويخاطب كل شخص بلهجة المفرد ولايحتمل أي مزاح معه ولو كان بسيطا وسلاحه هو التهكم الذي يبرز من هذا الجسد القوي كقوة لاترحم . تهكم فيه شيء من العظمة والوقار . وشيء من عدم المبالاة الحيوانية والغبية الأبوية . وهو يرد جميع الأحاديث الغزيرة لزملائه من المتطرفين بمزاح بارد لاابتسام فيه . وجملته المأثورة هي

- إنك تتكلم بطلاقة يا أخي !! ولكن من سيعمل هذا ؟

وعلاوة على هذه المجموعة المعروفة الدائمة كان يحضر أيضا أناس من المناطق الجديدة من الكرواتيين والسلوفينيين وأهالي دالماشيا المهرة . وفي كل ثلاثاء يحضر أحدهم ضيفا جديدا لايعرفه هو نفسه معرفة جيدة .

ضيفا خائفا متطفلا ، موهوبا بكفاءات مجهولة وشهرته غير أكيدة .

وفي تلك الأمسية التي شاعرا البوسنة - حتى يادامسون نفسه - في نحو من السيفل . فقد حكى ستيكوفيتش عن الفترة التي قضاها في سجن ازادا ، وصور بمهارة بالغة المناظر المحزنة الفظة . ولكنه وصفها بتعال وبعد بحيث ترك لدى المستمعين إنطباعا بانه مر بكل ذلك كما مر دانتي بالجحيم دون أن يمسه أى شيء . لقد كان من المؤلم ومما يبعث على الرثاء أن تسمع وهي تحيا هذه الحياة المرة التي تزداد مع كل يوم حيوية وثراء عن الآلام والمشاق التي ذهبت بلا رجعة . ورجته صاحبتنا المنزل دون جدوى أن يقرأ إحدى قصائده فرفض ذلك في أدب يصاحبه إبتسامة متعجرفة لطيفة متعالية مزق جميع القصائد وجميع القراءات . ولذا فإن الشاعر الآخر بوديميروفيتش لم يسمح بأن يتوسلا إليه كثيرا ، وبعد أول دعوة أخرج من جيبه ورقة مطوية .

وكان أقل حجما وأكثر تواضعا من ستيكوفيتش ، وهو حليق الشارب ذو أنف ملتو يضع نظارات على عينيه المتهكمتين . وكان لصورته الجانبية الدقيقة شيء من صراحة القضاة التي لم تخففها إبتسامته البائسة بل زادت من صلابتها . وكانت الفتيات تتأمل بدينه النحيفتين المستقيمتين ، أما هو فقد أخذ يقرأ إحدى قصائده المنثورة دون أن يلتفت لأى أحد . وكان هذا هو الشكل المحبب من التعبير الشعرى في ذلك الحين حيث كان كل شيء يفيض نتيجة للأفكار الجريئة والمشاعر المتدفقة ولم يكن لدى أحد متسع من الوقت أو المعرفة أو الصبر حتى يجد التعبير الحقيقي المستقر . كان يقرأ ببساطة بصوت أجش خافت ومصحوب بحدة خفية تفرض نفسها خلسة على المستمع وتسكت كل شيء حولها ، ونهض بعض المتقدمين في السن الجالسين في حجرة الإستقبال من أماكنهم وراحوا يستمعون وهم وقوف بجوار الباب المفتوح إلى هذا الصوت الضعيف الذي يشبه الصلاة .

وكانت الآنسة تجلس في الركن بجانب الباب مباشرة مختفية لايلاحظها أحد وتستمع مرغمة إلى إنشاد الشاعر الشاب في شرود وإكتئاب كما كانت تنصت لمجادلات الشباب ولموسيقى جهاز الاسطوانات في البداية لم تفطن الى الكلمات أو المعاني التي يربطها وبدا لها أنه من المحزن ومن سوء التهذيب أن يجلس رجل هكذا متوسطا الحجرة وأن يقرأ بصوت عال

بطريقة رسمية شيئا إبتدعه في وحدته وهو يتحدث مع نفسه . وقد ظهر لها هذا الأمر غامضا ومخجلا قليلا . ولكن الإنشاد والهدوء العام حولها وصوت الشاعر الهادىء الحاد المهدد دفعوها لأن تتمالك أعصابها وتصغى في عناية ، فبدأت تسمع عما يتحدث الشاعر . ولم يكن بمقدورها أن تفهم بعض الكلمات وضاعت جمل كاملة دون أن تتبينها أو تفهمها . ولكن ظهر من هذه الكلمات التي سمعتها جيدا وفهمتها - أن الأمر يتعلق بهجوم عنيف شنيع على الثروة والأثرياء وعلى نفوذهم وعلى أسلوب حياتهم

مهما مضيت في الدنيا وأينما جئت تصطدم عصاى
بطريق حجرى ، وتتصادم نظراتي بمخول غنى وتصطك أفكارى
بقلب قاس . وحينما إلتفت إلى ثروتك المتعجرفة
اللاإنسانية إمتلأت نفسي في البداية بالمرارة والخوف ،
ثم فيما بعد بالحنق والبغض لأنني شعرت بمقدار العار
في أن تكون إنسانا ، ورأيت أن وجه البسيطة موضع
سخرية في الفضاء .

ونظرت الآنسة إلى يديها المضمومتين في حضنها وظلت تتساءل بلا انقطاع وهي تصغى في إنتباه : هل سمعها يخونها . وهل من الممكن أن يقول هذا الكلام ، باعتباره قصيدته ، شخص ينبغي أن يكون أكثر حكمة ومهارة من الآخرين . قالت في نفسها أن ذلك ليس ممكنا وتأملت في خشية شرود وجوه المستمعين الآخرين . ولكنها كلها لم تعبر الا عن الاصغاء الشديد المتحمس . ومع ذلك فهذا مستحيل . ولابد وأنه في النهاية سيحدث تحول أكثر براعة يعطى لكل ذلك مفهوما سليما حقيقيا آخر ، أو ربما يحول كل شيء إلى مزاح . وبالرغم من ذلك فقد راح الشاعر يواصل تلاوته ولم يكن هناك شيء في نغمة صوته أو كلماته قد يبرر أملها ، بل على العكس كان هذا الشاب الذي يسمونه شاعرا يستغيث بجميع بؤساء هذا العالم لكى يلقوا بكل مايفرقهم وأن يتحدوا ضد الأغنياء وأن يغتصبوا ثرواتهم . ولايمكن أن يكون هناك شك فقد كانت الكلمات صريحة والمضمون بيّن .

ثم خاطب الأغنياء قائلا :

حسنا ماقسمتم العالم ، كل شيء لكم ولأولادكم من بعدكم ،
ولأحفادكم وخدمكم .. حسنا ماقسمتم العالم ، فقد أخذتم

لانفسكم كل النور والجمال وتركتم لنا كل الظلام والكآبة
وإننا الآن نولد واقدارنا مسطرة واضحة . واقداركم مضيئة
بهيجة واقدارنا مظلمة سوداء . حسنا ماقسمتم العالم ؟
ولكن تقسيمكم ليس إلا تقسيما مريعا وليس ازليا
وسينضج غضبنا ، وسيكون الصيف ناضرا والفواكه غير ناضجة ،
وسيستحي ابناكم من أسمائهم وسينكرون ثرواتكم
لانها ستكون عبئا عليهم وهلاكا لهم ».

وواصل الشاعر قراءته ولكن الآنسة لم تكن تنصت إليه جيدا لأن الدم صعد فجأة إلى راسها والسكون الذي كان يشمل المكان حولها . وكل شيء بداخلها يثور ضد هذا - حسب رايها - الكذب المعقد الذي يتمثل في شكل صلاة وضد هذا النداء الصريح للاغتصاب وضد هذه الوقاحة التي تتلى علنا بتعبير هادئ على الوجه وميل بسيط للراس . وتشابكت اصابعها في تشنج وادركت انها لايمكنها ان تحتمل إذا إستمر ذلك وانها ستنهض وتخرج وليظن كل بها كيفما يشاء . وقاطعها تصفيق حماسي وهي تفكر في تلك الأفكار . لقد إنتهى الشاعر وكان جميع الشباب الموجودين في الغرفة يصفقون .

وحدثت الآنسة نفسها بان جميع هؤلاء من ذكور وإناث بلا استثناء ، إما انهم اثرياء اوفى طريقهم إلى الثراء عن طريق الزواج او السياسة او العمل ، ومع ذلك فكلهم يستحسنون في حماس هذا الشعر . وإنقبضت في مرارة . وكان آداموس يقف بجانب الباب يشير لسيد محسن إلى الشاعر الذي كان يطوى بتؤدة وإرتباك ورقته وهو لايزال يقف في وضع القارئ .

- هاهو ، إنه ذلك الذي يضع العوينات ويجلس في الوسط .

وقال السيد متسائلا في قليل من خيبة الأمل :

- اهو هذا ؟!

- إنه هو . إنه النحيف الذي تراه وهو ملتحى .

ومرت الآنسة بجانبيهما في حسم ، وذهبت إلى غرفتها حيث فكرت في أن تتمالك اعصابها وتهدئ من روعها وأن ترقد وتستغرق في النوم ناسية الانطباع المؤلم الذي بقي من كل سمعته وراته . ولكن ذلك لم يكن يسيرا تماما تنام في السرير الآخر . تنام ؟ .. إنه سؤال كبير لانها في معظم الأحيان تتظاهر بالنوم لاشيء إلالكى لاتضايق إبنتها بوجودها . وعلى العموم فبالنسبة لها لايعرف المرء هل هي اكثر هدوءاً وسكونا وقت نومها ام

وقت يقظتها . وكان يثير غضب الآنسة وجود شخص آخر في حجرة النوم التي الفتها . وبدا انها بسبب ذلك لايمكنها ان تفكر في حرية وشعرت وكانها في فخ إنها لاتجد الهدوء والعزلة في اي مكان ، وافكارها تعود باستمرار إلى قراءة الشعر التي كانت منذ قليل . ورقدت واطفات النور ولكنها في الظلام اصبحت اكثر حنقا ويقظة . فبمرور الأيام اصبح كل شيء بهذا المنزل اكثر جنونا وطيشا . وكانت الآنسة تقولها لنفسها : ماذا يريد الآن هؤلاء الشباب ؟ (وفجاة برزت امام عينيها صورة تلاميذ سرايفو من منطقة الشاطئ عام ١٩١٤ وهم يجلسون بلا عمل على السور الحجرى الابيض بجانب نهر ميلياتسكا ويتهامسون في أمور خطيرة وقد إرتدوا البنطلونات القصيرة السوداء واطلقوا شعرهم) ماهذا الخلل الطائش الذي تلاحظه حولها منذ شهور ؟ من هم اولئك الذين يسمون انفسهم بالشعراء ، والصحفيين والقوميين او الشيوعيين ويتدخلون فيما لاينبغي التدخل فيه ؟ الا يوجد من يمنعهم او يضربهم إذا لزم الأمر لاشيء إلالكى يزيل من العالم هذا الشك وعدم الأمان والتهديد . او هل كل هذا ليس إلا مزاحا وتفاخرا من الشباب العاطلين امام الفتيات الحمقى ام ان الأمر يتعلق ، كما تظن انها الليلة ، بمؤامرة حقيقية ضد المال والادخار والنظام والعقل اي باختصار ضد كل شيء يقدره الناس ويحبونه وضد كل مايعملونه ويملكونه ؟ من يقدر على أن يقول لها ذلك ؟ ولكن ذات الضرورة التي تطرح مثل هذه الأسئلة تحيرها وتخيب آمالها وتجعلها تنهض من السرير ، وعبر جميع الجدران والأبواب يصل اسماعها صوت اشبه بالصراخ البعيد بدلا من اية إجابة . وهو صوت الموسيقى الطائشة الحديثة الآتي من جهاز الاسطوانات . وبغض النظر عن إختلاف الآراء يرقص الجميع ثانية على انغام هذه الموسيقى التي تدفعها إلى ان تدس راسها في الوسادة بشدة وقررت في هذه الحالة من التشنج قرارا حازما بالانتقال من هنا باية وسيلة ولو إضطرت إلى دفع الثمن الذي طلبوه لذلك المنزل الموجود بشارع ستيشكا والذي كانت تجرى حوله المساومات والمزايدات منذ ثلاثة اسابيع .

ولكن ماقررته في سهولة في غضون الليل وحرارته وسهده كان من العسير تنفيذه في النهار حيث خفت حدة الحرارة وطرح سؤال الثمن نفسه بقوة وصلابة . لقد جرت مفاوضات بشان عدة منازل مختلفة ولكن في كل

مرة كانت تلاقى بائعا ماهرا غير مكترث يصعب عليها أن تنفذ إلى نواياه الحقيقية، وعلى الفور أحست أن تجار بلغراد هؤلاء من عجينة أخرى ويختلفون عن تجار سرايفو الذين هم على قدر من اللين وعدم المبالاة. وشعرت بخوفها وتوقيرها للمهرة المتأصلين فى الرأى من الناس الذين يعرفون كيف يحمون مصالحهم ويحترمون مصالح الآخرين بالقدر الذى يعرف به الآخرون حماية مصالحهم. ولكن شعر التجار وكذلك التاجر جودج الذى كان حلقة الاتصال بين ابنة أخته وبينهم بمقدار القوة والحذر والخبث الذى يختفى بين ضلوع هذه الفتاة المسنة وأخيرا تم الاتفاق بشأن ذلك المنزل الواقع بشارع ستيشكا والذى كان أول منزل تجرى المفاوضات حوله. وقد ألحت الآنسة فى أن تخفض الثمن إلى أقل حد ممكن وأن تتفق على وسيلة الدفع التى تلائمها ملاءمة تامة. (وقد قال صاحب المنزل وهو ثرى من أهالى مقدونية عند توقيع العقد أنه لم ير فى حياته خبيرا أو عالما بالحسابات مثل هذه الآنسة رغم أنه يشترى ويبيع المنازل وقطع الأرض منذ أكثر من عشرين عاما.)

وعندما وصل الأثاث من سرايفو تركت المرأتان المنزل الضيق الموجود بشارع سميليانيتش. تركته السيدة رادويكا فى حزن والآنسة فى رضى وسعادة لتحررها من تلك الحياة التى ليس لها حدود ولأنها ستتجنب الاتصال بجمهور غفير من الشباب.

وكان هذا المنزل الواقع بشارع ستيشكا بعيدا عن الضجة مهجورا تقريبا وبه قليل من الرطوبة. وكان بما يحويه من أثاث المنزل القديم بسرايفو وبمظهره السابق يعد بالنسبة للآنسة محل إقامتها الحقيقى الذى بدأت تجد فيه مرة أخرى نفسها وأسلوبها فى الحياة وفى التفكير.. وأحست هنا ثانية بأنها تقتطع وتقتصد شيئا من الحياة. ولم يكن بالمنزل إلا حجرتين للمعيشة، والثالثة فى الحقيقة عبارة عن حجرة صغيرة رطبة قليلة الضوء لم تكن تنفع لأى شيء وأصبح الآن لكل امرأة حجرتها. ومرة أخرى عادت تدير المنزل بتوفير واقتصاد كما كانت تفعل فى سرايفو. وكانت لاتطهو إلا مرة واحدة لليوم كله وتدفىء حجرة واحدة تدفئة متوسطة. وكانت الخادمة لاتأتى إلا لمدة ساعتين يوميا وتنهى الأعمال الكبيرة فحسب. وعاد أسلوبها فى الحياة إلى مساره القديم. وأمسكت الآنسة بكل شيء فى يديها وأدارت الأمور على طريقتها الخاصة وشرعت تشترك فى الأعمال التجارية ولكن فى تؤدة وحذر.

كانت الحياة فى بلغراد حوالى عام ١٩٢٠ حياة متنوعة وثيرة معقدة بشكل غير مألوف وخاصة بالمتناقضات. وكانت القوى الكبرى المتنوعة العديدة تسير جنبا إلى جنب مع نقط الضعف الغامضة ومع النقائص. وكان الأسلوب القديم فى العمل والنظام الصارم للحياة الكلاسيكية يقفان جنبا إلى جنب مع مجموعة متشابكة مختلفة من عادات جديدة لم تتجسم بعد ومع فوضويات من كل لون. وعدم الاكتراث مع الوفرة والغزارة. والعفة وكل جمال أخلاقى مع الرذائل والفضائح المختلفة وكان السباق العاصف الطائش لجميع أنواع المرابين والمحتكرين يجرى جنبا إلى جنب مع العلم والعقل والخيال الخاصة بالحالمين الرقيقين وبأصحاب العقائد الشجعان. ويوجد بالشوارع المحطمة سيل جارف من الناس يسير باستمرار لأن مئات من الغرباء يلقون بأنفسهم فيه كل يوم كما يفعل صائدو وجامعوا اللآلئ فى أعماق البحار. فكان يأتى إلى هنا كل من يريد أن يصبح بارزا وكل من يرغب فى الاختفاء. وهنا يختلط أولئك الذين عليهم أن يدافعوا عن أملاكهم ومراكزهم المتعرضة لأخطار الظروف الجديدة مع أولئك الذين أتت بهم رغبتهم فى أن يحصلوا على كلا الشيئين. وكان يوجد هنا كثير من الشباب القادمين من جميع جنبات الدولة التى يجرى تكوينها. شباب كان ينتظر كل شيء من الأحوال الجديدة ومن الأيام التالية. ويوجد أيضا كثير من المتقدمين فى السن الذين كانوا يحاولون التكيف والبحث عن وسيلة للإنقاذ فى هذا السيل وهم يخفون قلقهم وكراهيتهم التى تغمرهم بها. وكان هناك كثير من هؤلاء الذين رفعتهم الحرب إلى السطح وخلقتهم، وكثير من أولئك الذين هزتهم من الأساس وغيرتهم وكانوا يبحثون الآن عن سند وتوازن. وكان هناك بالتعون وجهلة وأشخاص يرتدون ملابس بسيطة. وكان هناك من تحطمت أخلاقهم ويمتلك الاستحياء نفوسهم إلى الأبد. وكان هناك شبعى وجائعون لهم شهية لاحد لها وجرأة متوحشة. وكان هناك خياليون وطائشون لايفكرون فى أنفسهم. وكان هناك خبراء فى الحساب ومحبون لأنفسهم على قدر من البلادة. وكان هناك أناس من جميع الملل والعقائد ومختلف الأجناس والجنسيات ومن كل الطبقات والمهن. وكان هناك وطنيون لديهم حب عميق قديم وإيمان ساذج وآمال غير محدودة فى مستقبل قريب أفضل. وكان هناك مجددون على قدر من الجرأة والشهرة ينظرون إلى المستقبل ويرون الأفضل. وكان هناك عملاء دوليون يسيرون

وراء هدف محدد واضح . أي باختصار كانت هناك نباتات متنوعة وفيرة في الأعماق تظهرها الحروب والأحداث الكبرى ويلقي بها السلام على السطح وذلك لأن اكبر الحروب وأعظم الانتصارات في وقتنا الحالي نادرا ماتحل المسائل التي من اجلها جرت الحروب وتحققت الانتصارات او قد تحلها حلا ناقصا . ولكنها نتيجة لذلك تطرح بشكل منتظم عددا كبيرا من المسائل الجديدة المعقدة . وكان هؤلاء الناس يبحثون عن حل لهذه المسائل . ومن المستحيل ، ولو بالتقريب ، إحصاء كل ماكان يحتويه هذا السيل من الناس . إلا انه يمكن القول في ثقة أن جميع هؤلاء الناس قد جاءوا مدفوعين بغرائز قوية وضرورات ضخمة عاجلة . وكان هذا السيل يبذل جهده تحت ظلال السلطات والقوانين الجديدة وقد عزم إما على ان يكيفها لمقاصده ومصالحه او ان يكيف نفسه تبعا لها ، مثله مثل سرب أسماك البحر الذي يبحث عن ظروف أفضل وانسب لحياته .

كان يسود هذا الجمع وهذا الهواء الذي يحيط به جو غير صحي خانق ، ولكنه مثير قادر له إمكانيات لاحدلها في جميع المجالات وجميع الاتجاهات . وفي ذلك الحين كان بالامكان أن تقابل في طريق سلانيا - كاليجميدان ، ظهرا او عصرا على غير توقع ، احد رفاقك في الصغر ، وبفضل هذا اللقاء العرضي تصبح في الغد في مركز حسن او تصبح رجلا غنيا دون أن يسالك احد بالتفصيل عمن تكون او ماذا تفعل أو عن مؤهلاتك . وبوسعك ايضا أن تحمل حقيبة مليئة بأفضل الشهادات والاثباتات المدعمة المكتوبة وأن تطوف اسابيعا واسابيعا دون جدوى على اعتاب المصالح دون أن تصل إلى حقك . لقد كان هناك شيء من خصب وفوضى بلاد الذهب الالدوراد في حياة ومظهر عاصمة تلك الدولة الكبيرة التي لاتملك بعد حدودا مقررة أو نظاما داخليا او إسما محددا . وكان يسود كل شيء إختلال ثري دافيء - إختلال روحي ومادي كبير في تلك المرحلة الأولى التي لم يتعرف فيها بعد عدده اي إنسان لأن كل شخص يجد فيه نصيبا له ويعب من الأمل في ايجاد حصة اكبر .

أن حياة بلغراد الجديدة تلك لم يصفها احد بعد وليس من السهل وصفها ، ولكن اولئك الذين كانوا يعيشون في ذلك الحين يستطيعون اليوم أن يتذكروها ويشعروا بها بجميع حواسهم وكأنها مناخ خاص او فصل معين من فصول السنة .

كانت الآنسة رايكا راداكوفيتش القادمة من سرايفو تسير ايضا مع ذلك

السيل من الناس في طرق بلغراد المرصوفة . وانها تسير في هدوء وحذر وفي تنظر أمامها وتلقي حولها فحسب نظرات قصيرة نادرة مفعمة بالشك وعدم الثقة . ولاتستطيع ان تقول بشكل محدد مما تخاف ، فأحيانا تخشى الفجوات الناتجة عن طلقات المدافع وتتفرج في احد المنازل المهجورة ، وأحيانا تخاف من احد العابرين في المساء وهو واحد من كثير من الجنود المسرحين يرتدي معطفا من قماش رمادي خشن بلا علامات عسكرية . إنها تخشى آثار الحرب تلك ، ولكنها تخاف أيضا من الحياة الجديدة العاصفة التي ترغي وتزبد وتجري في تهور بجانب الأطلال والصرعى من الرجال ، وترى في كل خطوة مقدار شدة ثراء وتعقد وحدة وخطورة الحياة عنها في سرايفو . إن الحياة هنا تبدو في الظاهر سهلة مرحة كاللعب وهي في الحقيقة خداعة قاسية كالبرد . وانها تشعر بذلك عن طريق غريزة لاتخطيء لدى الاشخاص الذين يكرسون انفسهم لغواية واحدة فحسب .

وفي كل يوم تقريبا وقبل الظهر كانت الآنسة تمضي هابطة في شوارع سيجوش في الثلج والوحل وفي المطر والرياح ، وتطوف بمختلف البنوك وخاصة محلات تغيير العملة التي تظهر كل يوم في المسافة مابين فندق لندن ومقهى كولا راتس . وكانت هذه المتاجر تجذب إنتباه الآنسة من بعيد بلوحة سوداء كتب عليها بالطباشير اسعار جميع العملات الاجنبية في ذلك اليوم وفي تلك المتاجر ، التي كانت في الحقيقة حوانيت ضيقة اقيمت على عجل تكاد تكون خالية . وكان يقف وراء حاجز حديدي بجوار الخزانة والمدفأة الباردة الصغيرة احد اليهود الاسبان اسمه اناف لوميدينا ، ويرتدي معطفا شتويا ويضع قبعته على رأسه وقد إزرق وجهه من البرد ولا تلاحظ الآنسة انه على قدر من قلة التهذيب وقدر من التهجم . وبوجه عام فانه غاية في العبس واللين في الحديث كما لم تر صرافا من الصرافين . واستندت على الحاجز وسألته :

- كم تدفع في مقابل سندات شركة الدخان العربية ؟

- مامقدار ماعندك ؟

- لدي كثير . وهذا يرتبط بالثمن الذي ستدفعه .

ولايريد اليهودي أن يقول السعر ولكن الآنسة تعرض على الفور اوراقا أخرى تستفسر عن ثمنها وتحاور الصراف إلى أن تعرف او على الاقل تخمن ماهي في حاجة إلى معرفته . وعندئذ تنصرف بالاهمية دون أن تشتري او أن تبيع شيئا . وسرعان ماعرف جميع الصرافين هذه المرأة

الكئيبة . وراحوا يتحدثون معها كرجل من رجال حرفتهم بعد أن أدركوا أنه لابد التظاهر بعدم المبالاة وعدم الرضى وكانت أعمالها الحقيقية نادرة وبسيطة وغاية في الحرص والحذر . وبصعوبة متزايدة كانت تجد في نفسها الرغبة والحسم بالنسبة للأعمال وكثيرا ماكانت لاتقوم إلا بعمليات ملفقة غير حقيقية . فهي تستفسر بعناية ولمدة طويلة إلى أن تعرف أنسب الأسعار لبعض من سنداتها فتسجلها لديها . ثم بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع تتأكد من مبلغ خسارتها أو ربحها لو أنها باعتها في ذلك الحين ، وتدون هذه الخسارة أو هذا المكسب الخيالي في دفاتر عملياتها غير الحقيقية التي كانت تسجلها في كتاب خاص وتتصفحه وتقرأه كل يوم وفي تلك اللعبة التي كانت بالنسبة لها أكثر من مجرد لعبة كانت تكتسب خبرات ومعارف جديدة أيضا . وأثناء حفرها كحيوان الخلد في هذا العمل البسيط الذي لا أمل فيه مطلق يهدر تفكيرها في حلمها القديم عن المليون ويقل شعورها بالحاجة إليه . وعندما تتذكره يبدو لها أن شخصا آخر هو الذي كان يحلم به وقضى نحبه ذلك . وبدأت ذكرياتها عن سرايفو تبهت بسرعة . ولم يجذبها أي شيء إلى الوراء ، ولا حتى القبر الموجود في كوشيفو والذي أصبح الآن مرتفعا بلا اسم خارج الفضاء في العلياء . وظهرت لها جميع الصدمات التي حدثت لها هناك في الفترة الأخيرة أكثر خفة وكل الخسائر أكثر احتمالا . ولم يبق إلا الخوف الداخلي من أن تتجدد الهجمات الصحفية وأن تنتقل أيضا إلى إحدى صحف بلغراد ، وكان هذا الوجل يظهر في المنام كذلك . ولكن ذلك لم يحدث لأن الحياة الغزيرة الوفيرة العاصفة كانت تبتلع كل شيء بخيره وشره . برفعته وعاره وتغمر كل شيء بالنسيان كالدغل أو المحيط .

وكانت تذهب إلى عائلة حاج فاسيتش أيضا . فقد نسيت على الفور وإلى الأبد كل المعارف الذين تعرفت بهم . ومع ذلك لم تفلح في أن تتخلص تماما من هذا العالم وأن تنفرد كما كانت تريد . فقد عثرت على صلة باثنين تعرفت عليهما في الأيام الأخيرة لإقامتها في المنزل الموجود بشارع سيميليا تيش بالرغم من أنها لا تعرف بنفسها كيف ولماذا؟

كانت الفتاة هي يوفانكا تاساكوفيتش وهي قريبة بعيدة من قريبات السيدة سيكا . فكثيرا ما كانت الآنسة تسمعهم يتحدثون عنها في منزل حاج فاسيتش باعتبارها مخلوقا شاذا إلى أن ظهرت بنفسها في أحد الأيام وتعرفت عليها . وعلى الفور حدث تقارب بينها وبين الآنسة

الفصل السابع

يوفانكا .. هذا الاسم الشعبي العادي المألوف الذي يكفي لأن يلحق إلى الأبد إمرأة في بحر الفلاحات والمدنيات المسميات . يوفانكا - كان ينطق في دائرة واسعة من رجال ونساء المجتمع البلغرادي حينذاك بنغمة خاصة ومعنى أعمق كأنه إسم رومانسي أو إسم منفصل إلى الأبد لأحد المشهيات ماريميدا أو كلورنيدا أو أوليفيا أو كاسيا بلا ألقاب أو كنية لأن كل شخص يفهم أن هناك يوفانكا واحدة في العالم وفي بلغراد.

وهي فتاة كبيرة تبلغ من العمر ثلاثين عاما . قصيرة القامة صغيرة ولكنها ممتلئة الجسم قوية القدمين . حركاتها سريعة . وعيناها لامعتان ذات لون كستنائي ونظراتها ثاقبة وبشرتها رمادية اللون . وكل ما كانت ترتديه أو تضعه على جسمها من ملابس أو حلي من أي لون يصبح أيضا قاتم اللون باهتا . وبوجه عام كانت لاتهتم بملابسها البسيطة . وتترك في النفس إنطباع المرأة المهملة القذرة . وشعرها أسود قوي لاتعتني به . وتصافح كالرجال وخطواتها عسكرية . وصوتها ضخم خشن من كثرة التدخين ونطقها سريع مقتضب . هذه الفتاة ذات المظهر والسلوك البوهيمي كانت في الأصل من إحدى عائلات بلغراد الغنية المعروفة وقد أنهت دراستها بكلية الآداب . ولديها عديد من المعارف وصلات قرابة متشعبة مع دائرة كبيرة من أفراد المجتمع البلغرادي . كانت وحيدة أبويها اللذين توفيا مبكرا وتركا لها أملاكا رائعة من منازل وأراضي وسندات . وكانت تعيش بمفردها في تواضع وشذوذ دون أن تفكر في الزواج أو في حب الرجال على الإطلاق ودون أن تطلب شيئا لنفسها من الحياة . وكان كل شيء لديها غير مرتب وغير مفهوم . ومن العسير بمكان معرفة ما الذي يقود هذه المرأة المضطربة التي تحب الاستطلاع ولها قوة وحسم الرجال ، وماذا يحركها في نشاطها الملتهب الذي لايكل . لكن ما كانت تريده وترغب فيه هو أن يكون لها نصيب في مصائر وخطط وغوايات ومطامع الآخرين ولم تكن تعيش إلا بذلك ولاتجد مفهومها للحياة إلا في هذا . وكانت صداقاتها مع الرجال والنساء من مختلف المهن والأعمال عديدة متشابكة . وكان يبدو أنها تريد أن تساعد العالم كله وتريد أن تحمل من هم كل إنسان همها مادامت لاتملك همومها الخاصة بها . وكانت تندمج بلا صوت وخفية

وبلا انانية في مصائر الاشخاص الذين تأخذهم تحت حمايتها وتشترك في مساعيهم ونجاحهم وفشلهم . وفي هذا المجال تجاوزت حماس وكفاح من تحميهم وهي على إعتقاد بانها تدرك نواياهم بطريقة اكثر صوابا وتدافع عن مصالحهم دفاعا افضل من دفاعهم عنها انفسهم .

وكانت تسير في اشد الامطار واعصف العواصف قاطعة بلغراد كلها ذهابا وإيابا وهي تطوف بالمنازل والمتاجر والمصالح . وكان يمكنك ان تراها بالحذاء طويل ولاشمسية وقد احمرت يداها وانفها وازرقت شفتاها . ترتدي معطفا رماديا طويلا يشبه المعطف العسكري وهي تسير بخفة في الشوارع المعمرة غير المرصوفة لمدينة بلغراد عام ١٩٢٠ . وعندما توقفها لكي تسالها عن وجهتها فإنها تقول لك في همس جنوني وهي ماضية في طريقها انها تجري منذ الصباح بسبب إصابة طفل إحدى صديقاتها بالدفتريا .

- إنك تعرف زاجوركا . إنها لاتعرف كيف تتصرف إزاء ابسط المشاكل ، وزوجها منذ الامس يعمل بإحدى اللجان خارج المدينة او هكذا على الاقل يقول . اي انه غير موجود في بلغراد ولاتوجد اماكن في قسم العدوى بالمستشفى الحكومي وقد نجحت في ان اجد طبيبا جيداً . ولكن لايوجد الان مصل . وهاانذا ذاهبة إلى عيادة المحافظة حيث يقال ان لديهم منه .

وتواصل سيرها خلال الوحل والضباب وهي قصيرة القامة وليست بالجميلة ولكنها ايضا على قدر من الصلابة والحدة كالقلم الصلب .

او كنت تجدها امام المسرح وقد وضعت يديها في جيبي معطفها الشفوق وتتمشى في فروغ صبر .

- ماذا تنتظرين هنا يايوفانكا ؟

- إنني انتظر المدير . تصور من فضلك هؤلاء العميان خفضوا عدد الموظفين وفصلوا كيرياكوفيتش الممثل الشاب الموهوب بينما يتمسكون بكثير من ممثلين قد عفى عليهم الزمن ويمنحونهم الادوار ويقطعون لهم الاحتفالات . اما هو فقد تزوج منذ عدة شهور بفتاة من إحدى المدن الصغيرة . وينتظر الان وصول مولود ولاتوجد بالمنزل القطة ولايملكون ولو قليلا من المال . لقد كانا يعيشان كزوجين من الحمام ولكنك تعرف الحال ؟ فقد بدا الخلاف وعدم التفاهم يدب بينهما . فهي إبنة تاجر ثري من الريف ولكن والدها تبرأ منها عندما هربت مع كيرياكوفيتش . وهي الان تبكي وتهدد بالعودة إلى والدها او القاء نفسها في نهر السافا . اما هو فيريد ترك

كل شيء والذهاب مع احد المسارح المتجولة . وإنني الان انتظر المدير فهو إبن خالتي . ولابد من ان اتحدث معه حتى يرتب هذه الامر على اى نحو .

ولا يوجد على الاطلاق عمل لم تقم به للشخص الذي تعده مستحقا لحمايتها . وكانت تجلس ليال كاملة عند المريض . وتستقبل في مسكنها صديقاتها اللاتي يهربن من ازواجهن ، وتذهب من اجلهن إلى المحامي وإلى المحاكم الشرعية . وتساعد وتدافع عن المطلقات وعن الشبان المتواضعين الذين يمتحنون او يرغبون في الالتحاق بالوظائف الحكومية وكانت تسهر على العاشقين التعساء وتتوسط بين المتخاصمين وتبحث عن مخرج للمدينين . وبوجه عام كانت تقوم بدور يشبه دور العناية الالهية بدون مصلحة شخصية او سبب ظاهر . وفي هذا المجال كانت في الحقيقة غير انانية للغاية ، غريبة الطباع ولايركن إليها وطيبة إلى حد التضحية بالنفس . وكانت ايضاً احجوجة خطرة قادرة على العناد والانتقام . لقد كان مجال بيئتها الحقيقية هو العلاقات المعقدة بين الفاشلين والمعذبين ، وكانت لاتتعامل ولاتتداخل إلا مع امثال هؤلاء في إصرار بالغ وتغمرهم بنصائحها وخدماتها القطعية القاسية . ثم بعد ذلك فجاة . عادة في اللحظة التي يتحسن فيها مركزهم . تديرلهم ظهرها وتتسرع كحنية شريرة مستاءة في مطاردتهم منذ ذلك الحين بحقدها الصامت وإغتيابهم بهمساتها . وبعد اول تعارف تخاطب كل شخص بلهجة المفرد وبعد اول مشادة تعود ثانية إلى لهجة الجمع . ولم يكن يثير إهتمامها على الاطلاق الاشخاص الذين يعيشون حياة منظمة مستقرة والذين ينجحون في حياتهم او الذين يحققون امالهم وحاجاتهم . ولاتجد بالنسبة لهم إلا ملاحظات مقتضبة وسخرية مدمرة مالوفة في المجتمع الذي تنتمي إليه . فعلى سبيل المثال يجري الحديث عن ان يوفان سيميتش . وهو من رجال الجولوجيا المشهورين في بلغراد . اصبح دكتورا فخريا بجامعة باريس وينبغي في هذه الايام ان يعقد محاضرة رسمية في السوربون . فتقول يوفانكا معلقة على كل هذا في إحتقار .

- إنني اعرفه . إنه يضرب زوجته . وعلاوة على ذلك يأكل باصابعه .

وهذا بالنسبة لها ولاغلبية اولئك الذين يستمعون لها هو كل ما ينبغي معرفته عن رجل الجولوجيا المشهور .

وهذا هو حال يوفانكا وهكذا كانت تحيا وتعمل .

ولم يعلم أحد مطلقا شيئا من أحداث حياتها الشخصية ، ولم يسألها أحد أبدا عن حاجتها لأي شيء أو عما ترغبه وتحبه . وفي الحقيقة كانت لاتعيش إلا بمقدار مايعيش الآخرون حولها وبمقدار نجاحها في شخصيا في الاشتراك في حياتهم . وكانت تجد تعويضا مضاعفا عن جميع التضحيات والجهود التي تبذلها للآخرين .. أولا لأنها بهذا الوضع لم يكن يتسع لها الوقت لأن تهتم أو تفكر في نفسها . وثانيا لأنها ، نظرا للفراغ الكامل بحياتها الشخصية ، أمكنها أن تعيش عشرات من حيوات الآخرين وأن تشبك وتحل خيوط مصائر الآخرين وكأنها إلهة قادرة سيئة الطباع مشوهة .

وضعت يوفانكا نفسها دون طلب في خدمة الآنسة عند الانتقال وتغيير محل الاقامة ، وعرفت كيف تعثر لها على أرخص العربات واتصلت تليفونيا بمدير الجمارك في الميناء وهو زوج إحدى صديقاتها الطيبات ولم يقدر على أن يرفض لها طلبا . واصطحبت الآنسة إلى المحكمة الابتدائية حيث أنهت التشكيلات النهائية حول شراء المنزل بواسطة علاقاتها . وقد تقبلت الآنسة جميع الخدمات مع أنها لم تكن تهتم كثيرا بزيارات يوفانكا التي كانت في بعض الأحيان كثيرة . ولم يكن في مقدورها التخلص من هذه الزيارات لأنه كان هناك شيء يقرب ويربط هاتين المرأتين الغريبتين المختلفتين في كل صغيرة وكبيرة برباط قوي وإن كان غير محسوس .

وقبل أن تترك الآنسة منزل حاج فاسيتش بيومين أقيمت إحدى تلك الحفلات الليلية لزملاء وأصدقاء ميشا ولصديقات دانكا ودارينكا . وكانت الآنسة لاتزال تشعر بالحرارة نتيجة للحفلة الأخيرة التي أقيمت منذ عشرة أيام وسمعت فيها ذلك الانشاد المبهم من الشاعر والموافقة الأكثر غموضا من جانب الشباب الأثرياء ، ولكنها إحتراما لأهل المنزل قررت أن تتحمل أيضا هذه الأمسية التي تعد الأخيرة لحسن الحظ . وفي هذا الليلة أحضرت يوفانكا واحدا من أحدث الأشخاص الذين تضعهم تحت وصايتها لكي تقدمه للسيدة سيكا ولفتاتيها . وكان هذا الشخص يدعى راتكو راتكوفيتش . وقبل ذلك حدثتهم عنه في حماس . وحسب ما قالته كان يجمع في شخصيته تلك الصفات التي كانت تقدر في ذلك الحين أبلغ تقدير وأصله من إقليم الهرسك ، وحينما كان جنديا نمساويا أثناء المعارك في منطقة الكاربات هرب إلى روسيا بطريقة غاية في الاثارة ، وقاد فرقة كاملة

من الصرب . وقد إنتقل من روسيا إلى سالونيك وإشترك كمتطوع في المعارك عند تحطيم جبهة سالونيك . وبعد تسريحه أخذ يعمل للحصول على توكيل شركة فورد الأمريكية للسيارات في بلغراد ، وسينجح في ذلك بالتأكيد لأنه يجيد اللغة الانجليزية إجادة تامة ولأنه أثناء إقامته في سالونيك أنشأ علاقات طيبة مع بعض ممثلي شركة فورد .

حينما كانت الآنسة تستمع منذ أيام في شرود إلى يوفانكا وهي تحكي لاهثة عن الشاب الهرسكي ذي الكفاءات غير العادية والمستقبل العظيم ، كانت تحتر في نفسها مشاغلها ولاتفكر مطلقا في أنها ستقابله . والليلة لم تتذكر ذلك على الاطلاق عندما انبعث من الخلف الرجل الطويل القامة الذي أحضرته يوفانكا كالتلميذ المجد وقدمته لهم . وعندما وصل إلى نهاية الصف إستقر الرجل ودنا منها ، ومد لها يده القوية المحمرة وقد رنت على شفتيه إبتسامة وتملكه ذهول خفيف في سلوكه برمته . حينئذ فحسب رأت وجهه بينما كانت يوفانكا تنطق بإسمه . وقد قال هو أيضا شيئا ولكن يوفانكا أخذته على الفور لمواصلة السير وتقديمه للجميع بالترتيب .

في الحقيقة لم تره الآنسة ولم تسمعه جيدا لأنه عند النظرة الأولى طافت بذهنها فكرة واحدة ولم تبق إلا هي : إنه الخال فلادو ! لم يكن من عادتها أن تلتفت إلى المظهر الخارجي للرجال أو أن تتأملهم لفترة طويلة عن كثب . فحسب رأيها لم تكن الملابس أو المظهر أو حتى تعبيرات الوجه تدل على وجود الرجال والنساء ، لأنه منذ شبابها المبكر كان يهمها عند الرجال أشياء غير ذات أهمية على حكمها وتقديرها . فعندما كانت صغيرة لم تكن تعرف مطلقا أن تجيب على هذا السؤال المألوف بين الصديقات .. من يشبه هذا الرجل في نظرك ، ونظرا لعدم إكتراثها في البداية فقد أصبحت بمضي الوقت عمياء بالنسبة للمظهر الخارجي للرجال . وحتى الآن لم تكن قد لاحظت شيئا خاصا أو مميزا على هذا الرجل ، لكنه بحالة تلك التي ظهر بها أمامها حينما إستقر فجأة وبكل مظهره وحركات جسده وإبتسامته كان يثير في نفسها هاتين الكلمتين : الخال فلادو ! ولم يعد ذلك تشابها عاديا ، بل ذكرى دارجة حية فعلية . وفي خلال العشاء عندما جاء راتكوفيتش وجلس بجوارها كما كان يجلس قليلا بجانب كل فتاة وسيدة ، لم تعد مضطرة إلى إطالة النظر إليه . فكل شيء كان هنا : خصلة الشعر اللامع المتناثر والعينان الشقراوتان اللتان تخفيان في تطرفهما قلقا عميقا ، وفوق كل شيء الابتسامة التي لاتفارق محياه . بيد أن هذا الخال فلادو كان

اكبر حجما واعرض منكبا واقوى واكثر حزما في كل شيء . وعلاوة على ذلك كان يتحدث عما كانت لاتحب إلا إياه ولاتقدر على الحديث إلا فيه وكان خالها يهرب منه طول حياته ... كان يتحدث عن الاعمال وعن الخطط والمطامع التجارية . وبوجه عام كان كله كالخال فلادو الذي كانت تحلم به وبذله الحلم دون ان يبعده عنها بل قربه منها .

وفكرت خلال تلك الليلة واليوم التالي في هذه الحالة من التشابة العجيب . ولكن منذ ان رحلت عن سرايفو وجاءت إلى بلغراد ومفاجآت وامور غريبة عديدة تحدث لها . وقد وضعت الآنسة هذا اللقاء المثير مع شبيه الخال فلادو في صف تلك الأحداث الثلاثة التي يحملها تغيير المكان والسفر . وبذلك إنقطعت عن التفكير فيه بحماس كما فعلت في الليلة الأولى إلى أن نسيته نسيا منسيا نتيجة لانشغالها بالاعمال المتعلقة بالانتقال ونقل الاثاث إلى المنزل الجديد ولم تكن لتعد إلى تذكره لولم تواصل يوفانكا زيارتها في منزلها . وبذلت الآنسة التي كانت طوال حياتها تتحاشى الزيارات غير اللازمة ، جهدها في أن تتخلص من الزيارات ايضاً او ان تنقصها إلى اقصى حد . ولكن ، هناك امال في إنقاذ رجل إنهار عليه الثلج في الجبل اكثر من الآمال في إنقاذ الشخص الذي تهبط عليه يوفانكا بشفقتها الحماسية وحبها الوقتي . وكان يحدث الا تحضر لمدة خمسة عشر يوما لانشغالها في جهات اخرى باتصالاتها والتزاماتها الجديدة ، ثم بعد ذلك تحضر ثلاث مرات خلال يومين . وكانت تجيء في الصباح الباكر وفي وقت متأخر من المساء وفي كل وقت من اوقات اليوم . ولكن لاتحضر مطلقا في وقت واحد مرتين . وكانت تهبط على المنزل وقد اصابها البرد وبللتها الامطار وإنتثر عليها الوحل حتى رقبتها - بتوصياتها المفيدة ونصائحها الاجبارية واقاصيصها العديدة الحماسية او المؤلمة عن رجال ونساء مجهولين تقوم في الوقت الحالي بتغيير وخلط مصائرهم . ويستحيل الهروب من تلك العواطف المشفقة القاسية ، وكل ما يمكن للمرء المضطر إلى الاصغاء إليها هو الا ينصت إليها بقدر الامكان وان ينساها باسرع مايمكن . وحتى هذا الامر لاينجح على الدوام لان يوفانكا تنسى من الناحية الفيزيائية الشخص الذي تتحدث معه وتعود في إصرار وبلا رحمة إلى الموضوع الذي يهمها . وهكذا كانت تحدث الآنسة باستمرار في الفترة الاخيرة عن راتكوفيتش وعن مميزاته وعن جهوده التي يبذلها للحصول على توكيل شركة قوية وعن المصاعب التي يلاقيها في سبيل ذلك وعن مساعيها

لمساعدته .

- ليست لديك فكرة ياآنسة كم هو رجل رائع وملاك من الملائكة . إنه متطوع وبطل من جبهة سالونيك ولكنه لايريد أن يستغل ذلك او ان يستعطف احدا . فكثير من المتحايلين ومختلف اليهود والمساويين يحصلون على إمتيازات وتراخيص للمؤسسات الحكومية وهو يمكنه أن يحصل على ذلك . وقد تقدم في الوقت الحالي عرضا لوزارة التعمير بشأن بعض قطع غيار السيارات . وقد ذهبت إلى ميلوفيتش وزير التعمير الذي اعرفه معرفة جيدة . فقالوا غير موجود في بلغراد . وبعد ذلك سمعت انه ذهب إلى فيينا محتجا بالعمل وفي الحقيقة له عشيقة . وهذا هو وزيرنا ! ولكنني ذكرت الامر لرئيس وزارته ! وبعد الظهر ساذهب إلى المدير كراجيتش بمنزله . وقد تربيت انا وزوجته معا في قرية فراتشار ، وكان اكبر منا سنا ومشاكسا كبيرا يمسكنا من ضفائرنا ويدفعنا كالعربة التي تجرها الخيل . ولن اخرج من منزله حتى يوقع لي على القرار .

واثناء الاستماع إلى حكايات يوفانكا تتذكر الآنسة ذلك الرجل الشاب عندما رأته في تلك الامسية الشتوية للمرة الاولى الوحيدة في منزل حاج فاسيتش وتتذكر ايضاً الخال فلادو . وكان راتكوفيتش هذا بعيدا في ذاكرتها ، ابعد من المرحوم الذي كان يشبهه لدرجة كبيرة . ولكن في شهر مايو جاءت يوفانكا وشكت لها المصاعب والعقبات التي يضعها التنافس غير الشريف والادارة الفاسدة في طريق راتكوفيتش .

لقد نالني التعب وانا اطوف من مكتب إلى مكتب في وزارة المالية . ليست لديك فكرة كيف أن هذه الوزارة عبارة عن زريبة .

فتقول الآنسة في هدوء :

- إنني اعرفه .

- لا . إنك لاتعرفين ، لايمكنك ان تعرفي . إن هذه الدولة مصحة للمجانين . لقد قلت لهم هذا في وجههم . وراتكوفيتش البائس لين وطيب للغاية ، انه ملاك يستغلونه ويلفونه كيفما يشاؤون ... ويطلبون منه بعض الضرائب والضمانات وبعض المستندات التي لاتطلب من اي شخص اخر . اما هو فيتملكه الذهول بدلا من أن يصفع احدهم على وجهه لكي يبين له مستنداته . ولكني اردت أن اتحدث معك ، إذ لابد ان نساعد هذا المسكين . وقد توقف موضوعه الرئيسي بسبب بعض الضرائب وقد اعطيته قليلا من المال ولكنه الان محتاج إلى مال اخر . وقد فكرت في أن

تمنحيه انت ايضاً بعضا من النقود . وصدقيني . فهذا خال مستثمر إستثمار حسنا . فلنساعده فحسب لكي يقف على قدميه وبعد ذلك ستكون كل الامور سهلة . وبالطبع سيعيد كل شيء لانك لاتعلمين اي رجل هو : إنه حكيم وملائم وله قلب كبير وسيصل هذا الرجل الى درجات عالية . ولكن لابد من مساعدته.

وبمجرد ان سمعت ان الامر يتعلق بان تعطي هي الاخرى شيئا لاحد تلاشى كل شيء كالدخان وتبخرت فكرتها عن راتكوفيتش وذكرياتها عن الخال فلادو . وتلاشى الظل نتيجة لهذا العجيج من الكلمات ويعقل كل شيء بداخلها وخارجها وتجد في موقف الدفاع وعدم الثقة فمدت رقبتها وغضت بصرها وقد لاح على وجهها تعبير الالم وبصوت منخفض راحت تدافع عن نفسها قائلة

- صدقيني يايوفانكا ، إنني لاأملك مالا ، ولا استطيع ان احتجز مليما واحدا . ولم أدفع بعض الضرائب هنا او في سرايفو.

- من فضلك يااختي لاتتفحصي ، فسواء اكان معك او ليس معك فلا بد من ان نساعد هذا الرجل باية طريقة ، وعلى العموم سنحضره معي خلال هذه الايام حتى يوضح لك بنفسه إحتياجاته وخططه

ولو كان امام الآنسة اي شخص اخر لقالت له إنها ليست في حاجة لمثل هذه الزيارات ولادارت له ظهرها . ولكن من المستحيل تصور ذلك مع هذه العقوى المسماة باسم يوفانكا . حتى لو امكن تصوره فلا يمكن تنفيذه . وبدا لها انه كان يسهل عليها المقاومة في مبيتها بسرايفو . في منزلها او في متجرها . ولم يكن يجرؤ احد على الاقتراب باقتراح مماثل ، ولكنها هنا تشعر بانها مقيدة وليست لديها مقاومة .

فذات يوم حضرت يوفانكا فعلا مع راتكوفيتش ، وكان يبدو في ضوء النهار اكبر حجما وقوة . وكل شيء يرتديه بسيط بساطة لاتكلف فيها ، واسع حسن متناسق

القميص والحلة والحذاء . وكل شيء يوحي بنوع من الثقة لانه ينبئ عن رجل عالمي وعن موظف هادىء بسيط يتحدث قليلا ولكنه في الاساس يعرف مايريد . اما وجهه وعيناه وابتسامته تجعله مشابها تماما للخال فلادو . إن هذه لم تكن خدعة إحدى الامسيات او لعبة حلم ، بل هكذا كانت الحقيقة مع فارق وحيد ان هذا هو الخال فلادو كما كانت الآنسة على الدوام تتمناه وبالحال الذي لم يقدر مطلقا ان يكون عليه . كان رجلا رزينا عاملا .

يجلس في حذر ويلبسا بكل شيء ويتحدث قليلا عن الخال في رجل ورفعة ورعة تقريبا كانت تذهلها وتحرك مشاعرها وعواطفها . وكان لايتحدث إلا عن عمله ولايتحدث عن ذلك إلا بالمقدار الضروري فحسب . مختلفا بذلك عن الشباب الذين عرفتهم في منزل حاج فاسيتش . وإنه ليتحدث كالشباب الذين لايقدرون قوتهم بعد ولديهم إحتياطيات ضخمة من الامل وفي نفس الوقت يتحدثون في تحفظ بلا تفاخر او لجاجة وكانما يحاسب نفسه بنفسه . وكانت تنصت إليه في هدوء وإنتباه وعندما ترفع بصرها تقابلها إبتسامة الخال فلادو السهلة الكريمة الخالية من الهموم . فتطرق ببصرها وتواصل الاستماع إليه وبعد ذلك ترى ابتسامته تلك منعكسة على يديها المضمومتين

كان يحدثها عن مشروعاته التي تعد ككل بداية بطيئة شاقة دون ان يعبق شيئا او ان يخدع نفسه . كان يحدثها ويتحدث عنها وهو يتعجب إعجابا معتدلا طبيعيا من كل ماسمعه عن كفاءاتها التي لايملكها الكثير من الرجال . ولم يحاول احد مطلقا في حياتها ان يرشوها بالالفاظ او ان يستحوذ عليها بالتملق لانها كما كانت لاتكترث بالمظهر او الهيئة او الملبس . كانت ايضاً غير حساسة بالنسبة لمجاملة الناس وعدم مجاملتهم . وكان الحال هنا مختلفا تمام الاختلاف ، فامامها يقف الخال فلادو ولكنه خال فلادو حسب طلبها .

ولم يطلب راتكوفيتش شيئا بصراحة او التواء ولكن يستنتج بوضوح من حديثه ان امامه عدة شهور من العمل والكفاح الصعب . تقريبا حتى نهاية هذا العام حيث ينتظره نجاح اكيد . فقط في حالة ما إذا كان لديه مايكفي من الوسائل لان يقاوم حتى ذلك الحين . وفيما يتعلق به شخصيا فان لديه مايقتوت به . ولكن تستنفده الضرائب ، وبوجه خاص تقديم الرشاوى لمختلف الموظفين . والامر يتعلق بالا يترك شخصا اخر يحصل على توكيل شركة فورد . هذا ايضاً متوقف على التراخيص الحكومية التي لابد ان يحصل عليها قبل ذلك . وقد اثارت يوفانكا مسالة إحدى الكمبيالات التي ستوقعها هي يوفانكا اولا والآنسة بعد ذلك ، ثم احد اصدقاء راتكوفيتش وهذه خدمة . وبمجرد أن يتم توقيع العقد مع شركة فورد فان راتكوفيتش يحصل على مقدم بالدولارات سيسدد منه ديونه على الفور بسهولة . وقد اجابت الآنسة بانها ليست معتادة على العمل بالكمبيالات وان موقفها سيىء من الناحية المالية وطلبت ان يتركاها يوما او يومين لكي تفكر

وفي اليوم التالي حضرت بوفاء ٢ مرة ثانية ووضعت الآنسة رغما عنها وعن افضل مالديها من ثقة توقيعهما على كمبيالات بمبلغ ١٢ الف دينار ، ثم حضر راتكوفيتش لكي يشكرها شخصيا . ولم تستطع وهي هكذا على إنفراد معه ان تنعم النظر في تلك الابتسامة التي ترافقها منذ شبابها المبكر او ان تنصت إلى حديثه الهادىء الرزين . وماكانت تراه يمنعها من ان تسمع جيدا وتحكم على ماتسمعه ، وبالعكس كان ماتسمعه يعوقها عن ان تملي نظرها من اعز ذكرى لديها واصبحت هاهي حية بمعجزة من المعجزات .

وبعد ذلك إختلف إليها راتكوفيتش عدة مرات . حضر مرتين في سيارته ، وهي سيارة مستهلكة من نوع سيارات الفورد التي كانت تتقافز على شوارع بلغراد كالجراد ، واصطحب الآنسة بوفانكا حتى منتزه راكوفيتسا . ولكن الآنسة كانت تفضل ان يحضر بمفرده وان يجلس قليلا وان يوضح لها حالة مشروعاته الاساسية ، وكان في حديثه لايمدح نفسه ولايحمل شيئا بل على العكس يجيب على اسئلتها في إهتمام وإخلاص .

– والله ياآنستي هناك اشياء كثيرة ، فقد هبوا لكي يضعوا العقبات امامي ، ولذا يتملكني الوجل واتساءل هل سأفلح ولكن من المفيد ان نكافح .

واثناء سماعها لحديثه المنسجم كالموسيقى بلهجة اهالي منطقة تربيينيا وجدت انه من الطبيعي ومن المفهوم ان تشترك . الاخرى في هذا الكفاح لخيره دون ان تسأل نفسها متى اصدرت هذا القرار او دون ان تلاحظ مقدار تناقضه مع جميع اعمالها وآرائها حتى ذلك الحين . اما ان الامر يتقدم في بطء وعسر فهذا لايدفعها إلى ان تفكر في مصير الكمبيالة بل يثير في نفسها إحساسا عميقا لم تعرفه من قبل ورغبة في ان تساعده . ان تعاونه هي بمفردها دون الارتباط ببوفانكا . وهكذا حدث ان اعطته في احد الايام اربعمائة دينار وهو المبلغ الذي يلزمه لارسال برقيتين كبيرتين إلى الخارج .

وبعد خمسة عشر يوما اعاد إليها اربع ورقات من فئة المائة دينار وكفائدة على هذا المبلغ احضر لها سلة صغيرة ، مجدولة بطريقة جميلة ، مملوءة بالبوسفي الاصفر الطازج ، وقد غضبت الآنسة من هذه الانفاق . وهنا تذكرت لحظات غضبها القصيرة المحبوبة من الخال فلادو بسبب هداياه المسرفة . ولكن في هذه الحالة كان كل شيء معتدلا متزنا . وفي

نهاية شهر اغسطس مد راتكو في امد الكمبيالة ، وبعد يومين او ثلاثة حصل على سلفة قدرها خمسة الاف دينار . ولاتعرف الآنسة شخصيا كيف حدث ذلك لانه لم يطلب منها شيئا . لقد كانت هذه نهاية طبيعية لاحد الاحاديث التي عرض فيها حاجته للسفر إلى باريس او بروكسل لكي يتحدث شخصيا مع الممثلين الرئيسيين لشركة فورد في اوروبا . وقد كتب عناية صكا بخطه القوى المستدير الذى يجرى كاللحن ، وكان ميعاد السداد هو اول يناير ١٩٢١ مع فائدة قدرها ٨ ٪ وكانت هذه هي اقل فائدة اتفقت عليها الآنسة في حياتها على الاطلاق .

وظل راتكوفيتش حتى نهاية شهر سبتمبر في رحلته وقد بعث إلى بوفانكا والآنسة ببعض البطاقات المصورة . وفي إحدى المرات بعث لهما ببرقية من مدينة انفرس . وخلال هذه الفترة حضرت بوفانكا عدة مرات إلى شارع ستيفيشكا . وكان سبتمبر هذا حارا وجافا ، وكانتا تجلسان في الحجرة الظليلة المعتمة بجانب النافذة ، الآنسة منكبة على عملها اليدوي وبوفانكا منفعلة نتيجة لشتى الاسباب .

– إن صاحبنا راتكو يثرثر كثيرا ، يذهب الى باريس والى بروكسل . ويقال ان ناتا دابتشيفيتش رأت انها رأته في مدينة فيارينسا . حقا ان هذه كثيرة الكذب وهذا مرض لديها . ولكني اتساءل الا يجوز استثناء ان تكون قد قالت الحقيقة في هذه المرة . ويثير غضبي ان هذا الشقي لم يعد ليلتفت الى عمله هنا . فتقول الآنسة في صوت جاف .

– ربما لايقدر .

وتشعر بلذة لانه بامكانها ان تدافع عنه . وتشعر بحلاوة الخيط الذي تقطعه باسنانها .

– كيف لايمكنه . ومالذي لايقدر عليه . من الواجب عليه ان يحضر لانهم يهاجمونه ويعملون باستمرار ضده . ويحاول صديق من احسن اصدقائه واحد اهل بلدته ان يحفر له حفرة في وزارة المالية ويعمل على إقصائه والحصول لنفسه على الترخيص وعلى توكيل شركة فورد . وإنني لاأعلم بمكان هذا الابله حتى يمكنني الكتابة إليه .

– إنه لن يترك العمل فقد قام بنشاط واسع ووضع نقودا كثيرة في هذا المشروع ، وهو جاد للغاية . فهزت بوفانكا رأسها قائلة .

– جاد ! لاينبغي ان تصدقي الرجال مطلقا .

وهكذا تجلسان كامرأتين لهما قريب عزيز مسافر وتهتم كلتاهما

بمصيره ، وهذا الاهتمام المشترك يقربهما ويربطهما . مع الفارق في أن هذا الاهتمام بالنسبة للآنسة يعني أكثر بكثير منه إلى يوفانكا التي لديها ، علاوة على راتكوفيتش ، شبابا وشابات تعتني بأمرهم وتعطل من أجلهم بكل قواها الغريزة التي لاتفنى . أما بالنسبة للآنسة فهذه هي الحالة الأولى الوحيدة في حياتها وحادث الحياة الفريد وسر شخصي عميق . لأنها لم تذكر مطلقا أي شيء لراتكو أو ليوفانكا عن التشابه الكبير بينه وبين الخال فلادو .

وبعد يومين من هذا الحديث ظهر راتكوفيتش في شارع ستيبنكا وقد لفحته الشمس وأصبح أكثر نحافة وإرهاقا وتفكيرا . وحدثها عن أن العمل قد قارب نهايته وأن الأمريكيين يصدرون قراراتهم بمشقة لأن الأحوال الجديدة في بلغراد لم تتضح بعد بالنسبة لهم ، ولكنهم لايضعون في إعتبارهم شخصا آخر ولابد من الانتظار فحسب . وراحت الآنسة تنظر وتستمع إليه وقد شملها السرور بعودته حيا وتملكها القلق بسبب همومه .

وبعد عدة أيام طلب راتكو من الآنسة أن توقع له على شك بمبلغ تسعة آلاف حيث أنه في حاجة شديدة إليه حتى نهاية العام . وإلى هذا الحين ستتم تسوية كل شيء ، وسيكون بمقدوره أن يسدد كل ديونه من المبلغ الذي سيحصل عليه مقدما بالدولارات . ووافقت الآنسة . وظهرت حينئذ فيضا مقاومتها الفطرية الدائمة ضد كل مخاطرة وإعطاء للمال ، ولكنها ظهرت من الأعماق وكأنها معطلة نتيجة لحالة من حالات فقدان الشعور . فهي تفكر في المقاومة وتعرف أنها موجودة في قرارة نفسها ولكنها ترى أن المقاومة لاتبدي حراكا ولاتوتر . لو كان هناك كذلك توقيع يوفانكا على الصك فلربما وجدت دافعا للاعتراض ، ولكن والحال هكذا لم تستطع أن تقول شيئا . وكانت غاية في السعادة لأنه طلب منها شخصيا ولم يطلب إلا اسمها ولأن بوسعها ، في مرة من المرات ، أن تقدم له العون بمفردها دون اشتراك أي إنسان وأن تعاونه على الوقوف على قدميه كما تفعل الأم بطفلها .

وهكذا كان يحصل راتكو بلا كلام كثير أو مساومة على ماهو في حاجة شديدة إليه في ذلك الحين . وقد تعجب بنفسه من ذلك حينما كان يصفق البوابة الحديدية وراءه بسرور بالغ وهو يبتسم وكأنه لايزال يتحدث مع الآنسة . ولبثت الآنسة ساكنة شاردة الذهن ، يتملكها شعور عجيب لم تشعر به من قبل بأن جسدها كله يثرى ويتضاعف ويتمدد . وكان الصوت

الصادر عن إغلاق الباب دليلا ماديا على أن هذا ليس خيالا أو وهما وأنها بالفعل تساعد مخلوقا عزيزا ضعيفا . وإنها في هذه اللحظة لاتعرف نفسها هل هذا هو طفل يترعرع بتضحياتها وجهودها ، أم انه الخال فلادو شخصيا ، ولكن خالا جديدا يريد أن يعمل ويطيع ولايزال يحتاج إلى مساعدة وإنقاذ .

وكانت في هذه الأيام ترقد وتنهض وقد تملكها هذا الشعور الجديد الغامض . ولو سألت نفسها كيف ولماذا تقدم الخدمات لهذا الشاب الذي تكاد لاتعرفه ولايمت لها بصلة . خدمات لم تفكر مطلقا بأن تقدم مثلها لأي شخص ، فلن تستطيع العثور على إجابة . ولكنها لم تفكر في أن تطرح على نفسها مثل هذا السؤال .

لقد مضت خمس عشرة سنة وهي تعمل وتكسب بقوة وبلامبالاة . وخلال هذا الحين لم تعط مالا لأحد مادامت ليست مضطرة . لقد انعزلت عن المجتمع وعن العالم وتجاهلت الكل وجلبت العار لنفسها وارتكبت الأخطاء تجاه البؤساء والضعفاء ونحو أقاربها أيضا . وكانت تسرق وتحتال (أي كانت تقوم بأمور تعد من حيث طبيعتها ونتائجها النهائية هي السرقة والاحتيال بنفسه) وكانت على إستعداد للقيام بأمور أقبح من ذلك حتى تقتصد وتنمي ذلك الذي تملكه . وكانت تقيس قطعة الخبز التي تقدمها لأمها للطعام ، وحينئذ كانت يداها ترتعشان وتزوي ما بين حاجبيها حنقا لأن المتقدمين في العمر تضعف قوتهم وتبقى شهيتهم كما هي أو قد تزيد . وكانت لاتحرم نفسها من كل متعة فحسب بل الحاجات الضرورية للغاية ، وفي معظم الأحيان كانت تحرم نفسها من الأدوية . وكانت تفعل كل ذلك بلاتردد أو إستثناء ، وبالتأكيد كانت ستفعل ذلك حتى نهاية حياتها . ولكن ظهر رجل ليس بقريبها أو أخيها أو حبيبها ، ولاتطلب منه ولاتنتظر هي نفسها شيئا وتمنحه المال برغبتها في سرور بالغ بمقدار لم تمنح به أحدا من قبل ولا إعتقدت أنه بمقدورها أن تمنح به . وهي لاتشعر بحزن أو ندم ، حقيقة أنها حينما كانت تستيقظ فجأة أثناء الليل تعن لها ، كصداع بسيط ، فكرة أنها قد وضعت بالأمس توقيعها على صك بتسعة آلاف دينار ويلوح مع هذه الفكرة شيء كالخوف . ولكن ذلك ليس إلا بقية من بقايا العادات المتأصلة التي لاتزال لها سلطان عليها في حالة الإغفاء . وعندما كانت تتسائل نفسها قليلا تشعر بغبطة ـ لم تشعر بها من قبل لأنها تساعد شخصا لكي يقف على قدميه . وكانت تغمض عينيها وتشعر بأن الشخص الذي

تعينه للوقوف على قدميه وتعلم السير ليس رجلا كبيرا يبلغ من العمر ستة وعشرين عاما ، بل هو بالفعل طفل صغير احمر الوجه يبتسم ويسخر من كل شيء حوله ويخطو اولى خطواته على الارض . وحتى اثناء النهار حينما كانت تنظر في إنتباه وترى في وضوح وعندما يقل سلطان الاوهام على المرء فإنها لاتحزن ولا يتملكها الخوف بسبب ماأعطته لرانكو لانها تجد في إعطائه الرضى والسرور الذى كانت تجده على الدوام فى الاقتطاع والنهب من الآخرين .

وهكذا كانت الآنسة تعيش هذه الأسابيع العدة في حلم جديدة حتى انها بنفسها لم تعرف ماتحلمها من قوة وطبيعة فعلية . وكانت تنهى اعمالها كما كانت تفعل حتى ذلك الوقت . لم يتغير شيء في اسلوب حياتها ، ومع ذلك كان هناك تغيرات وإن كانت هى وحدها التى تراها .

وفي المساء عندما كانت تلبث بمفردها تبدو دائما منهكة القوى ثابطة العزيمة بسبب الاعمال التى تمضى فى طريقها السليم على الدوام فى بلغراد ونادرا ماتكون نهايتها مرضية كما تشيء . وتشعر بالتعب من الشوارع المرصوفة بالطوب وتعد عذابا فعليا لقدميها ومفاصلها الرقيقة التى لم تعد على ذلك . وفى مثل هذه اللحظات تفكر بانفعال بسيط . قد يسمى لدى الآخرين بالرقة . ان الخال فلادو يوجد فى نفس بلغراد هذه ، ولكنه فلادو افضل واكثر حكمة يطوف بهذه المدينة الكبيرة الكثيرة الحفر ويجتهد فى أن يؤسس متجرا له وأن يبدأ هو الآخر فى الكسب والربح .

وقضت يوقانكا في الخريف ثلاثة اسابيع عند بعض اقاربها في مدينة سميدرلسكا بلانكا . ولم يظهر رانكو خلال هذه الايام . ولم تلحظ الآنسة تخلفهما بل ولم تشعر بمضى الوقت . كانت تتحرك وتعيش مكرسة نفسها للعمل فى هدوء وبلا هموم وكأنها مدفوعة بشيء يمكن أن يكون السعادة ، ذلك إذا كانت قد عرفت فى حياتها أى شيء يشبه السعادة ويمكنها الآن أن تقيسها وتقدرها به .

وحضرت يوقانكا فى منتصف شهر اكتوبر إلى شارع ستيشكا مكتئبة غاضبة وسألتها .

- كيف حال صاحبنا ؟
- لا أعلم فانه لم يزرنى منذ أكثر من ثلاثة اسابيع .
- اتعلمين انه ليس موجودا فى بلغراد بل بودابست ؟
- فى بودابست ؟

- اجل ، فالرجل يستمتع بوقته .
- ربما ذهب لاجل عمل من الاعمال ؟
- لا أعلم ، ولكن اعماله تلك لاتعجبنى كثيرا .

والقت المرأة الصغيرة رأسها إلى الوراء وسألت فى لهجة بوليسية صارمة .

- اعطيته سلفة اخرى من المال ؟

وهنا تملكت الحيرة الآنسة التى كان بمقدورها أن تتحمل كل نظرة وأن تخدع فى برود ادهى الصرافين ، وارتبكت بطريقة لم تألفها من قبل ـ بطريقة أسوأ من جميع الطرق التى يرتبك بها كذلك الطيبون السذج والضعفاء من الناس الذين ليست لديهم شجاعة فى أن يقولوا الحقيقة أو القدرة على أن يتلفظوا بشيء او المهارة فى الكذب .

- لا لم أعطه .. يعنى أعطيته . لقد وقعت على صك . لقد توسل لى . وهذه السلفة حتى نهاية العام فحسب .
- هل كان ذلك قبل أم بعد رحيلى ؟

فركزت الآنسة تفكيرها وقالت فى كذب .

- يلوح لى انه بعد رحيلك . إنه بالتأكيد بعد رحيلك .
- وكم كان المبلغ الذى وقعت عليه ؟
- تسعة الاف .
- واسفاه ! لقد ارتكبت خطأ .
- لماذا ؟ لقد كنت تقولين بنفسك انه انه ينبغى أن نساعده .
- لقد اخطأت ياعزيزتى ، ولاتفعلى هذا مرة أخرى . لاتمنحيه مليما واحدا إلى أن أتأكد من بعض الأمور . يبدو لى أن هذا الشخص مشكوك فى تصرفاته وليس قديسا او ساذجا كما يتظاهر . وسأستعلم عن ذلك . وإذا إتصل بك فتظاهرى بأنك لاتعلمين شيئا واستقبليه استقبالا جميلا . ولكن لاتعطيه نقودا على الاطلاق ؟ لأن أخشى ما أخشاه أن تكتشف أننا بلهاء .

- وظلت الآنسة مسالمة أكثر منها قلقة . وغاضبة من يوقانكا أكثر من ارتيابها فى هذا الشاب . وهكذا إستقبلت رانكو عندما ظهر بعد زيارة يوقانكا بعدة ايام على باب المنزل تعلو وجهه ابتسامة الخال فلادو ويتملكه الهدوء ولم يطرأ عليه اى تغيير . ويروى انها فى إطمئنان وإهتمام كما كان

يقعل على الدوام انه كان مضطرا إلى الذهاب إلى بودابست حيث كان جميع ممثلي شركة فورد في منطقة البلقان وفي وسط اوروبا يعقدون مؤتمرا وانه لم يخطىء لأن حضوره كان مفيدا له ولهم . وقد طلبوا منه النصح في امور كثيرة تتعلق بالدولة الجديدة للصرب والكروات والسلوفينيين . وكانه قد اصبح من رجالهم ، بحيث انه عاد وقد تملكه إنطباع ان امره منته من حيث المبدأ . وستكون هناك اعمال ونفقات اخرى . ولكن سينتهي كل شيء نهاية مرضية حتى بداية العام الجديد على الاكثر

وحينما ذكر النفقات إرتعدت الآنسة خفية وتراءت لها امام عينيها رأس يوفانكا الملقاة إلى الوراء ، وفكرت بسرعة هل تعطيه ام ترفض طلبه ، كيف تفعل ذلك ؟ إنه من العسير عليها أن تعطي ومن المستحيل أن ترفض ولكن راتكو لم يطلب شيئا وهكذا إنتهى كل شيء بالبسمات وبكلمات مطمئنة خالية من الهموم متعمة بالآمال الطيبة . وظلت الآنسة خجلة بسبب إرتيابها وغير راضية عن نفسها ، وإزداد حنقها على يوفانكا .

كان هذا في يوم من الأيام الجمعة . وفي يوم الاثنين التالي كانت لدى الآنسة اعمال في المحافظة ، وبعد إنتهائها منها عادت بعد أن غمرتها امطار الخريف الباردة وهي تخفض مظلتها في عصبية . وحينما كانت امام الجامعة إصطدمت بامرأة خارجة من الباب كالمطرودة وتعثرت في مظلتها التي تمسك بها إلى اسفل ، وقبل أن يمكن حدوث مشادة او إعتذار التقت الآنسة نفسها وجها لوجه امام يوفانكا التي بدأت الكلام على الفور في نشاط وحدة وكأنها تستأنف حديثا :

– حسن انه انت ، اريد أن اتحدث معك . سأحضر غدا . إن صاحبك الجميل راتكو سيىء الخلق ومحتال ونصاب . لقد تحدثت الآن مع الرجال وتجلى لي كل شيء .

– ماذا ؟

– إتضح لي كل شيء وسيتضح لك ايضا عندما اسرد عليك ذلك ، ولكني الآن مضطرة للاسراع فإني ذاهبة عند احد زملاء المدرسة لكي اتأكد من بعض التفاصيل ... إننا سنضبطه متلبسا . اما بالنسبة للنقود فقد ضاعت . إنني الحمقاء الأولى التي ساعدت اكبر فاسق ومحتال على الكرة الارضية بإعتباره وطنيا ومحاربا عظيما ورجلا له مستقبل . وأنت الحمقاء الثانية . هذا لكي تعلمي فحسب . إذا خطى هذا الشقي الجميل عتبة منزلك فاطرديه وراءه بالمكنسة . إلى اللقاء .

واختفت يوفانكا بين الناس الذين كانوا يحتشدون بالرغم من سوء الحالة الجوية حول المنازل الصغيرة والموائد الخشبية الموجودة في السوق الكبير امام الجامعة

ونتيجة لاضطراب الآنسة فقد سارت سيرا حثيثا شاقا في إتجاه مضاد للريح الشديدة التي كانت تغمرها بالامطار الثلجية الصغيرة

ولم تحضر يوفانكا غدا او بعد غد لأن هذا يعد خروجا على مبادئها التي تسمى الفوضى والمفاجأة ولذا فقد حضرت في الصباح الباكر من اليوم الثالث وإستأنفت ذلك الحديث الذي كانت قد بدأته امام الجامعة وكأنها لم تقطعه ، وصاحت وهي شبه مسرورة :

– إنني املك كل شيء . لقد امسكت بجميع الخيوط واحصيت جميع التحركات .

وبدأت وهي تضرب على المائدة بقبضة يدها الصغيرة القوية التي يمكن من حيث قوتها ونظافتها ألا تكون يد آنسة وإنما يد عامل . تقول من هو راتكو راتكوفيتش وما هو عمله وطبيعة الحياة التي يحياها بالفعل ويتضح من حديثها السوقي الموجز المسلوء بالمجازات أن يوفانكا فعلت ما كان ينبغي أن تفعله في بداية هذا التعارف . لقد وجدت إثنين من بلدة راتكوفيتش . احدهما أستاذ شاب والآخر احد رجال الصناعة وكان عمر كليهما متشابها تقريبا مع عمر راتكو ، وهما يعرفانه منذ طفولته وقابلاه اثناء الحرب الماضية ويلتقيان به في بلغراد . وكانت المعلومات التي حصلت عليها منهما تتفق تماما ولعد إكتشافا حقيقيا بالنسبة ليوفانكا

لم يكن بمقدور يوفانكا حسب طبيعتها أن تتعرف على شخص أو أن تلاحظ حقيقة من الحقائق دون أن تتخذ على الفور موقفا حيالهما وموقفا يتعلق بهما حيال الناس اجمعين . ودائما ما يكون هذا الموقف هو موقف الاستحسان غير المشروط او النفور إلى اقصى حد . ولم يكن بوسعها ايضا أن تسرد مضمون كلام احد الاشخاص دون تقليد لكنته وحركاته ودون وصف تشبيهي ممل لشخصيته وللبيئة التي يعيش فيها

ولكنها في هذه المرة كانت غاية في الانفعال لدرجة انها ذكرت الحقائق المجردة في البداية .

وفي الحقيقة علمت بها بوجه عام من رجل الصناعة . ولم يكن هذا الرجل الجاف الصلب طريفا على الاطلاق

٨

وقد عرفت منه الآتي ......

رانكو من عائلة فقيرة ووحيد أبويه ، أظهر في طفولته المبكرة ميولاً غريبة نحو الحياة الراقية والتبذير والبطالة ولذلك كان رفاقه يسمونه بالكونت . وفي الحقيقة كان رفيقاً طيباً محبوباً ممن يمالئونه عشرا . وكان يحب أن يهرول ويقدم العون ولم يطلب رد الجميل ، ولكنه في نفس الوقت لم يقدر على إعادة ما كان يقترضه . وحينما كان تلميذاً في السنة الثالثة الابتدائية تم فصله من مدرسة موستار بسبب دراسته الضعيفة وحياته غير المنظمة وسكائده المحرمة تجاه أموال الآخرين . ثم ذهب مع أحد المجرمين إلى بوادبست وبعد عام عاد إلى موستار ليعمل وكيلاً لأحد مصانع الدراجات . وحينما نشبت الحرب عام ١٩١٤ تم استدعاؤه مع جيله من الشباب وإرساله إلى الجبهة الروسية . وفي عام ١٩١٥ أفلح فعلاً في الهروب إلى الروس وأخذ معه كتيبة كاملة من جنود النمسا الصربيين . وكان هذا عملاً عظيماً خطيراً جريئاً . ومن روسيا حضر إلى سالونيك لا لكي يحارب في الجبهة بل لكي يتم توزيعه على إدارة التعيينات حيث إتصل بإدارة التعيينات الانجليزية وذهب عدة مرات مع لجان إلى إنجلترا . ولكن قبيل نهاية الحرب مباشرة ظهرت بعض الأخطاء في عمل هذه الادارة ، وتم القبض على أحد الضباط واثنين من الصف ضباط وكان أحدهما رانكو . وبعد تدمير جبهة سالونيك تم إطلاق سراحهما بلا محاكمة ، ولم يعرف أحد بالضبط لماذا قبض عليهما ولا على أي أساس أطلق سراحهما ، ولكن لم يعد يجري حديث عن ذلك الأمر . وفي بلغراد أدى رانكوفيتش بالفعل خدمات بسيطة للمؤسسات الانجليزية لأنه يفهم في السيارات ويجيد اللغة الانجليزية . وكانوا يدفعون له بالقطعة ، أي يدفعون له على كل عمل انجزه أجراً خاصاً . ولكن لم يكن ولايمكن أن يكون هناك حديث عن الحصول وعن إدارة توكيل لأية شركة كبيرة . أما العروض التي قدمها إلى وزارة المالية وإلى وزارة التعمير ، فقد كان بالتأكيد يقدمها لحساب آخرين مدفوعاً من شخص يحتاج إلى عرض مختلق حتى يتأكد نجاح العرض الحقيقي . وفي الحقيقة لم تكن له مهنة فعلية معينة ولن يكون له على الاطلاق لأنه ما من شخص إئتمنه أبداً على بضاعة أو أعطاه قرضاً ولأنه ليس لديه مايلزم من تصميم وجدية . ولم يكن في جوهره رجلاً سيئاً بل على العكس كان طيب القلب أليفاً متملقاً رقيقاً وكأنه من عائلة أرستقراطية ، ولكنه كان عاشقاً إلى حد الاستهتار يعشق نشوة الجميلات من النساء وكل أنواع التسلية

والمتعة . وهو أحد أولئك الأشخاص الذين لايمتلكون مالاً ولاتتملكهم الجدة أبداً ، بل يلعبون طوال حياتهم مع أنفسهم ومع الناس أجمعين . والآن فيما عدا هذا التسكع العظيم في الوزارات فإن عمله الأساسي هو الجلوس ليلاً مع مجموعة ماجنة من الأصدقاء . وفي الفترة الأخيرة يجلس مع نفس الأصدقاء في غرفة خاصة بمطعم كاسينا .

وهي مجموعة مختلطة متنوعة تشمل رجال الأعمال والسياسة .. هم الرواد الأوائل للفساد . وتشمل صحفيين ومحامين وسماسرة من أهالي بلغراد والدخلاء عليها ، وتشمل ضيوف الصدفة الذين ينتظرون أن يتم إدراجهم في إحدى الطبقات الاجتماعية . إنها مجموعة من الأشخاص لايربطهم ببعضهم شيء سوى زمالة الشراب العابرة التي تنمو بجانب الطريق . وأساس هذه المجموعة أو زعيمها محام دخيل فتح مكتباً في بلغراد وتشعبت أعماله .

وقد تم إفتتاح أول ملهى بعد الحرب في بلغراد منذ خمسة عشر يوماً ، ونجمة هذا الملهى هي إحدى فنانات باريس وتدعى كارمسيتا لاشهرة لها ولا شباب ، ولكنها على قدر كبيرة من الرشاقة والمهارة . وتظهر كمطربة في زي أسباني وهي تغني أغنية عن زهور البنفسج يغنيها صغار العمال في شوارع بلغراد . وأثناء غنائها تهبط وسط الجمهور وتوزع على المتفرجين زهور البنفسج الحقيقية وتأخذ أوراقاً نقدية كبيرة ثمناً لكل زهرة من الضيوف المبتهجين . وقد نشرت جميع صحف بلغراد صورتها مع دعاية نشطة متقنة . والناس يتهافتون عليها بدون هذه الدعاية لدرجة أنه لاتوجد أماكن على الدوام ويبذرون المال تبذيراً لاهوادة فيه . وقد أحضر رانكو هذه المطربة إلى بلغراد . وتعرف عليها في بودابست حيث كان هناك هذا الخريف وجاء بها معه . وحينما جاء إلى بلغراد أعد لها عقداً مع أحد اليهود المحترفين الذي إفتتح ملهى في مطعم كاسينا . وذهب رانكو إلى بوادبست لكي يستقبل كارمسيتا ويقنعها بالحضور إلى بلغراد . ويقول البعض أن له نصيب من ربحها الضخم . والبعض الآخر يقول أنه يستدين بسببها ومن المؤكد أنه مرتبط بها إرتباطاً وثيقاً .

كانت هذه هي المعلومات الجافة الصادقة التي قدمها رجل الصناعة إلى يوفانكا . وقد أكد هذا أيضاً - بوجه عام - المدرس الشاب المتخصص في السلالات البشرية والمدرس بالجامعة مستقبلاً . وقد تعرفت به يوفانكا منذ عدة أيام لا للشيء إلا لكي تحصل منه على معلومات وبيانات دقيقة مباشرة

عن رانكوفيتش . وقد ترك المدرس إنطباعا طيبا عليها . وبينما كانت تستمع لسرده الهادىء وهى ثائرة بسبب رانكو وخدعه قررت ان تحمى هذا الشاب وتشق له بواسطة علاقاتها الطريق إلى الجامعة وفى المجتمع ولذا تشعر الآن بضرورة أن تكرر كلامه وأن تصفه وتصف المسار الكامل للحديث بأدق تفاصيله .

وهذا المدرس نموذج كامل للشباب الذى لايبالى ومثال للعالم المخلص وهو يعيش فى تواضع وإنطواء وقد وهب نفسه للعلم . (المجال الخاص لدراسته هو الحالة النفسية للنموذج الديناري من الانسان) وهو نحيف شاحب كالناسك . ويغطى فمه شارب كثيف قصير ويبرز حاجباه بشعرهما الخشن كالاحراش ويظلان عينين حيدتين قصيرتى النظر انهكتهما كثرة القراءة . وكان يحب ان يكثر من الحديث ويتكلم فى حماس مثل جميع الأشخاص الذين يهبون انفسهم لاحد الاعمال وليست لديهم الفرصة لأن يعبروا عن انفسهم بطريقة كافية من منصة المحاضرات أو عن طريق الصحافة وكان مايقوله اشبه بالكلام المطبوع . وراح المدرس يحلل امامها حالة رانكو باسلوب موضوعى للغاية وبدون سوء نية دون أن يعلم السبب الذى دعى يوقانكا لأن تسأله عن زميله القديم فى الدراسة . وهو حينا يعده مثلا لنمط المنحرفين الموجود لدى نموذج البحر الأبيض الديناري . وحينا آخر يعده ظاهرة عادة لبيئة حالة غير متجانسة تتميز بها أحوال الحرب وما بعدها . وانهى المدرس شرحه فيما يتعلق بحالة رانكو قائلا :

- يوجد مثل هذا النموذج الديناري المعقد الذى لم تتم دراسته حتى الآن إلا قليلا ، وتعيش بداخل هذا النموذج شخصيتان . إحداهما شخصية الشجاع الشريف والأخرى شخصية الجبان ناقص الأخلاق ، وترتبط هاتان الشخصيتان إرتباطا لاتنفصم عراه .

وقاطعته يوقانكا فى جفاف وكأنها تترجم لشخص من الأشخاص - هذا النثر العلمى إلى لغة بشرية واضحة قائلة :

- إنه وغد جبان !

- لا ، من فضلك . لاتخلطي فهمى . توجد هنا اختلافات طفيفة وتحفظات يصبح بدونها كل إستنتاج مبالغ فيه وغير صحيح فى اساسه . إن هذين الطابعين يتصارعان بداخل شخص واحد ويختلطان فى تقاطعات وتدفقات عديدة . بحيث يمكنهما أن يضللا لا البيئة الخاصة به وأن يضللا الشخص المذكور نفسه لدرجة أنه يعيش جاهلا تماما بنفسه وبمميزاته

الخاصة وقيمه الأخلاقية وبالمعنى الحقيقى لتصرفاته . إن مرحلة الشباب هى فترة المراهقة بالنسبة لمثل هذا الشخص . هنا تتلوى شخصيته كلها وتجاهد فى إتجاه أو آخر . ويُحتمل فى هذه الفترة أن تتجه حياته كلها إتجاها مخلصا نحو التكوين أو تتجه فى طريق هلاك الرذيلة والبطالة .

إن محادثة يوقانكا عن الاختلافات الطفيفة والتحفظات فى التفكير والتعبير كان مثل محادثة شخص كفيف عن الضوء والألوان .

اجابت يوقانكا على كل الشروح العلمية الحاذقة للعالم الشاب بقولها :

- إننى أقول لك يااستاذ بصفاء ونقاء انه مُنشرد .

وحصلت على نفس المصير ايضاً التوضيحات الأخرى ذات الطبيعة العامة التى إجتهد الأستاذ فى أن يشرح بها الظروف الشاذة التى يحيا فيها الشبيبة اليوم .

قال الأستاذ موضحا ليوقانكا

- فى الأوقات التى تلى مباشرة سنوات طويلة قاسية من إراقة الدماء والمشاق لاتلوح مرحلة الشباب لاصحابها خطا قصيرا من الزمن فى تطور طبيعى لأحد الأجيال . كما هو بالفعل . بل هى فى رأيهم هبة إلهية خاصة لم تهبط من السماء إلى الأرض إلا مرة واحدة ، إستثناء . كإحدى الانفجارات الهائلة للقوة والجمال . ويبدو لهم كل مايحدث فى حياتهم ويرونه حولهم مفاجئة وهدية تم إنقاذها بصدمة طائشة من الطوفان العام حتى يعيشون حياة جامحة ظافرة بلا مقاييس أو حدود .

- إننى أدرك حقيقة الأمر . إن هذه ليست دولة بل مستشفى للمجانين ، وكلهم ليسوا إلا مقامرين ومتعطلين .

بهذه الكلمات انهت يوقانكا حديثها مع الأستاذ وقد عزمت على أن تحميه من يوقانكا القطيعة ومن كل شخص ومن الأدلة ذاتها . ولكن كان من السهولة بمكان أن تحميه من جيش كامل من المدعيين الرسميين بدلا من أن تقيه من هذا المخلوق الذى يقسو فى حبه ومسلوب اللب فى بغضه ، وكل ما كان بوسع الآنسة هو أن تنطق من حين لآخر بتعبير غير محدد الشكل لصالح رانكو البائس .

- سترى . أعتقد أنه من الأفضل أن تتحدث معه .

فقاطعتها يوقانكا بصوت أجش .

- اتحدث معه ؟ . . . إننى لا أتحدث مع النصابين المجرمين . هل أنت فى وعيك ؟ يالك من ساذجة ! يبدو أنك مازلت تصدقين هذا الشقى . كنت

اعلم هذا ولذا فإنني سأصطحبك الليلة لكي ترى بعينيك وتسمعي بأذنيك كم هو كالزهرة الصغيرة صاحبك الجميل رانكو . لكي ترى وتسمعي وتتأكدي بنفسك عادتك لاتصدقين مايقوله الناس لك .

وتمت المرارة بداخل الانسة وقفزت إلى الحلقوم وكانت تسبح في هذه المرارة كلمات إجابة طبيعية منطقية بأن رانكو ليس بصاحبها على الإطلاق . بل على العكس إنه يتبع يوفانكا وهي التي احضرته ومدحته بالغ المدح واوصت به غاية التوصية إلى أن دفعتها إلى توقيع الصك الأول . وأرادت أن تقول لها هذا وبوسعها أن تثبته ولكنها مع ذلك لم تجد القدرة على فعله لأنها كانت تشعر بضعف يفوق التصور وعجز إلى حد الشلل امام إصرار هذا الفم المفتوح الذى لم يعترف على الاطلاق بأقل غلطة تخصه والذى يمكن أن يعلو صراخه على صراخ جميع من في الكون بكلمات وقحة تعلو على كل كذبة وحقيقة وتخرج عن نطاق كل واقع . إنها حقيقة حتمية مجردة . وعندما ينفرد المرء بنفسه ويفكر لحظة واحدة في هذه الكلمات يلوح له أنه لاشيء أسهل أو أبسط من الاثبات الكامل لعدم صحة كل كلمة فيها . ولكنه حينما يقف امامها هكذا يعجز تماما ولابد أن يبتعد عنها كما يبتعد عن إنهيار سريع للحمم المحمرة السائلة . وسكتت الانسة وإن كانت تشعر بقسوة هذا الصمت . وكلما زادت المشاعر المشابهة للثورة والضعف المخجل والذهول الغامض من تمزقها كلما قلت قدرتها على مقاومة يوفانكا الثائرة . وقد تعجبت هي شخصيا من عجزها ولكنها لم تجد كلمة أو حركة تنم عن رغبتها في التحرر .

وعرضت يوفانكا خطتها . المضمونة مقدما . التي ستجعل بها الانسة ترى رانكو وهو في البيئة التي توائمه حتى تتأكد وترى بعينيها ما هي طبيعة أعماله وإلى أين يذهب المال الذى تمنحه إياه . كانت تتحدث في قسوة لاتنفصل عن تفاصيل هذه الخطة وكان هذا الامر المهم ولايهم الفشل الذى اصابهما والمال الذى فقداه . لقد رتبت كل شيء . ففي مطعم كاسينا يوجد شخص يدعى يوشكا يعمل في ساعات الليل كهربائيا وربما فنيا . وخلال النهار يساعد في العمل قريبا لها يملك مطعما في سيبنك . وقد إتفقت مع يوشكا هذا على كل شيء . فالليلة بعد الساعة الحادية عشرة ستذهب كلتاهما إلى فناء مطعم كاسينا حيث سيدخلهما يوشكا من مدخل فرعي ويمكنهما . من دهليز صغير مهجور . أن تراقبا خلسة الغرفة الخاصة اسفلهما حيث يتناول رانكو كل ليلة الشراب ويبذر مع مجموعة

مختلفة من أصدقائه . وستشاهدان كارمسينا التي تمضي في ذلك الوقت من حجرة إلى حجرة لجمع البقشيش . وبعد ذلك سيمكنهما أن تنسحبا كما جاءتا دون أن يلاحظهما أحد أو يعرفهما .

كانت الانسة تستمع إلى كل شيء وكأن يوفانكا تقص عليها أحد أحلامها التافهة ولاتقص عليها خطة حقيقية ينبغي تنفيذها الليلة ولابد أن تشترك هي أيضا فيها . ولو سألها أحد أحقا ستذهب لكي تتسلل في الدهاليز المعتمة لملهى من الملاهي الليلية التى يسود فيها التبذير وكل انواع الفسق . وكانت لاتحب القراءة عنها لو في الكتب . لأجابت بالرفض الحاسم وكأنه أمر طائش مهين غير معقول .. وقد رفضت هذا فعلا لكن الرفض لم ينقذها بشيء . كانت يوفانكا في احدى حالات الغضب الضارية والكلمات تتدفق من فمها بدون عائق وتصطدم الواحدة بالاخرى وكأنها مجموعة كبيرة من الصواريخ تنطلق من المدافع لتلوى تحتها إرادة رايكا وتسقط كل فكرة للمقاومة . ودون أن توافق على إقتراحاتها الأليمة ودون أن تعتقد انه يمكنها أن توافق اذعنت في النهاية . وكآلة باردة تصرفت في كل شيء حسب رغبتها . ثم قامت بآخر محاولة حاسمة لمعارضة هذه الزيارة الطائشة قائلة :

ـ أتعلمين يايوفانكا . إنني لن أذهب .

ـ ما هذا الكلام الآن ! كيف لن تذهبي ؟

ـ لن أذهب ! إذهبي أنت إذا أردت .

ـ فصاحت يوفانكا قائلة

ـ كيف تقولين . . إذهبي أنت إذا أردت . ؟ أنا منذ أسبوع أنهك قدماي . والآن بعد أن اتضح الامر تقولين : لن أذهب ! إذهبي أنت إذا أردت ؟ . لابد أن تذهبي معي . لابد ! كيف يتملكك الوهن الآن ؟ أيستولي هذا المتشرد على نقودنا ويخدعنا هكذا ونحن لانحرك إصبعا ! سيعرف هذا القذر . لكنني أريد أولا أن تتأكدي . لابد أن تتأكدي بنفسك !

وعندما ذكرت يوفانكا النقود شعرت الانسة بوخزة في أعماق صدرها من شعورها بالخسارة والحزن الذى كان في حالة أشبه بالموات . ولم يكن بمقدورها أن تصدق أنها هي التي خدعت واعطت في شهور كثيرا من النقود . كما لم يمكنها أن تصدق أنها ستذهب فعلا في الظلام الحالك لليل إلى أماكن مشبوهة . ولكنها شعرت بانهيارها وإستسلامها وهي عاجزة كما في الأحلام . بينما كانت كلمة يوفانكا . لابد . تفرقع على ظهرها كالسوط .

وقبل الساعة العاشرة وصلت يوفانكا الى شارع ستيشكا وقرعت نافذة البوابة التى كان الضوء يظهر من ورائها . فخرجت الآنسة لكى تفتح لها . وجلست الفتاتان بعضا من الوقت فى الضوء الضعيف لمصباح البسيط وجرى بينهما حديث متكلف متقطع . وحيث ان البرد كان يسود الغرفة فقد كانتا ترتديان المعاطف الشتوية ، ويبدو منظرهما مثل إمرأتين بإنتظار تنتظران القطار فى محطة قاصية . وكانت يوفانكا تدخن بإستمرار سجائر فرنسية من نوع رخيص لاذع وبجانب ذلك تحكى تفصيلات من حياة شخصيات مختلفة كانت فى هذه اللحظة موضوع إنتباهها وحمايتها . وكانت الآنسة تصغى وهى تسعل من حين لآخر . ولم يجر حديث عن رانكو . بعد نصف ساعة نهضت يوفانكا وإقترحت ان يشرعا فى الخروج .

وفى الخارج كانت ليلة من ليالى اكتوبر الرطبة الباردة المصحوبة بريح عاتية . وبينما كانت تغلق البوابة بعناية وترفع بصرها فى قلق إلى نوافذ المنزل الذى تتركه فى هذا الوقت غير المالوف كانت فرائصها ترتعد من البرد والانفعال الخفى . وراحت تسير بمشقة وتؤدة فى الطريق الموصل لشارع الكسندر الموصل الضعيف الضوء . وكانت تتعثر وتستند على يوفانكا التى تسير بساقيها القصيرتين القويتين مثل الجندى المجند . كان منتصف الليل يقترب عندما وصل الى ميدان تيرازيا . والمكان هنا اكثر ضوءا وحيوية . ويصل إلى الأسماع من مقهى توبولا ومن المقاهى الواقعة تحت الأرض على كلا الجانبين فى نهاية شارع الكسندر مباشرة - جلبة مكتومة للأغانى والموسيقى والصخب . ويشعر المرء نتيجة للنوافذ المبللة الملوثة بالدخان أن كل هذه الأماكن تنوء بالناس المتدفقين الذين يأكلون ويشربون ويرقصون ويغنون . وإستدارت الفتاتان وهما منحنيتان بسبب الرياح وراء الناصية ودخلا من بوابة مطعم كاسينا .

كان الفناء المعتم لايضاء إلا بواسطة نوافذ المطبخ التى كانت إحداها مفتوحة ويتدفق منها بخار كثيف وتفوح رائحة الأطعمة الدسمة ورائحة « الزربية » . ومن المطبخ كان يصل صياح النذل الذين يطلبون الأصناف ونداء وجدال الطاهيات والخدم وطرقعة الصحون والأوانى . وامسكت الآنسة بعضد يوفانكا ، وهرولت من احد الأبواب الذى إنفتح فجاة - إمرأة محمرة الوجه قوية تحمل قدرا ضخما فى يدها وكادت تغرقهما بالماء القذر الذى رشته فى الفناء بحركة رشيقة من جسمها كله . ودخلتا فى ممر ضيق وراحتا ترقبان الدرج الضعيف الضوء ، كانت الآنسة تنظر أمامها فى

إضطراب وسمعت يوفانكا وهى تسال شخصا قائلة .

- اين يوشكا ؟

فاجابها بصوت صبيانى

- انه بأعلى . عند اللوح

- فاسرعت يوفانكا إلى الأمام وهى تكز على اسنانها وتتملكها حدة وكآبة وكانها احدى آلهة العدالة والانتقام . وكانت الآنسة تتقافز وراءها خلال المكان الضيق المعتم المسدود بالصناديق والبراميل والسواتر وديكورات المناظر . وفى هذه الأفناء كانت يداها وركبتاها تصطدم بإستمرار بأشياء لاتراها . وشعرت بالرائحة الكريهة للمكان الذى لايصله هواء ويمتلىء برائحة الغبار وفحم الاضاءة . وبعد أن صعدتا إلى الطابق الاول قابلنا فى ممر طويل مضاء إضاءة افضل - رجلا احمر الشعر والشارب يرتدى زيا عماليا ملطخا بالألوان وقد شمر عن ساعديه . والقت عليه يوفانكا التحية . وقادهما على الفور إلى نهاية الممر . واحست الآنسة انه يلوح على وجهه تعبير ساخط خفيا كالابتسامة التى تظهر لدى البالغين الذين يشتركون فى لعبة صبيانية . وفتح الرجل بعناية بابا ضيقا وسمح لهما بالدخول واصبحتا مرة أخرى فى مكان يكاد يكون معتما للغاية وتظهر فقط فى النهاية خطوط ضعيفة من الضوء وكانها اتية من خلال ستائر . ومن مكان بعيد كانت تصل أسماعها صيحات مرحة مختلفة وقرع كئوس . وإقتربت المراتان وهما تسيران على اطراف اصابعهما من ذلك الضوء الموجود فى نهاية الغرفة . كانت هذه فعلا ستائر من قماش سميك . وازاحتها يوفانكا قليلا والقت نظرة ثم إنسحبت ودفعت الآنسة إلى مكانها دون أن تتكلم .

ولم تر لأول من خلال الفتحة الضيقة إلا ضوءا ساطعا وجدارا ابيض على البعد ، وكان يخنقها هواء دافىء ثقيل ملىء بالدخان المتصاعد من السجائر وبمختلف الابخرة . وعندما هبطت ببصرها لمحت تحتها مكانا ضيقا يكاد يمتلىء تماما بمائدة طويلة مكتظة بالأطباق والكئوس وألوان الطعام . ويجلس حول المائدة خمسة أو ستة رجال . ومن الواضح انها كانت تقف بأعلى المسرح وان ماتحتها هو الحجرة الخاصة التى تحدثت عنها يوفانكا . ونتيجة للانفعال الشديد تراقص . فى البداية ، كل هذا أمام عينيها فى إهتزاز وغموض . ولكن لما تمالكت نفسها وبدات الصورة تستكن

امامها وتتجلى إستطاعت ان تتابع كل شيء . الوجوه والحركات والاصوات وكأنها تشاهد شاشة سينمائية . وعرفت أولاً وجه راتكو المشرق الذى يكاد يكون وجها صبيانيا بين اولئك الرجال الضخام فى معظمهم . وكان اكثر هدوءا من الاخرين ولكنه في كل لحظة كان يلقى براسه إلى الوراء ويضحك فى قهقهة عالية . وقد اضفى عليه هذا تعبيرا جذلا وبلاهة لم ترها لديه من قبل مطلقا . وكان الباقون يصيحون ويلوحون بايديهم دون ماداع ويضحكون إلى ان تسيل عبراتهم . ويصفقون بأيديهم وبعضهم ياكل بلا إنقطاع شيئا امامه ويرتوى بالخمر من كئوس رقيقة .

كان المنظر برمته - مشاهدا من هذا الجانب غير المالوف - يبدو جنونيا وغير واقعى . والآنسة تتابع عربدة الرجال المتدفقين جيدا وقد حبست انفاسها ونسيت المكان الذى توجد فيه ونسيت من هى . وكان يجلس على راس المائدة رجل بدين اصفر البشرة أسود الشعر له شارب كثيف مهذب وهو اكثرهم هدوءا . ومن حين لآخر فحسب يمسح العرق من على رقبته البدينة بمنديل كبير . فكرت الآنسة : هذا هو المحامى فى الجهة المقابلة وكانت تتابع الآن متابعة افضل حديثهم . إذا كان يمكن ان تسميه حديثا هذا الضحك والتهليل والضجيج المدوى الماجن للرؤوس المتنافرة . وكانت تميز كل كلمة . ولكن هؤلاء الرجال يقاطع احدهم الآخر ويشيعون الضحك والضجيج دون ان يسمح احد للآخر بانهاء كلامه .

قال المحامى بصوته الوئيد ونبرته الجذابة وهو يلوح فى بشاشة بيده نحو رجل ممتلىء شاحب يرتدى نظارات كبيرة نهض فى نهاية المائدة ووقف وفى يده ورقة منتظرا دون جدوى ان يجد الفرصة للكلام .

- هيا ياأخى . فلنر هذا

وصاح رجل قصير بدين نشيط وقد احمر وجهه من الشراب قائلا :

- إجلس ياأخى فماذا سيفيدنا ! إننى لم اهتم به حتى عندما كنت اذهب إلى المدرسة .

- دع الرجل !

- هيا ايها الشاعر . هيا !

واستغل الشاعر الضخم . وهو غاية فى الانتباه والاستعداد كالبندقية المحشوة المعدة للاطلاق . هذه اللحظة من الهدوء النسبى . وبينما كان البعض لايزال يتحدث وياكل ويقرع الكئوس راح بصوته الباريتون المعسول ينشد قصيدته :

بلغراد

مدينتى على نهرين
والخطوط المطروحة للاشباح الكثيبة .
تسرق اصباغ النجوم .
بينما الهلال . كالدرع الفضى . يركب النجوم الصغيرة خلال الحديقة .

★ ★

انفاس مدينتى عربية عاصفة حرة .
وترتفع فوق كل شىء عاليا . وتطير عاليا .
وفى دوران الكواكب القاصية للغاية
تدخل فى رشاقة حتمية قبابا حربية
من متونها الهندسية الرائعة المقبلة .

وصاح ذلك الرجل القصير البدين الذى لم يهتم مطلقا بالشعر وقاطعه قائلا :

- يالها من قصيدة !

وانقعت الاصوات معارضة إياه :

- نرجوك ان تسكت .

- إجلس ايها الغبى الثمل مادمت لاتعرف شيئا . واترك الناس يكتسب بعضنا من الجمال !

وقال رجل نحيف طويل الشعر انيق الملبس صائحا :

- معذرة ايها السادة . معذرة . إنه سوء تفاهم فالامر هنا لايتعلق بمكسب وصديقنا ليس فى هذا الوضع . إنه لايطلب شيئا منا بل على العكس يريد ان يمنحنا متعة نادرة . إنه اول شاعر كوزمو اميقا . واليوم حينما ندخل نحن ايضا فى مجال ادبى ...

- كفى . كفى بالله عليك ياأخى . إنه لكثير حتى ولو كنت صيدليا

- دعوا الشاعر يتحدث !

فتساقط صوت قوى هادىء من اصوات - الباص - وكأنه يستيقظ قائلا :

- من الذى جلب الليلة هذا الشخص ذا الميول الشعرية حتى يفسد علينا مزاجنا ؟

وقد اثار هذا ضحك الجميع . ولكن ذلك الرجل المتوتر النحيف الطويل الشعر الذى عرفوا الآن انه صيدلى ظل مصرا . فنهض وصاح بالحضور .

طاقة على حنجرته قائلا

- ارجوكم ايها السادة . دعوا الشعر ! إن الشعراء مخلوقات علوية ولابد من إحترامهم

فصرخ ذلك الرجل قصير القامة وهو يجرى حول المائدة وقد فرد يديه قائلا

- ماذا . ماذا ؟ لماذا نحترم ؟ إننى لاأحترم أحدا ! لكى تعرف هذا ؟ إننى من بلدة بالبلولاتس . إن أحدا لايلهمنى ! أتفهم ؟ ولن أستمع هنا لمناحيك هذا الأحمق . أتفهم اللغة الصربية ؟ لن أسمع وهكذا نتساوى !

ويلوح المحامى الموجود فى المقدمة بيده فحسب وينتفض من الضحك ويمسح العرق من على مؤخرة رأسه . وجلس الشاعر فى مكانه بعد فترة قصيرة من التردد فى وقار وجدة ثابتة وطوى الورقة . ونشأ جدال عن الثقافة والشعر بين الصيدلى والشخص الذى من بلدة بالبلولاتس ولايهتم بالشعر ويظهر من حديثه انه وسيط جمركى من حيث مهنته . ونتيجة للضوضاء التى يحدثونها لم تسمع ما يقوله الآخرون . ولكن فجأة إنقطعت هذه الجلبة وهذا الحديث . وإستدار الجميع تجاه مدخل لابرى كان تحت الدهليز الذى تقف عليه الآنسة وأشرقت جميع الوجوه ورفت عليها ابتسامة

وتحركت كارمنسيتا وهى تحدر حفيفا بردائها الواسع الثرى المصنوع من حرير خشن بلون قشرة اللوز وقد وضعت على رأسها قبعة اسبانية عالية من الدانتيلا السوداء وثبتت باقة كبيرة من زهور البنفسج الضخمة وسط صدرها . كانت يدها اليسرى الممدودة تمسك بسلة ضخمة مستندة على ردائها . وكانت السلة مليئة بباقات من زهور البنفسج الضخمة القاتمة اللون للغاية . ودخلت وراءها فتاة صغيرة معها سلة صغيرة يوجد بها كوم كبير من الأوراق المالية الكبيرة .

وضغطت الآنسة كلتا يديها فى تشنج وغرزت اظافرها فى الستارة .

وحينما صمت آخر شخص من المجموعة الثملة امكنها أن تسمع كارمنسيتا وهى تغنى بصوت خافت لحنها بنص صوبى تحفظه بطريقة اليه

سادتى وسيداتى

اشتروا من كارمنسيتا

زهور البنفسج الزرقاء .

كضمان للحظ

وربما يسعدك الحظ الليلة

كان صوتها ضعيفا رائعا ونطقها ركيكا غير واضح وحركاتها رقيقة ناعمة متناسقة مع لحن الأغنية . وقبل ان تقترب من المائدة كان جميع هؤلاء الرجال الهائجين قد سادتهم الألفة . وبينما كانت تغنى أغنيتها تخرج باقات البنفسج وتثبتها لكل منهم بالترتيب فى عروة السترة . اما هم فيلقون بالأوراق النقدية فى السلة التى كانت تحملها الفتاة الصغيرة . وكانت كارمنسيتا تبدو وهى كلها عبارة عن موسيقى وإبتسامة وراحة بال رائعة وكأنها لاتعلم بوجود هذه الفتاة أو هذه السلة . وكان ذلك الرجل القصير الذى لايحب الشعر يحدق امامه وقد اصبح فجأة صغيرا اليفا . ولكى يخفى إضطرابه أخرج من حافظته الجمركية حفنة كبيرة من الأوراق النقدية وألقاها بحركة سريعة إلى الفتاة الصغيرة . وكانت كارمنسيتا تبتسم بعينيها المظللتين وأسنانها البيضاء الموجودة بوجهها الخزفى وهى تمر بمشقة بين الكراسى والجدران بثوبها الواسع المصنوع من الحرير الخفاخ . والجميع يفسحون لها مكانا وينظرون إليها فى تعجب وإحترام . وراتكو هو الوحيد الذى كان أكثر حرية وطبيعية . فبعد ان ألقى بورقته النقدية إنحنى لكى تثبت له الباقة كما فعلت مع الآخرين وهنا أخذ يد المرأة لكى يقبلها وغمرها بالقبلات حتى الكوع . فتوقفت كارمنسيتا عن لحنها الخافت وقالت بصوت رنان عال باللغة الفرنسية .

- دعنى فى هدوء ياراتكو . واتركنى امر ايها الصغير الشقى !

كان وجهها يتألق من الكريم والمساحيق القوية والابتسامة الثابتة المألوفة لمروضة الوحوش المفترسة الخبيرة . وسحبت يدها بحركة لطيفة ماهرة وفى لمح البصر اصبحت فى الجهة المقابلة للمائدة وهى تواصل أغنيتها الخافتة وتوزع زهور البنفسج على الآخرين . وعندما إنتهت ألقت التحية على الجميع بطريقة مسرحية وإختفت مع لحنها ومع الفتاة التى تحمل السلة الغاصة بالأوراق النقدية . وألقى راتكو وهو متوهج العينين مبتسما بكلمات سريعة باللغة الفرنسية وراءها

وهنا شعرت الآنسة بسحابة تغشى الغرفة كلها مع الرواق التالى ، ولسعها قماش الستارة الذى كانت تمسكه بيديها وتضغطه بوجنتيها وكأنه يشتعل . ولكن لم تقدر على تركه حيث بدالها انه لم تعد هناك أرض تحتها ، بل إنها معلقة فوق فراغ وهى تمسك فى عصبية بتلك الستارة فحسب

أن إلقاء النقود وتقبيل اليد في غير حياء وتلك الابتسامة العريضة التي كانت تراها في نفس الوقت قبيحة وحمقاء وخسيسة وتظهر غير محتملة على وجه رانكو، كل هذا كان مخجلا وقبيحا إلى حد الألم. وتلك اللغة الأجنبية التي تجهلها .. اللغة الحية الطلقة السلسة بالحروف المتحركة الواضحة وكلها تعبيرات حادة تطير في الهواء كالشرارات المتصلة في قلادات وأسراب سريعة كالبرق - تتناقض تماما مع نطقها البوسنوي الثقيل الأجش. ولاحت لها هذه اللغة تعبيرا حيا عن الفسق الذي لايعرف حتى الإثم ومعبارا كاملا لانهيار رانكو وخيانته.

وفكرت في أن تترك هذه السنادة التي تتمسك بها وأن تسقط على الأرض في أية حفرة .. أن تسقط بأي مكان . فقط لكي لاتكون هذه الصورة أمام عينيها ولكنها شعرت خلفها بأنفاس يوفانكا الدافئة تنبهها.

وعندما إنقشع أمام عينيها هذا الضباب من الدم والحنق والخجل كان جميع الأشخاص في أماكنهم . لم تكن هناك إلا رغوة البنفسج التي كانوا يثيرونها توضح أن كارخستينا قد مرت من هنا كالشبح . وكان تجلس بينهم الآن فتاتان من المسرح ، كلتاهما شقراء ومتشابهتان كأنهما أختان ترتديان ثياب سهرة متماثلة من الحرير الأخضر القاتم . وكانت كلتاهما تخلط الشمبانيا بعصى خشبية صغيرة في كؤوس ضحلة أمامهما . والجميع يضحكون على بعض الفكاهات التي يلقيها ذلك السمسار الجمركي الذي لايحب الشعر وهو يتحدث بصوت عال ويقوم بحركات رشيقة فوق المائدة . وكان الشاعر هو الوحيد الذي يجلس في سكون كالبومة بنظاراته الكبيرة المستديرة المصنوعة من زجاج سميك ويجري هناك جدال ودي تعلو بين رانكو وبين سمسار الجمرك أثار عاصفة من الضحك العام.

قال رانكو:

- إنك لابد أن تدفع ثمن الشمبانيا . إن الأمر سهل بالنسبة لك . فما عليك إلا أن تقلب لائحة الجمارك مرة أو مرتين وتجعل الحرير قطنا وتصبح ورقة الألف دينار تحت وسادتك.

- إسكت أنت أيها المنافق فالأمر أسهل بالنسبة لك . فما عليك إلا أن تذهب وتربت قليلا على تلك العجوز الشمطاء الموجودة بشارع ستيتشكا وتحصل على المال نقدا!

واختنق الجميع من الضحك إختناقا شديدا حتى لاحوا للحظة وكأنه قد سادهم صمت وشلل . وبعدئذ راحوا يضربون مخالبهم بأيديهم ويهددون رانكو الذي كان يضحك هو الآخر في سرور.

وهنا تركت الآنسة السنادة وسقطت على يدي يوفانكا القويتين . وعندما أصبحا مرة أخرى في الفناء المعتم . أفاقت الآنسة فعلا ورأت أنها مستندة بكل ثقلها على يوفانكا التي تقودها وهي محتضنة إياها كالجريح وإنتفضت وتخلصت من حضنها بإرادة جديدة وهي تشعر بالخجل بسبب ذلك . ولكن يوفانكا أخذتها ثانية من تحت يدها وهي تهمس

- على مهل ، ستسير على مهل

وعندما خرجا أمام البوابة تخلصت منها الآنسة مرة أخرى وقالت وهي تسحب يدها بسرعة بصوت حاد خشن

- شكرا . سأسير بمفردي . إنني أقدر

- كيف ؟ أأتركك الآن وأنت في أشد حالات الاحتياج ؟ لا ، لا ، سأرافقك حتى المنزل . هيا . على مهلك ! سيحملك الهواء .

وتوقفت الآنسة وشعرت وهي محطمة تماما أن هناك قوة جديدة غير متوقعة ترتفع فجأة بداخلها وتدفعها بشكل حتمي لأن تبعد عن نفسها كل عون وأقل مساعدة وكل مايمكن أن يشبه المواساة والتعزية .. قوة عجيبة تعاند وتحرن ، تعقد وتجد الخلاص في أن تحتمل كل عذاب حتى نهايته ، وتظل كل إنهيار حتى الأعماق وبهذه الطريقة تصل إلى الأرض . وهنا إما أن تتحطم إلى قطع أو أن تقف على قدميها وتعتدل من جديد .

ودفعت الآنسة بقطاطة المرأة القصيرة عن نفسها قائلا

- شكرا . لست في حاجة إليك .

وقال يوفانكا متشنجة وهي لاتصدق عينيها ، ومن المحتمل أنها تشعر بإهانة كبريائها الخاص بالحماية

- كيف ؟

كانت مرتبكة ، وهو أمر نادرا مايحدث لها في حياتها . ووقفت بائسة صغيرة لاضرورة لها أمام هذه المرأة الهيفاء التي فجأة تحتاج إلى أي شيء .

- هكذا . إذهبي أنت واتركيني . لست في حاجة إلى أحد . إنني قادرة على كل شيء . بمفردي . ودارت يوفانكا على عقبيها كالمضروبة بالسوط ، وتوجهت دون أن تتكلم بخطوات سريعة في اتجاه شارع الأمير ميايلو

واتجهت الآنسة في الاتجاه المضاد .

كانت تسير عكس الرياح ببطء ومشقة كما تمشي في الحلم . ولكن حينما دخلت شارع الكسندر شعرت أنها قد بالغت في تقدير قوتها وأن ساقيها تخونانها وعقلها يطير . وحتى لاتقع إستندت على الصاري الحديدي الذي كان يهتز عليه بفعل الرياح مصباح كهربائي كبير من الزجاج غير الشفاف . وكان الجزء السفلي من الصاري المصنوع من الحديد الزهر أجوفاً وبه ثقوب نتيجة لشظايا قذائف الحرب الماضية . ومن خلال هذه الثغرات كانت الرياح العاتية تئز وتصفر وكانت الآنسة تخلط نواحها وتأوهاتها الضعيفة مع صفير الرياح وتجد راحة في ذلك وتشعر بشيء من اللذة بسبب لمسها للحديد القارس البرد . وكانت بها رغبة لأن تظل هكذا ملتصقة بهذا الصاري ولكن أفاقتها صيحات غامضة وضحك جهوري كان يزداد بالتدريج وراءها . وتصورت في وجل أنها ربما لاتزال في تلك الحجرة مع الرفاق الثلاثة . وعندما انتبهت وإبتعدت عن الصاري رأت أن سائقي العربات يصيحون عليها في سخرية ويضحكون منها ظانين أنها إمرأة ثملة وهم مجتمعين حول عرباتهم المضاءة بالفوانيس .

— أوصلك بثلاث قروش !

— أتركبين ياسيدة !

وصاح السائق الثالث قائلاً في إقتضاب

— لقد أفرطت في الشراب !

فاستجمعت الآنسة قوتها وواصلت السير .

كانت تسير في عسر شيئا وشيئا بشارع الكسندر الطويل . وكانت الرياح تأرجح المصابيح الكهربية الكبيرة القليلة المعلقة في وسط الشارع . وعلاوة على هذه التأرجحات كان يتحرك على الرصيف الموحل المليء بالحفر ضوء ضعيف مع ظلال ضخمة مضطربة . ومن جراء ذلك بدا للآنسة أن الأرض تموج وتميد تحت قدميها . ومن حين لآخر ترتعد خشية أن تتعثر وتسقط ولكنها لاتتوقف في أي مكان لأنه يدفعها إلى الأمام الضحك الفظ والتلميحات الغامضة لسائقي العربات التي تسمع صداها في أذنيها . وقد إستغرق هذا السير عبر الماء خلال الليل وقتاً طويلاً . وكان الطريق يلوح وكأنها تسير فيه لأول مرة . والليل يبدو مليئاً بالخدع والكمائن . (كثيراً مايمكن أن تقابل شخصاً بائساً — أو إمرأة بائسة — تسير في الشارع . مثله في الظاهر مثل جميع العابرين الآخرين لايتحدث ولايبكي

ولايلوح بيده ولكن إذا تأملته جيداً ستدرك أنه يرتعد كله من البؤس المتفشي وأنه يتحرك كالأعمى مدفوعاً بإيقاع الحوار الداخلي الذي يلجمه في هذه اللحظة ويشمله شمولاً كاملاً) كانت تترنح هكذا في شارع الكسندر الذي لانهاية له . وبداخلها كانت تمزقها — كالسكين الماضية — فكرة لم تجرؤ هي نفسها على أن تضعها أمامها أو أن تسميها . وتساءلت ماذا حدث لها حتى تغويها ابتسامة تذكرها بالخال فلادو وهي في سنوات عمرها الناضجة وتجري جري الأم على مغامر ماجن وأن تلقي له وكأنها تلعب معه وتمزح بمبالغ ضخمة من المال . من مالها الذي يعد أغلى من دمها وأعز من عينيها ؟ أين كانت عيناها وخبرتها وعقلها ؟ كيف أمكنها أن تسير وراء بوهالتكا هذه التي تدير المكائد ولاتشعر مطلقاً بالمسئولية . وأن تذهب وقد إبيض شعرها — هي التي لم تخط أبداً عتبة مقهى من المقاهي — إلى الأماكن القذرة المشبوهة وتتجسس على رجل شاب لايمت لها بصلة ، وفي الحقيقة لاتهتم به أكثر من إهتمامها بأية صورة في صحيفة مصورة تذكرها بالخال فلادو !

وكانت تتأمل كالمستيقظة كل هذه الأسئلة أمامها . وترى فيها طيشها غير المفهوم وخسارتها الجمة وفضيحتها الكبرى التي من الأفضل أن تصمت عنها وتخفيها على الأقل في الوقت الحالي حتى أمام نفسها إذا أرادت أن تظل عاقلة وأن تواصل هذا الطريق الملعون وأن تصل حية إلى منزلها . كانت تبكي من الخجل والحنق بلا دموع وتتحدث مع نفسها بلا كلام . بلغتها الصامتة الواضحة التي تفهمها هي . ذلك لأنه يكون لهذه اللغة معنى ومضمون إذا ما إرتبطت بحياتها غير المألوفة . وفيما عدا ذلك فهي غير منطقية ولاتتصل إتصالاً واضحاً بالواقع كبكاء الأطفال والحيوانات البائسة . وأنها بهذا البكاء الجاف وهذه الجمل المقطعة غير المنطوقة تخاطب ذلك القدر الموجود في سرابيو وتتوسل إليه أن يغفر لها ما لايمكنها أن تغفره وأن يفهمها ويدرك مقدار صعوبة العيش بدون شخص وإستحالة إيجاد حل مع هؤلاء الناس . يالي العوائق في الكون كثيرة . وبه تغيرات ضخمة تفوق التصور ومفاجآت منقطعة النظير لدرجة أن المرء يبدو معتوهاً بجهده لكي يتجاوز كل شيء ويقاوم . إنني أعلم وأحفظ كل ما أعرضتني به وتركته أمانة لدي . ولكن بماذا يفيد ذلك والعالم بهذه الحالة . فيه الكذب والغش أقوى من كل شيء آخر . لقد فعلت كل شيء . كل شيء لكي أؤمن موقفي . وإذا لم يخدعنا أحد فإننا نخدع بأنفسنا . إغفرلي أنني بعد كل

هذه السنين والجهود الثوء بهذه الطريقة ولاحول لى ولاقوة ، ولكننى لم أخن عهدك بل إن الناس هم الذين خانونى . إنك تعلم كيف كنت أعمل بمشقة وصعوبة . وظننت أن كلمتك مجتمعة مع إرادتى وجهدى سيكونون حماية كافية من كل شىء ، ولكن الأمر لم يكن كذلك . لايوجد فى هذا العالم دفاع أو وقاية أكيدة . إن الأمر يأبى أسوأ وأصعب مما تبدأت . إن الذى يعيش يرى فعلا ما هو هذا العالم ومن هم الناس الذين يعيشون فيه . فمن لايملك يطؤونه ومن يكتسب يشطفون منه .

هكذا تقريبا كانت الآنسة تقول لنفسها وهى تشكو بعصبانية وحنق من كل شىء ومن كل شخص ومن المسافة ومن القبر الموجود بها . ولكن حتى من هذه الناحية لم يكن هنالك صدى أو تعزية . ولذا فقد خالطت الأحياء وهى تفكر فى رانكو وفى بوفانكا وفى أحداث حياتها . وتساءلت : ألا يمكن لهذا الحيوان الشاب أن يكون نظيفا وأمينا ولو لحظة ، على الأقل بصفة إستثنائية ؟ يلوح أنه لايمكن . ألا يمكن أن يقترب أحد من أحد بدون نوايا أو مطالب مستترة ؟ وكيف يميز المرء كل شىء ويدافع عن نفسه من كل شىء يقترب منه اقترابا مقنعا زائفا ويحمى نفسه من الغرائز الخطيرة غير المفهومة المفتقرة للاستقرار التى تعيش بداخل الناس وليس لهم عليها أى سلطان لأنهم أنفسهم لايعرفونها جيدا ، فضلا عن أنهم لايقدرون على السيطرة عليها !

وكانت مثل هذه الأسئلة تتشابك بسرعة وحيوية أكثر ويطارد أحدها الآخر وتحتشد بداخلها . وكانت تنحنى من وطأة هذه الأسئلة التى كانت تزداد باستمرار ولكنها لم تجد جوابا ، ولم يكن بمقدورها أن تعثر عليه لأن الناس أمثالها عندما يوجدون فى وضع كهذا لايمكنهم أن يفهموا شيئا ولا يقدرون على رؤية أو سماع شىء آخر من الحياة سوى عيوبهم وشكاياتهم منها .

وعند وصولها إلى ناصية شارعها توقفت بلاوعى واستدارت إليه ، وفتحت البوابة فى بطء وبلامهارة وكأنها شخص أجنبى . ودخلت المنزل حيث لم تفلح إلا فى إشعال النور . وأرادت أن تخلع معطفها الأسود الطويل ، ولكن خارت قواها عند أول حركة ووهن فجأة كل تحكمها المؤلم فى نفسها حتى الآن وتحول إلى تشنج . وسقطت على ركبتيها بحيث إن رأسها ويديها سقطا على السرير . ولم يعد بمقدورها أن تقف أو أن تنظر

أو تسيطر على نفسها . وكانت الأرض تجذبها بلاهوادة إليها ، ولكن حاجتها إلى البكاء على عالمها الضائع وعلى عمرها الخالى الذى لا إيضاح له وإلى التأوه كالجريح كانت أكبر وأقوى . وامتلأت باليأس الكبير الذى يجثم على صدرها كجبل قائم ويوقعها على الأرض . ومع التأوه سيسرى عنها ؛ على الأقل قليل من هذا اليأس وسيصبح فى رأيها أخف وأكثر إحتمالا . ولم تعد تجد المبررات لنفسها ولاتتحدث مع أى شخص . إنها لاتعلم من هى وأين هى ، ولاتشعر بنفسها إلا ككرة من اليأس يتفكك منها خيط رفيع لتأوهها .

وحينما أفاقت ثانية لمحت الضوء والحجرة المعروفة ورأت أنها موجودة فى وضع غير مألوف وقد جاهدت كثيرا ضد الشك . ولكنها كلما تمالكت نفسها أكثر كلما إتضح لها أن والدتها تجلس على الأرض وتمسك بها وهى - رايكا - فى حضنها . ولايمكن تصور ذلك ولا فى الحلم . وكان يبدو من غير المعقول أنه بإمكان هذه العجوز الصغيرة أن تمسك بها وهى الطويلة الكبيرة العظام . ومع ذلك فقد حدث هذا . إن للأمهات حركات معتادة وقوة تفوق التصور . وكانت العجوز تسند بيد رأس رايكا المتهالكة وباليد الأخرى كانت تبلل جبهتها وفمها المفتوح وهى تمسك بهذا الجسد النحيف العاجز المنحنى عند الخصر والركبتين فى حضنها ، كما تمسك العذراء بالمسيح المتوفى فى الصور القديمة . وكانت الآهة الصادرة من هذا الفم تتحول إلى أنين رتيب بطىء مع تذليل أمها الهادىء كصاعقتين مختلفتين تدقان فى الغرفة . قالت أمها :

- لاتفعلى ذلك يارايكا . ياروحى ! لاتفعلى يابنتى . لاتفعلى ذلك بنفسك ! فهاهى أمك بجانبك . سيكون كل شىء على مايرام .

وهكذا كانت العجوزة تكرر كاللحن الذى ليس له نهاية تلك الكلمات المألوفة العتيقة التى لا تحصل على الحياة وعلى معناها الحقيقى إلا فى فم الأم ، وتهز فى حضنها إبنتها الكبيرة فى يسر ومهارة وكأنها كانت لاتفعل إلا ذلك دائما وحتى الأمس . وكأنها لم تفعل معها أكثر من ذلك . عاما تشتاق إلى كل شىء وبالأخص إلى الكلمات الدافئة والنظرات الصريحة .

الفصل الثامن

ورقدت الآنسة مريضة مرضا شديدا ولكن تم شفاؤها من الخسارة الكبيرة ومن خيبة الأمل المريرة في صمت وإقتضاب . وكانت الأم تعتني وتمرض إبنتها بلا كلل لتأنيب وبلا كلمة تساؤل وبالحب الذي لايبحث عن سبب أو عن إيضاح . وفي اليوم التالي إستدعت الطبيب وهو رجل رزين كان ينتعل حذاء لايحدث صوتا ، وبوجه عام كان رقيقا وهادئا وكان جسده كله مصنوع من المطاط . وإنفجرت الآنسة غاضبة عند تفكيرها في أجر الطبيب ولكنها كانت غاية في الضعف والتعب حتى ترفض الكشف الطبي . وقال الطبيب للسيدة العجوز وهو خارج أن هذا أمر عابر ، ولكن الآنسة لديها - فيما يبدو - ضعف عضوي في القلب يمكن للاخصائي بالفحص الطبي الدقيق أن يتأكد منه ، ولابد من إجرائه بأسرع مايمكن ، وحتى ذلك الحين لابد من تجنب الانفعالات بجميع أنواعها . بيد أن الآنسة في اليوم الرابع نهضت فجأة كاولئك الذين يشفون بالمعجزات ودفعت والدتها وهي تقول انها ليست مريضة وليست في حاجة إلى علاج أو تمريض ، وقد رفضت رفضا حاسما أن تري الطبيب لكي يفحص قلبها . وبعد أن وقفت مرة أخرى على قدميها نظرت أمامها وحولها في الغرفة إلى السماء الخريفية مع الأغصان العارية المتشابكة في الخارج . وقالت لنفسها أول فكرة عنت لها وقد افاقت مثل الرجل الذي يفيق بعد ضربة شديدة - ليكن ، عندما يهلك كل شيء ويخونها فبالرغم من ذلك يبقى الادخار الذي لايرتبط بأي شخص . سأدخر وسيعيد التوفير - على الأقل - شيئا مما سلبه الناس مني . وربما في النهاية يعطيني مالم تقدر جميع الجهود على إعطائه لي . من يعلم ؟ وإذا لم يحظ فسأدخر ثانية بجميع قواي رغما عن كل شيء وكل شخص . سأدخر بطريقة أفضل وأكثر مما سبق حتى الآن . وشعرت نتيجة لهذه الأفكار بانتفاضة عميقة عنيفة وكأنها تنفض عن نفسها كل ماكان يقلقها ويجثم على صدرها في هذه الأيام . وهكذا برأت فجأة وهي لاتزال محاطة بتلك القشعريرة الباردة ودخلت الحياة اليومية بعاداتها القديمة وهي مكتئبة شاحبة

وفي اليوم التالي هرع راتكو إلى شارع ستيلنكا ، وإستقبلته الآنسة في هدوء وبلا غضب أو دهشة . وقد إتضح على الفور أنه علم من يوفانكا

بزيارتها المسائية لتطعم كاسينا . وكان الشاب الوسيم يتصرف كالقط الذي ضبطوه متلبسا بالإتلاف . وحاول أن يعتذر وأن يبرر موقفه ولكن الآنسة كانت تنظر إليه كما تنظر إلى دمية تبتسم إبتسامة مصورة ، وكان حديثه يمر بها وكأنه قعقعة جوفاء . لقد سقطت مريضة بسببه وشفيت منه إلى الأبد هو وإبتسامته ، ولم تستطع أن تجد أية علاقة بين هذا الشاب الممل وذكرياتها عن الخال فلادو . التي ظلت في أغوار نفسها دون تغيير حية عزيزة كما كانت على الدوام

وهكذا حضر عدة مرات وإستفسر عنها وتملقها وعرض عليها خدماته وأعذاره وندمه . كل شيء إلا المال الذي إقترضه . حقيقة أنه أقسم بأنه سيبدأ العمل والكسب في القريب وسيعيد القرض . بيد أن الآنسة كانت تعلم ماهي قيمة قسم الضعفاء والأراذل من الناس وكانت تنظر إليه كما تنظر إلى قضية ملغاة . ولم تستطع حتى فكرة وجود إحتمال بأن تفقد بالفعل شيئا من نقودها أن تدفعها لأن تستمع إليه في جدية وأن تنظر إليه نظرة مغايرة . وأخيرا إنقطع عن المجيء .

وكان الأمر أصعب بالنسبة ليوفانكا التي لايمكنها أن تغفر لراتكو أو أن تغفر عن الآنسة ، كما لم تغفر أبدا لأي شخص يعوق دورا عن أدوارها لعرض حمايتها التي تخططها بمجهود وحماس كبير لفترة طويلة وتهب لها نفسها في إيثار

ودائما مايكون الأشخاص الذين على قدر من الوقاحة أشبه بناقصي العقول الذين عقد ضميرهم وساءت طباعهم (والوقحة والأحرار أخوان) وعندما يحسبونك بالضمير أو يحابون عليك العار يفلحون على الدوام في إقناع أنفسهم أولا ، ثم إقناع أغلبية الناس أنك وحدك المسئول عن هذه البلوى . وهكذا تكون خسارتك خسارتين وغرورهم نجاحين . أولهما عندما أقنعوك بالخطوة المخطئة وثانيهما عندما أفلحوا في إخلاء مسئولية ذلك عن أنفسهم وإلقائها عليك . ولذا فإن الأشخاص الذين على قدر من الوقاحة والإصرار لايمكنهم مطلقا أن يصلحوا من أخطائهم ونقائصهم . ذلك لأنهم بجانب عدم شعورهم على الاطلاق بالعواقب الوخيمة لعيوبهم على أنفسهم لايلاحظون كذلك وجودها لديهم ولذلك ينبغي تجنب مثل هؤلاء الأشخاص إلى أقصى حد ولو كانت المميزات التي يملكونها حسنة جذابة من الظاهر

وبعد تلك الليلة العصيبة التي كانت بالنسبة ليوفانكا ، تعني إنهيارا عاطفيا كبيرا بدلا من الانتصار ، تحولت فجأة تحولا كاملا ليس لحسن

ضد الشقي الذي تحميه وترعاه بل وضد صديقتها . وراحت الآن تطاردهما بيقظتها وغيرتها بنفس تلك الحمية المتحمسة التي كانت حتى ذلك الحين تؤدي بها لهما خدمات صغيرة وكبيرة وترعاهما وتهتم بمشاغلهما وكأنها تخصها

وكانت يوفانكا تقول لمختلف الأشخاص الآخرين الذين تحميهم ومازالوا تحت رحمتها كم من الأوغاد المجرمين والأوباش يهبطون إلى مدينتنا بلغراد وهنا تقص قصة فشلها مع رانكو والآنسة . وعندئذ كانت عيناها تتلألآ وتتراقص من الغضب والمرارة الداخلية . وكانت تدعي أن الآنسة قد عقدت صداقة مع رانكو وأنها كانت جاسوسة نمساوية في سراييفو واضطرت بسبب ذلك إلى ترك البوسنة ، وأن رانكو كان يتاجر في الرقيق الأبيض في سالونيك . وكل يوم كانت تضيف شيئا إلى قصتها . وإبتاعت من سراييفو تلك الأعداد من صحف سراييفو التي هاجمت الآنسة ، وكانت تعرضها في إنتصار إلى معارفهما الذين بالطبع لم يكن بإمكانهم قراءة هذه الصحف . ولم تطلق على رانكو إلا إسم «المدعي أنه متطوع» واللص ، وعلى الآنسة الخرابية الصفراوية السوداء والجاسوسة البخيلة .

وبعد خمس أوست أسابيع طوت أعداد صحفها إلى الأبد ورفعت يدها عن الآنسة وعن رانكو لكي تتركها على آخرين من المختارين .

ولكن ذلك لم يكن بمقدوره أن يمس أو يحرك الآنسة التي أخذت كل هذا في إعتبارها منذ تلك الليلة وأثناء فترة مرضها وحذفته إلى الأبد بلا هوادة . وحياتها الآن تمضي مرة أخرى في هدوء ، قاحلة قانتة بالنسبة للآخرين ولكنها تربة مليئة جيدة بالنسبة لها ، كرستها كلها للأعمال والإدخارات الكبيرة . وإستمرت في زيارتها لمحال الصرافين من أول محل لتدن حتى كولاراتس وفي إستفسارها عن حالة العملات الأجنبية وتأكدها من الأسعار . تلك الأسعار العلنية التي تسجل على اللوحات أمام الدكاكين وأيضا تلك الأسعار الخفية التي تقال همسا . وكانت تشتري وتبيع القليل ولكن بالتجزئة وبحذر متزايد . وكانت تذهب إلى البنكين أو الثلاثة بنوك التي تتعامل معها وتتحايل بها وتنقل نقودها من حساب إلى آخر أو من مكان يبدو مشبوها إلى مكان آخر يبدو لها على الفور وضع النقود فيه غير آمن وخلال ذلك لم تلحظ تعبير الضجر والاندهاش على وجوه العملاء والموظفين ولا تلك الإبتسامة الساخرة في حزن التي كان المستخدمون يستقبلونها ويودعونها بها . وكانت تراسل فيسو . وقد ظل كما هو على الدوام . ولم

تجعله الحرب العالمية الماضية يتردد فلم يكن للربح المنقطع النظير في سنوات الحرب الأولى بعد التحرير أن يخرجه عن هدوئه وعن عاداته الثابتة أو أن يفصله عن تجارة التجزئة وعن الكسب الصغير المضمون . ويغشاه سرور بالغ من مثل هذا العمل وهذه الحياة

وكانت حياة رايكا تضيع في هذه الأعمال وفي رغبتها الأزلية لزيادة الإدخار بقدر الإمكان وبأحسن الوسائل وفي الكفاح ضد كل إنفاق . ولم تترك حادثتها مع رانكو ويوفانكا أي أثر أو تغيير عليها حيث يبدو أنه لم يعد بمقدور أي شيء أن يغيرها أو يعرقل طريقها . وكان لحسن ضعف القلب الذي ذكره الطبيب الهادىء بعد فحص سطحي ، يمثل مشقة وضيقا ملتبسة للآنسة . وغالبا ما كان يحدث في الوقت الحالي أن تستيقظ ليلا وهي تشعر بعدم وجود هواء وباختناقها . وفيما عدا ذلك فعندما تخاف أو تفاجىء ولو قليلا يقفز قلبها قفزة شديدة ويكبر بحيث تظلم الدنيا في نظرها وتميد الأرض تحت قدميها . ودون جدوى حاولت أمها التي لاحظت هذه النوبات ، ورغم أن الآنسة كانت تنكرها وتخفيها ، إقناعها عدة مرات بالذهاب إلى طبيب إخصائي . وعندما كانت لاتقدر على الدفاع عن نفسها بشيء آخر تغير وتدير الأمر إلى المزاح قائلة :

- ليس هذا بشيء يا أمي . إنك تعلمين أنهم دائما ماكانوا يقولون لي أن قلبي سيء .

والواقع أن البخلاء لايحبون المزاح لأنهم يعتبرونه لعبة ككل اللعب وشيئا زائدا ومضيعة للوقت ، ولكنهم يهرعون إليه حينما لايكون هناك مخرج آخر أو دفاع أفضل .

وفي الحقيقة كانت غاضبة من أمها ومن نفسها ومن قلبها الذي يحتاج إلى طبيب وإلى أدوية (عمادا يجيدها القلب الذي يضطرها للانفاق ؟) لقد كانت عازمة في صلابة على ألا تعترف بضعفها وأن تموت إذا لزم الأمر ولكن على ألا تمرض وألا تحتاج إلى علاج . وكانت والدتها ترعاها بتلك النظرات الوجلة الفاحصة التي تنظر بها الأمهات إلى أطفالهن المرضى الغريبي الأطوار . ومع ذلك لم تكن الآنسة هي التي سقطت أولا مريضة بل كانت الأم . فمع ربيع العام الثالث لوصولهما إلى بلغراد أصيبت السيدة المسنة فجأة بالمرض وأصبحت طريحة الفراش .

وبعد ليلة الخريف التي وجدت فيها رايكا مغشيا عليها على الأرض وحينما رفعتها في حنان الأمومة وراحت ترعاها ـ بقيت العلاقة بين الأم

وابنتها على حالها كما كانت على الدوام جافة متكلفة بلا حرارة او تقارب . ولاح انهما قد شاهدا فحسب حلما غريبا تسببه الابنة شابا على الفور ، اما الأم فلن تقدر على تذكره . وهكذا ظلت تلك الحادثة بينهما مغطاه ومنفصلة وكانها غير حقيقية . ولم يغير مرض العجوز اى شيء من ذلك . لقد رقدت مريضة فترة قصيرة وهى تخجل من مرضها فتمتنع عن طلب اى شيء من إبنتها . وكانت تتاوه على فترات بصوت عال ولكن بمجرد ان تسمع باقتراب الخطوات تمسك نفسها وتصمت مهما كان ذلك يزيد من المها وتجيب على جميع الاسئلة بانها تشعر بتحسن عن الامس وان كل شيء سيمر . وقد تناقشا نقاشا طويلا بشان إستدعاء الطبيب . وعندما إستدعت الطبيب اخيرا تبين ان إلتهاب الرئتين قد زاد زيادة بالغة . وعندئذ إنتبهت الآنسة واستخدمت احدى النسوة لكي تعاونها في المنزل وإعتنت بامها بنفسها في إخلاص وضمير رغم انه لم يتلاشى ، حتى في هذا الحين ، البرود الخاص والغضب الغريب الذى كان يسود العلاقة بينهما على الدوام . ولكن الامر لم يدم طويلا ، ففى اليوم التاسع توقف قلب المريضة ولفظت انفاسها الأخيرة .

وصدمت الآنسة بتلك السرعة والبساطة التى تجعل من الشخص الحى جثة هامدة صغيرة أكثر من صدمتها ببعض مشاعر الحزن والخسارة . وكلما دققت النظر بداخل نفسها واعملت الفكر فى كل شيء لم تستطع ان تجد فى نفسها شيئا يشبه الحزن الحقيقى العميق . وشعرت بالضيق نتيجة لذلك . وكانت تقول لنفسها وهى ترقد فى السرير فى الظلام نفس الكلمات التى كانت عبر النهار تكررها أمام الآخرين - ياليؤسك ياأمى ! ليرحمها الله ! ولكن الدموع لم تنجح فى الظهور ليلا كما لم تظهر نهارا .

وحضرت الدفن إمراتان او ثلاثة من الجيران وجميع افراد عائلة حاج فاسيتش وشمل التاجر جورج حزن دفين . وقد افشى شحوب الوجه حزنه الداخلى البالغ الذى كانت دموع التاجر الصغيرة النادرة وسلوكه المهذب يعبران عنه تعبيرا غير امين . وبعد الدفن لم تدع الآنسة احدا ولو حتى لشرب القهوة . ودعاها الأقارب الذين ارتبكوا لتصرفها هذا المخالف لكل نظام وعادة - لان تحضر إذن عندهم وان تشاركهم الحزن والعبء فى هذه اللحظات العسيرة ، فأجابتهم بصراحة انها ليست فى حاجة إلى ذلك وانها تحب أن تظل بمفردها . وهكذا ظلت فعلا .

عندئذ فحسب بدات الحياة الحقيقية لرايكا ، تلك الحياة التى كانت تسعى إليها دائما بلاوعى والتى كان يفصلها عنها شيء على الدوام . وحتى امها رغم كل هذه الطاعة التى تشبه طاعة العبيد كانت تحتفظ لآخر يوم فى المنزل بشيء صغير . شيء من تلك العادات العتيقة التى لم يكن من الممكن إستئصالها . والآن إختفى كل هذا .

وعلى الفور تخلصت الآنسة من القط الكبير جاجان ، وهو قط شديد الشراهة ومضيع للوقت وبسببه كانت كثيرة الاختلاف مع امها حتى اخر يوم . وباعت كل كتب امها ايضا وإرامها نفسها منذ فترة لاتبتاع كتبا جديدة ولاتقرا شيئا ولاحتى كتب الجغرافيا الالمانية كما كانت تفعل احيانا لانه ليس لديها متسع من الوقت ولاتشعر بحاجتها إلى القراءة ! والقت باصص الزهور ، وهو شيء من الرفاهية كانت السيدة تدافع عنه فى إصرار لعدة سنين وقذفت بالزهور وبالطين فى غضب وإنتقام إلى القمامة وتركت الاصص لكى تبيعها حينما تحين الفرصة المناسبة لذلك . واوقفت ساعة الحائط الكبيرة التى كانت ايضا مثار نقاش مستمر طويل بينها وبين امها ، وقد إعتبرت الآنسة ان هذه الساعة العتيقة شيء ثمين زائد عن الحاجة حيث يوجد بالمنزل ساعتان للجيب . وكانت الام تؤكد انها حملت هذه الساعة من منزل ابيها وأنها قضت بجانب دقاتها طفولتها السعيدة وسنوات الزواج الاكثر سعادة وانها تريد أن تسمعها حتى نهاية حياتها وبعد ذلك فلتفعل بها ماتشاء . ولم يكن بامكان الآنسة مطلقا ان تفهم ماهية العلاقة بين ماتسميه الام بالسعادة وبين دقات الساعة العتيقة . ومنعتها الآن من الحركة فى حدة وحقد واوقفتها إلى الابد بحيث لن تحتاج إلى إصلاح او ملء او تزييت . ونزعت ايضا مفارش الموائد والاغطية المصنوعة من القطيفة التى كانت الام لاتزال تضعها فى غرفتها وغطت الاشياء باوراق الصحف . وخلعت من الحائط جميع الصور ماعدا صور والدها . ولم يعد بالمنزل شيء من تلك الاشياء القليلة الاهمية الزائدة التى تبعد وتستنفد إنتباهنا ، والتى بدونها لايرى معظم الناس الحياة حياة . لم يعد هناك اى لون أو صوت أو اثر من المشاعر المضرة والمتعة الثمينة ، وهكذا اخيرا بعد كل هذه السنين من الاستسلامات والتنازلات الصغيرة حصلت الآنسة فعلا على حريتها فى المنزل الذى يلائم افضل ملائمة رغباتها وإحتياجاتها العميقة جدا . لقد اصبحت حرة وبمفردها .

إن كل هواية حقيقية عظيمة تتطلب الوحدة والانطواء ، فالشخص الذى

يخدم هوايته يريد أن يظل مستترا غير معروف ومنفردا مع عادة هوايته ، ويحب ويكثر من الحديث عن أى شىء آخر بطريقة أفضل من حديثه عن الموضوع الرئيسى الذى يشغل أفكاره ورغباته . وحتى الرذيلة لها حياءها وإعتباراتها ، وإن كانت إعتبارات معكوسة شاذة . وكانت بلغراد فى هذه السنوات بيئة مناسبة للانسان الذى يريد أن يبقى بين المجموع منفردا والا يلاحظه أحد فى الزحام المضطرب . وبامكان الانسان أن يختفى وأن يعيش متواريا كيفما يشاء فى هذه الفوضى الثرية الدافقة وفى الانهمار المستمر لاشخاص جدد متنوعين واشكال جديدة من الحياة والعادات ، وفى التغيير والتطور المفاجىء غير المتناسق لكل شىء فى هذه الحياة التى لا راحة فيها ولا إستراحة - دون أن يراه احد وكأنه فى غابة كثيفة او مدينة بها مليون - وهنا وجدت الآنسة أيضا مكانا لها

وبمرور الوقت إنتظمت الاحوال فى البلاد وفى العاصمة . وإقتصرت الاعمال النقدية على الحد العادى بدون تلك الكثرة الطائشة التى يزدهر فيها الاحتكار وبدون تغيرات أو قفزات مفاجئة . وبالتدريج إختفت من ميدان تيراريا محال الصرافين وإختفت معها إمكانية اللعبة المتغيرة المستترة التى لايمكن للمرء خفية وبدون ذكر إسمه أن يلعبها وأن يخسر أو يكسب بقدر حكمته وقوته وحظه بالنسبة للآخرين - دون أن يضطر إلى أن يحاسب عن المكاسب أو عن الخسائر أو عن الارتفاع أو الانخفاض الحماسى الذى يصاحبها . وإنخفض مد وجزر الاحتكار العام الذى إستمر خلال العدة سنوات الاولى وتراجع إلى البنوك والمصالح . ولم يعد هناك مكان أو ظروف للاعمال التجارية والمكاسب الصغيرة . وحتى بدون ذلك زاد حذر الآنسة وأصبحت تقرر بصعوبة متزايدة الاشتراك فى الأعمال التجارية - حتى ولو كانت صغيرة جدا - إلى أن كرست نفسها تماما للادخار فحسب . ولم يمكن التفكير مطلقا فى إقراض النقود بالربا فى هذه البيئة الخطيرة المجهولة الجديدة . ولم تكن تشترك فى الأعمال التجارية - إذا أمكن أن تسمى بالأعمال هذه الأعمال التجارية البسيطة الصغيرة الوجلة الموجودة على حافة لعبة كبيرة بالنقود والأوراق المالية - إلا فى حالة ما إذا كانت طبيعة هذه الأعمال تساير الادخار فى نفس الوقت تقريبا ، أى تكون مضمونة وسريعة ومباشرة ولو حتى بمكسب قليل للغاية . وقد نظمت امورها على ألا يتغير تقريبا إيرادها السنوى الذى كان يأتى من ايجار المنزل بسرايفو ومن الأسهم والفوائد المختلفة على التجارة

المستترة . وعند التغيير فانه يميل أكثر إلى الانخفاض منه إلى الارتفاع . ولكنها لذلك تجتهد فى أن توفر - بتقليلها المستمر من إحتياجاتها وإنفاقها - أكثر مايمكن توفيره من ذلك الدخل وتضمه إلى رأس المال الذى يرقد وينمو فى إطمئنان وتؤدة ، وباستمرار وفى امان . وتعلقت فى كل هذه الامور فى صمت وهدوء كما تفعل الدودة فى الشجرة وقد وهبت نفسها تماما لهذه الجهود

وهكذا مرت عشر سنوات مع الحوادث والتغيرات التى كانت فى ذلك الحين أكثر حيوية وصخبا فى بلغراد منها فى أى مكان آخر . ولم تتابع الآنسة هذه التغيرات بل لم تلحظها تقريبا . وحينما كانت تذهب فى الاعياد الكبيرة إلى عائلة حاج فاسيتش وتستمع إلى مختلف الانباء العائلية والشخصية الجديدة كانت تبدو لها وكأنها آتية من عالم آخر .

وقد أصبحت السيدة سيكا أكثر بدانة وثقلا ولازالت بعينيها حيوية وإشراق . ولكن لون بشرتها أصبح أصفر قاتما وتحول الشعر الأسود الذى يعلو الفم إلى شعر خشن . وقد زوجت إبنتيها زواجا حسنا للغاية ، ذلك لأن الفتاتين لم تتزوجا بمن كان يراقصهما من الشباب ولا بالشعراء التقدميين الذين كانتا تعشقهما فى عام ١٩٢٠ . بل تزوجت دانكا من أحد رجال البنوك المشهورين ويدعى ستراجاراتس ، وقد ورثت الشارب الخفيف عن أمها ولكنها تجاهد جهادا أفضل ضد البدانة ولديها طفلان . وتزوجت داريتكا من أحد المهندسين المعماريين ، سنه متوسط وهو أستاذ بكلية الهندسة . وتزوج ميشا أيضا من عائلة من العائلات التى بها كثير من رجال البنوك ، وهكذا أصبحت هناك علاقة مصاهرة مزدوجة مع عائلة ستراجاراتس . وقد أصبح ميشا معروفا بصفته خبيرا فى المسائل المالية وعضوا فى مختلف اللجان الدولية . وتقدم العمر بالتاجر جورج تقدما سريعا ولكن بلا تغيرات كبيرة . ونظرا لعدم تغيره يتحطم داخليا ويذبل بشكل ظاهر .

وهكذا فى إحدى المرات فى أعياد الميلاد سمعت عند عائلة حاج فاسيتش بوفاة يوفانكا بسبب مرضها بالتيفود فى ارياف صربيا حيث ذهبت لتأدية عمل لغيرها فنقلت العدوى . وعولجت علاجا خاطئا وكانت العناية بها ضعيفة فاهلكتها العدوى . وفى عيد ميلاد السنة التالية ١٩٢٨ علمت من حديث عابر جرى فى حضورها أن رانكوفيتش قد أصبح مديرا لاحدى المزارع الحكومية الواسعة فى سلوفينيا وأنه يستقبل هناك شخصيا

ضخمة وبعد الحفلات والولائم التي تكتب عنها الصحف ويتحدث عنها افراد الشعب.

وقد علمت الآنسة بكل هذا بمحض الصدفة فحسب. واستمعت إليه بدون ادنى إنفعال، وبعد ذلك على الفور نسيته وهي تعود إلى هدوئها الذي ليس فيه زواج او مرض او موت. (في الحقيقة، ليس هذا بصحيح إلا فيما يتعلق بالزواج والموت وليس صحيحا فيما يتعلق بالمرض لانه لايمكن القول بان الآنسة لم تمرض. فقد تأكد ضعف قلبها ويبدو انه في إزدياد مستمر ولكن الآنسة لاتعترف بهذه المصيبة إلا خلال تلك اللحظات التي تستمر فيها النوبة وبمجرد ان تنتهي فانها تهملها وتنساها ولاتدعها تعوق هدوءها الذي خلقته حولها وبداخلها).

وقد إضطرت الازمة المالية والاقتصادية التي جرت في عام ١٩٣٠ الآنسة إلى ان تتحرك من هدوئها هذا لالكي تكسب وإنما لكي تحمي مكاسبه. وعندما شعرت بالتردد والشك في اعمال البنوك كانت من بين الاوائل الذين سحبوا اموالهم المستثمرة ومنعوها من التجمد. وقد اضطرت حتى إلى ان تغلق منزلها وان تسافر إلى زغرب بسبب النقود التي كانت تملكها هناك في بنك صربيا.

كانت هذه ايام مؤلمة مثيرة. وظهرت بداخلها مرة اخرى تلك القوى القديمة والتحفظ الذي تغذيه إلى الابد بنفس الرغبة. وهي الا تكون في الجانب الذي يخسر ابدا وباي ثمن ولو للحظة واحدة. وحينئذ شعرت شعورا حيا بانها منعزلة إنعزالا كاملا في العالم اكثر مما استطاعت ان تتصور، وانه ليس لها اي شخص قريب او موثوق به يمكنها ان تتشاور معه على الاقل في المسائل المالية، كما كانت تفعل في وقت من الاوقات مع كونفورتي ومع المدير باير ومع فيسو. إن الانسان يمكنه ان يدخر بمفرده بدون اي شخص. ولكن من العسير للغاية التجارة والدفاع عن النفس في مثل هذه الظروف وتزداد مشقته بمرور السنوات.

وكانت تذهب وقد تملكها الخوف والقلق إلى البنوك وتتوسل وتكذب في إصرار وبشكل واضح إلى حد ما وتقول انها في حاجة عاجلة الى مال لكي تدفع بعض الديون التي لايمكن تاجيلها. وكانت تمضي في الشوارع وقد ربطت حزم الاوراق المالية من فئة الالف والمائة دينار كالدرع حول صدرها النحيف او مثبتة في الثوب بالحياكة وهي تدور على عقبيها وتلتفت بلا انقطاع خشية ان يكون هناك من يتبعها. وافرغت عن عمد وبطريقة ملفتة

للانظار خزانتها الموجودة في بنك يوجوناك الذي كانت تحتفظ فيه بالبندقات والاسهم والسندات مدعية انها لم تعد بحاجة إلى الخزانة لانها لاتملك شيئا تضعه فيها. ولاقت في المنزل مشقة بالغة بسبب لفائف الاوراق النقدية والكيس الصغيرة للذهب دون ان تعرف اين تخفيها. وقد إبتاعت مغاليقا امريكية لباب المنزل وابواب الغرف. وقد اشترتها من مدينة زغرب حتى لايمكن لصانع المغاليق الذي سيقوم بتركيبها ان يصنع مفاتيحا لها. وفي ذلك الحين قامت بعمل قضبان حديدية ايضا على جميع النوافذ. ولفترة طويلة كابدت عسرا لكي تجد في المنزل مخبئا تخفي فيها المال بحيث يكون موزعا على عدة اماكن مأمونة. وقد إشترت صناديق من الصفيح وزعت فيها الاوراق النقدية والذهب والسندات وخبأتها في المدافيء التي لاتوقد او كومتها في اماكن خفية ووضعت عليها الواحا من الخشب. وغالبا ما كانت تستيقظ في ذلك الحين ايضا نتيجة لحفيف مريب يشبه وقع اقدام بشرية او لخوفها من فكر إمكانية إشتعال حريق. وكان قلبها يدق بعنف في صدرها واذنيها وكانت تقفز من السرير - وهي على هذا الحال غير مرتدية لملابسها - وتخرج الصناديق الصفيح المخبأة وتحملها من مكان لآخر وهي لاتزال مترددة معذبة بالشك ترتعد من البرد القارس ومن الافكار المتنوعة، ودون ان تجرؤ على ان تعيدها إلى مكانها القديم وهي غير قادرة على العثور على مخبأ جديد يهديء من روعها واخيرا ينال منها التعب مناله ودون ان تجد مخرجا آخر - ترقد ثانية في السرير مع الصناديق الصفيح الباردة ومع الهموم التي لاتجد لها حلا. وحينئذ ايضا تستغرق في النوم بمشقة لاتنام نوما سيئا. لقد تأكدت من انه ليس هناك لصوص او اخطار من إشتعال حرائق. ولكنها ليست مطمئنة ولايمكن ان تكون لانه يبدو لها - في يقظتها وفي نومها ايضا - انها تشعر بالدينار البائس وهو يتزحلق ويسقط وبالاوراق النقدية تفقد قيمتها وبالخوف ينتشر ويتمر في جميع النواحي كاللعنة.

وهكذا لبثت شهورا تتعذب ولكن إرادتها القوية والسعي باصرار تتغلبان على كل شيء. وكانت الآنسة تصدر قراراتها في اثناء تلك اللحظات الارقة والمخاوف المتعددة. فقد تشجعت وراحت تشتري بالتدريج من السوق السوداء الفرنكات السويسرية بخمسة عشر سبعة عشر دينارا. وهكذا تحولت تلك الحزم الضخمة من الاوراق المالية بالدينار إلى عدة عشرات من الاوراق النقدية السويسرية الزرقاء من فئة الالف والاوراق الحمراء من فئة

الخمسمائة فرنك . ولم تكن هذه الفرنكات تحتل أماكن كثيرة ، وبعد شهرين كان بوسعها أن تبيعها باثنين وعشرين وأربعة وعشرين دينارا ولكنها لاتفكر فى ذلك فهى تحتفظها فى مخبأ جديد يظهر لها مأمونا . على الأقل حتى الآن . هذه الفرنكات باختلاطها مع أكوام النقود الأجنبية والأشياء الثمينة الأخرى تشكل مكانا عزيزا معروفا معرفة جيدة وجديدا على الدوام ، تزوره الآنسة كثيرا وتتأمله لفترة فى مختلف أوقات النهار والليل على الضوء الكهربى أو ضوء النهار أو على ضوء الشمعة الهادىء .

هنا كانت ترقد تلك الأوراق المالية السويسرية الثمينة فى فوضى رمزية بجانب الأوراق النقدية المبعثرة من فئة الخمسة والعشرة جنيهات البيضاء كالرسائل الغرامية ووراء تلك الأكمة من الأوراق الثمينة المتعددة الألوان يظهر بريق الذهب والحلى المتنوعة التى ورثتها أو اشترتها أو ظلت لديها رهينة لقرض من القروض . وتتوالى فى المؤخرة فوق كل ذلك . وكأنها إنتثرت بطريق الصدفة - أربعمائة وإحدى عشر عملة ذهبية أمريكية من فئة العشرين دولارا . وكلها متشابهة : على قدر من الاتساع والثقل والدفء والبدانة وكأن رحيق الحياة يسير فيها وكأنها تتنفس وتنمو والبروز الحاد للحروف المكتوبة ، والأشكال الموجودة عليها فحسب تظهر أن هذه نقود ومعدن ميت . على أحد الوجهين الآلهة الضخمة للحرية وعلى جبينها كتبت كلمة الحرية ، وعلى الوجه الآخر الشعار الأمريكي ومكتوب عليه بحروف واضحة صغيرة Ex , plurbus unun إن كل هذا لا يتغير أبدا ولكن يمكن قراءته ساعات وأيام وسنوات وكأنه كتاب غريب يمتد ويتكرر من نفسه . وهكذا يمتد هؤلاء الأمريكان الضخام فى سلسلة ملتوية : جيش ذهبى يقوم بغارة عبر الروابى والسهول الحمراء والبيضاء والبنفسجية من الحلى والأوراق النقدية . ومعه يمضى موكب ظاهرى (ظاهريا فحسب) من النقود والعملات التركية المبعثرة غير المنتظمة التى أصبح لونها قاتما نتيجة لقدمها وأصبحت خفيفة ورقيقة بحيث أنه عند إلقائها على لوحة مرمرية تعطى صوتا أشبه بحفيف الأوراق أكثر من صوت المعدن . وأصبحت حوافها منحوتة غير متساوية . ففى خلال عديد من السنوات قرضتها وأكلتها الشراهة التى لاتشبع من جانب الصرافين اليهود وجميع الصرافين الآخرين المعمدين وغير المعمدين فى منطقة البلقان وفى الامبراطورية العثمانية كلها .

وتتذكر الآنسة جيدا أن جميع هذه البندقات قد إشترتها فى السنوات

الحرجة (١٩٠٨ ، ١٩١٢ ، ١٩١٣) بثمن بخس للغاية من السادة والمبذرين من مختلف المسلمين أو من أرامل البكوات اللاتى تنفجرن فى البكاء بسرعة ، ولكنهن أيضا يدرن ظهورهن بسهولة ويصفقن الأبواب ويفسدن العمل كله . ولاشىء أكرم من التجارة مع مثل هذا النوع من الناس ، ذلك لأن إحتقارهم للحساب والمساومة مساو لاحتياجهم للنقود ، ونتيجة لتلك الحاجة التى تدفعهم والحياء الداخلى القوى الغامض والكثير من الاعتبارات التى تعوقهم فإنهم يغدون فريسة ثرية سهلة للتاجر الذى يعرف كيف يتغلغل إلى أعماقهم ويفهمهم ويستغلهم بمهارة . وكلما تلقى النظر على هذه البندقات التركية تتذكر الآنسة تذكرا قاتما بعيدا هؤلاء العملاء السذج المتكبرين ومكاسبها السهلة الوفيرة معهم . وحينئذ غالبا مايحدث أن ينتعش بداخلها مرة أخرى ويدق ذلك القلق الآخر العجيب . ولكنه لايدق فى ضخب وحماس كما كان يفعل أحيانا فى لحظة النصر الكبرى ، بل يدق بصوت خافت بعيد وكأنه ليس إلا صدى لتلك الدقات السابقة .

وتسير فى نهاية وعلى جانبى الموكب الأول والثانى من العملات الذهبية مائة من النابليونيين ومن الديوك الفرنسية الصغيرة الرشيقة ذات الشكل المحدد الواضح المضىء . وهم كفرسان فرقة المقدمة والحماية ، ولهم إسم جميل وصوت جيد لايمكن للأذن أن تشبع من سماعه .

هذا هو المنظر الغريب الذى تتمتع به الآنسة كل يوم ، وهو نافذتها على العالم ورفاقها وكتب قراءتها . وهو عقيدتها وعائلتها وغذاؤها ومتعتها . وبعد كل فحص وعد يصبح هذا المنظر مختلفا ، ولايمكن أن تعرف هل ما يمنحه أكبر وأجمل وأكثر قوة مما يعد به . هنا يوجد أساس ومعنى وهدف الحياة .

وكانت الآنسة تعيش بجانب هذه الثروة فى سكون ، وفى حذر وإنتباه الحية ، فلاتسمح لأحد بدخول المنزل وتغلقه قبل الظلام وبعد أن تتأكد من كل شىء مرتين أو ثلاثة وتعد لكل أمر عدته . يبقى بالطبع شاغلها اليومى مع الأسهم ، فهى تعيش من ذلك . وأصبح إيرادها من الكوبونات ضئيلا ولكن الادخار يعوض كل خسارة ويساعد حيثما يضيع كل شىء . وظل الادخار يملأ الحياة تماما ويمكن العيش معه حتى النفس الأخير الذى يمكن أيضا إقتطاع وإدخار شىء منه .

وهكذا تقضى الآنسة حياتها فى شتاء عام ١٩٣٥ حيث توجد علامة إستفهام أمام جميع السندات وتستحيل كل التوقعات لأمر طويل وفى

الحقيقة ليست هذه هي الحياة بل إنه الادخار . إن صحراء الادخار كبيرة ورائعة وتودي بالانسان ويضيع فيها كذرة من الرمل . ولايوجد بها ولايمكن أن يوجد بهذه الصحراء شيء آخر .

منذ فترة لم يعد هناك بالليل أحلام عن المليون .. تلك الأحلام التي كانت في فترة من الفترات تشملها بالاشراق وتجعلها ترتعد من الانفعال حتى الغد . (وفي الحقيقة فقد إمتلكت في الذروة الكبرى لأعمالها مليونا من الكوبونات .. الكوبونات النمساوية الفقيرة المفلسة ، ولكن لم تملك ذلك المليون الحقيقي من الذهب الذي حلمت به عدة مرات ويعد أول مليون ويقود وراءه مواكب من الملايين) وحتى ذلك القبر الموجود في سرايفو فلم يعد يشع ضوءا كما كان يفعل من قبل . لقد أصبح منذ فترة أبكما باردا وخاصة لبعده . إنها لم تنس شيئا من كل ما كان ، ولكن لم يعد لشيء سلطان عليها . إنها لاتزال تحفظ العهد الذي أعطته لدى وفاة والدها ، إلا انه يبدو وكأنه لعبة قديمة غامضة غير مجدية من عهد الطفولة . فيه أو بدونه تظل حياتها على ماهي عليه من البداية ، فقد تجاوز الواقع هذا العهد منذ مدة وتركه وراءه . إن كل الأمور أشق وأكثر إختلافا وتعقدا عما تنبأ به والدها وعما ظنته في سنوات الحماس الشابة . وأصبحت علاقتها بالأموات والأحياء أيضا أكثر ضعفا ، فهي لاتقابل أحدا في المدينة وليست في حاجة إلى الناس . وهم يمرون بجانبها ويولدون ويمضون ويموتون وليسوا إلا أحد العوامل المضرة أو المفيدة ، الجيدة أو الخطرة في إدخارها ، وهي ليست واعية بوجودهم ولاتشترك معهم في أي شيء . وحتى الوقت ليس موجودا بالنسبة لها ، فلا توجد إلا آجال الدفع والأخذ . ولايوجد مستقبل والماضي مندثر . وفي بعض الأحيان تتذكر الخال فلادو واباها وطفولتها . وهذا يسحب وراءه خيطا في كرة الذكريات وحينئذ تظهر وتنتعش - كما حدث الليلة - وجوه وحوادث أخرى لم تفكر بها منذ سنوات . ولكن كل ذلك ظل لبضع دقائق فحسب بقدر مايستمر هذا الوقت المعتم بين النهار والليل الذي لايمكن إستخدامه في شيء أكثر عقلانية من ذلك ، لأنها لم تعد ترى الابرة أو الخيط وخسارة أن تشعل الضوء . وقد طالت هذه البضع دقائق الليلة لأن حياتها كلها بحوادثها القديمة وأشخاصها وأعمالها هبطت أمامها . ولكن كل هذا لايعني شيئا . وفي الحقيقة ليس موجودا بالنسبة لها وكأنه لم يكن موجودا مطلقا . ولو أن كل هذا ..

وتملكت الآنسة إنتفاضة ورعشة . إن شخصا بجوارها أسدل في حدة وجلبة الستائر على النوافذ وسبها من ذكرياتها النسائية . وتركت الحبوب وذلكت بيديها البارد تين ونهضت بسرعة عن النافذة . وكان الظلام سائدا في الغرفة . ولابد أن الوقت كان متأخرا . وراحت تفكر في صعوبة وقد تجمدت من البرد . هل تشعل الضوء أولا ثم بعد ذلك تحرك النار أم العكس . وهكذا وقفت وسط الغرفة بعضا من الوقت في الظلام دون أن تتصرف ، ثم قررت وهي تبتسم إبتسامة سعيدة أن تؤجل هذين العملين غير اللطيفين لبضع لحظات وبدلا منهما فلتتأكد مرة أخرى من إغلاقها لجميع الأبواب .

وتحركت في شيء من قلة الثبات وهي لاتزال متأثرة بالذكريات العديدة التي هبطت عليها الليلة كما لم تفعل من قبل وخرجت إلى الردهة في الظلام الشامل .. الظلام اللذيذ الذي يمثل الادخار . أي أنه مثل النقود . وهي تتحسس بحركات مألوفة الأشياء المعروفة ولكنها قبل أن تصل إلى باب المنزل لاقت يداها الممدودتان في الظلام شخصا . وافلتت منها صيحة قصيرة خافتة لدرجة أنها هي نفسها خافت منها . وإرتعدت بأكملها ولم تجد الأقدام من القوة للعودة إلى الوراء قليلا . وتأكدت - وهي تلمس قطعة القماش الخشن الرطب ولاتزال غائبة في الاضطراب والشرود لتعدد الذكريات - انها تقف أمام شخص دخل الآن من الخارج . وأرادت أن تصيح وأن تنادي ولكن هناك صوت . وبنما قلبها وملأها كلها . وشعرت بعد ذلك أنها أصبحت فارغة فجأة وتحولت إلى وخزات باردة ولم يبق من كل شيء إلا فكرة سريعة بأنها ليست وحدها وأنه يقف هنا في الظلام شخص مجهول لايرى يتربص طوال حياته بأموالها . شخص يأتي إن آجلا وإن عاجلا من أجل المال . وإستعرضت الاف المرات في الظلام من تفكيرها فيه وتبين لها أن خوفها لا أساس له . وهذه المرة يبدو أنه حضر فعلا ويقف هنا وسط الردهة مرتديا معطفا رطبا ومستعدا كل لحظة لأن يبدأ عملية السلب ، بيد أنها في هذه المرة بالذات لاتعلم ماذا ينبغي عمله وكيف تدافع وتحمي نفسها ، وإجتهدت في أن تتذكر ما ينبغي عمله في فكرة واحدة أقصر من البرق ولكنها لم تفلح . وأنها لتتذكر جيدا أنها دائما ماكانت تخاف من السرقة ومن اللصوص . كانت ترتعد مرات عديدة في الليل نتيجة لصوت مريب أو ظل غريب وبعد ذلك كانت تفكر طويلا فيما تفعل لو أن شخصا - رغم كل إجراءاتها تلك - تسلل إلى المنزل وهاجمها . وبعد لأي

وفى تبذل كل جهد لكى تضع نقودها فى مكان مأمون وأن تخبئه وتأمنه وتخفى اثره . ولم تكن تفعل طول حياتها او تفكر فى شىء آخر ، بحيث أن حياتها فى النهاية لم تكن تتألف من إجراءات الحيطة تلك . إنها تتذكر ذلك . ولكن مايحدث فى هذه اللحظة جديد وعلى قدر كبير من المفاجأة والفظاعة وكأنها لم تهلع من قبل ولم تتوقع ولم تفعل شيئا لكى تؤمن وتحمى نفسها . ويبدو لها انها قضت حياتها فى عدم مبالاة وراحة بال غامضة لاتغتفر دون أن تتوقع او تتخذ شيئا وأن المال والحياة يضيعان الآن فى جنون وخرق وفى غير داع لاشىء إلا بسبب تهورها وإهمالها الفطرى . ويظهر لها انها تعرف فى الوقت الحالى كيف تدخر وتحفظ وتخفى . ولكن سبق السيف العزل . فأمامها من هذه الجهة المغلاق يقف لص دنىء فى الظلام . لقد إنتهى كل شىء . وكانت لاتنتظر إلا صوته المجهول وهو يقول لها : اعطنى المال ! وتنتظر حركة يديه القاتلتين من الاكمام المبللة . ولكنها لم تسمع شيئا ولم تقدر على الشعور بشىء فقد كان قلبها يخنقها بشدة متزايدة لامفر منها . وأصبحت اذناها لاتسمع وعيناها البارزتان لاترى وفمها المفتوح لاينطق ببنت شفة وخانتها ركبتاها .

وأثناء وقوعها إلى الأمام لوحت مرة أخرى بيديها الممدودتين كأنها ستسبح وأوقعت المشجب الذى كان معلقا عليه معطفها الشتوى المبلل المصنوع من قماش خشن .

وأثناء رقودها على الأرض كانت تمزق بحركاتها التشنجية بلوزتها الصوفية على صدرها فى جهد يائس لأن تفسح مكانا لانفاسها المتوقفة . آه ، بعض من الهواء فحسب ، نفس واحد ليس إلا . وربما سيتم إنقاذ كل شىء . الحياة والممتلكات والمال إنها تعطى الذهب فى سبيل نفس واحد ، ولكن ليست هناك انفاس . الركبتان ترتعدان وقمة رأسها تريد أن تنفجر ، وتوقف الدم ويرقد بداخلها كالرصاص . لم تعد هناك انفاس مطلقا وضعفت حركاتها إلى أن هدأت تماما ولم تبق إلا حشرجة خشنة لبضع لحظات تبين العلامات الأخيرة لمكافحة الموت . وحتى هذه الحركات سكنت . وهدأ الجسم وظل ممددا فى الظلام والهدوء .

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٥٤١٣ / ٨٥
الترقيم الدولى ٩ - ١٩٣ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

٧٥ قرشا

هذه الرواية

رواية « الآنسة » للأديب اليوغسلافي إيفو اندريتش تعرض لنا عدة موضوعات في آن واحد. فهي تتطرق إلى موضوعي الفراغ والوحدة وتأثيرهما على حياة المرء، كما أنها تتطرق إلى رذيلة البخل وتعالجها معالجة جديدة طريفة بحيث تضفي عليها الكثير من العناصر والأبعاد الجديدة.

والشخصية الرئيسية في هذه الرواية هي شخصية رايكا التي نتيجة لبعض الظروف الشخصية والاجتماعية إكتسبت صفة البخل. الأمر الذي افقدها اسمها الحقيقي وجعل افراد المجتمع يطلقون عليها اسم « الآنسة ». وقد شوه البخل وجه « الآنسة » وجعلها اسيرة له ولمطالبه. وحتى امها لم تسلم من قسوتها ومن سوء معاملتها.

ولم يكن هناك سوى شخص واحد يبهجها ويدخل السرور على قلبها الا وهو خالها المستهتر الذى لايشعر باى مسئولية ولايحمل في قلبه هما ولاغما. واستطاع هذا الخال أن يلين قلبها المتجمد المتحجر. وبسبب حبها لهذا الخال تنهار كل مبادئها بخصوص التوفير والتقتير وذلك لأنها تعرفت على شاب طائش قريب الشبه من خالها واستطاع هذا الشاب أن يصل إلى مفاتيح قلبها فاصبحت ضعيفة امامه وامام مطالبه المتزايدة.